

الكَلِيمُ يَسْألُ والْكَرِيمُ يُجِيبُ

تأليف

محمد هاشم عبد العزيز

عفا الله عنه وغفر له بمنه وكرمه



مقدمة المؤلف

إِنَّ الحَمْدَ لله، نَحْمَدُهُ ونستعينُهُ ونستغفِرُهُ، ونعوذُ باللهِ مِنْ شُرُورِ أنفسِنا، ومِنْ سَيئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ الله فلا مُضِل لَه، ومَنْ يُضلِلْ فلا هَادِيَ لَه، وأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَه إِلَّا الله، وَحْدَهُ لا شريكَ لَه، وأَشْهَدُ أَن مُحَمدًا عبدُهُ ورسولُه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بَعْدُ:

فَإِنَّ أَصْدَقَ الحديثِ كِتابُ الله، وَأَحْسَنَ الهَدْيِ هَدْيُ محمَّد ﷺ، وشَرّ الأمورِ مُحْدَثَاتُها، وكُل مُحْدَثَةٍ بِدْعَة، وكُل بِدْعَةٍ ضَلالَة، وكُل ضَلالَةٍ في النار.

ثُّم أما بَعْدُ:

فإن الخير كل الخير أن يعيش الإنسان مع الذين أمرنا الله أن نقتدي بهم حيث قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وهذه الآية جاءت بعد ذكر الله للأنبياء والمرسلين، فأمرنا أن نقتدي بهم، ونحن مأمورون أن نعيش مع قصصهم ومواقفهم، ومأمورون أن نَقُصَّهَا؛ قال الله تعالى: ﴿**فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [الأعراف: ١٧٦].

وكذلك نأخذ منها العظاتِ والعبرَ، وفي هذا يقول ربنا ﷻ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١١١].

وفي هذا الكتاب وقفنا مع نبي من الأنبياء الكرام، وليس هذا فحسب، بل إنه من أولى العزم من الرسل، الذين خصهم ربنا بالذكر في موضعين: فقال في سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب: ٧].

وقال في سورة الشورى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى: ١٣].

وهذا النبي عليه السلام دائمًا ماكان الرسول ﷺ يذكره ويقص مواقفه، بل ويشيد النبي ﷺ بصبره وقوته ومثال ذلك: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: لَمَّا قَسَمَ النَّبِيُّ ﷺ قِسْمَةَ حُنَيْنٍ، قَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ: مَا أَرَادَ بِهَا وَجْهَ اللَّهِ، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ، فَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ، ثُمَّ قَالَ: «**رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى مُوسَى، لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ**»[١].

(١) صحيح البخاري (٤٣٣٥).

وكذلك نجد النبيَّ ﷺ يشيد به[١] وبتواضعه ومثال ذلك: عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ: قَالَتِ الْأَنْصَارُ: إِلَى مَتَى نُصَلِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَى هَذَا الْجَرِيدِ؟ فَجَمَعُوا لَهُ دَنَانِيرَ، فَأَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالُوا: تُصْلِحُ هَذَا الْمَسْجِدَ وَتُزَيِّنُهُ، فَقَالَ: «**لَيْسَ بِي رَغْبَةٌ عَنْ أَخِي مُوسَى، عَرِيشٌ كَعَرِيشِ مُوسَى**»[٢].

وكان رسولنا ﷺ يذكر كثيرًا الأخوةَ التي بينه وبين موسى عليه السلام، لاسيما إذا ما خاطب اليهود ومثال ذلك:

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: كَتَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى يَهُودَ: «**مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ أَخِي مُوسَى وَصَاحِبِهِ، بَعَثَهُ اللهُ بِمَا بَعَثَهُ بِهِ، إِنِّي أَنْشُدُكُمْ بِاللهِ وَمَا أَنْزَلَ عَلَى مُوسَى يَوْمَ طُورِ سَيْنَاءَ، وَفَلَقَ لَكُمُ الْبَحْرَ، وَأَنْجَاكُمْ، وَأَهْلَكَ عَدُوَّكُمْ، وَأَطْعَمَكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى، وَظَلَّلَ عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ، هَلْ تَجِدُونَ فِي كِتَابِكُمْ أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ وَإِلَى النَّاسِ كَافَّةً؟ فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَسْلِمُوا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَكُمْ فَلَا تَبَاعَةَ عَلَيْكُمْ**»[٣]. وغير ذلك الكثير.

---

(١) وليس معنى هذا أن موسى عليه السلام أفضل من رسول الله ﷺ، فالرسول هو سيد البشر وأفضل الأنبياء، وأخذ الله العهد على الأنبياء جميعًا باتباع رسولنا إن بُعث في حياتهم أو في حياة أحدهم، وفي هذا يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [آل عمران: ٨١، ٨٢]. وأيضًا بيَّن الرسول أن موسى عليه السلام لو كان حيًّا سيتبع رسول الله: عَنْ جَابِرِ ابْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تَسْأَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَهْدُوكُمْ، وَقَدْ ضَلُّوا، فَإِنَّكُمْ إِمَّا أَنْ تُصَدِّقُوا بِبَاطِلٍ، أَوْ تُكَذِّبُوا بِحَقٍّ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، مَا حَلَّ لَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي**».

(٢) مسند الشاميين للطبراني (٣/ ٢٣٣).

(٣) السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ٣٠٣).

وانطلاقًا من هذا وقفت في هذا الكتاب مع موسى الكليم عَلَيْهِ السَّلَامُ وقفاتٍ، ولكنها ليست وقفاتٍ عن تاريخه وحياته، وإنما وقفاتٌ مع أسئلته لله عَزَّ وَجَلَّ لنتعلم منه الكثير والكثير[1] ولنقف على الخير الوفير. وكما هو معلوم أن السؤال نصف العلم، فحُقَّ لنا أن نقفَ مع السؤال الذى يُطرح والجوابِ الذي يُجاب به لنقفَ على المعانى والمدلولات لا سيما إذا كان السؤال من نبي بمنزلة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، والجواب من الله العليم العلام.

ومن هنا انطلقت مستعينًا بالله طالبًا منه العون والمدد والتوفيق وقمت بالآتى:

عملي في هذا الكتاب:

١- تتبعت الأسئلة التي سألها موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لله عَزَّ وَجَلَّ، فجمعت ما استطعت أن أجمعه من القرآن والسنة وكتب التاريخ، ولا أدعي أنني جمعتها كلَّها فما خفي علينا أكثر مما علمنا وسبحان من لا تخفى عليه خافية.

٢- كنت حريصًا على أَلَّا آتي بحديث ضعيف، ومن هنا تركت الكثير من الأسئلة؛ لضعف السند؛ إبراءًا للذمة.

٣- جعلت تحت كلِّ سؤال موضوعًا متكاملًا مترابطًا وكنتُ حريصًا على أن يكون حديثى من كلام الله، وكلام رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبعد ذلك أذكر بعض الأقوال من كلام السلف الصالح.

٤- عزوت الآيات إلى مواضعها في القرآن الكريم ذاكرًا اسم السورة

(١) وليس المقصود بالسؤال الاستفهام فقط. إنما أذكر ما جاء سؤالًا بمعنى الطلب مثل رؤية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. وكذلك لم أتعرض لأسئلة جزئية فى سياق أحاديث مثلًا: فى صحيح البخاري (٣٤٠١) «**سأل موسى ربنا** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى **قائلًا: أَيْ رَبِّ وَمَنْ لِي بِهِ؟**». فهذا ومثله لم أتعرض له.

ورقم الآية.

٥- قمت بتخريج جميع الأحاديث الواردة في الكتاب ذاكرًا رقم الحديث ومن خرّجه من أئمة الحديث، وإذا كان الحديث في «الصحيحين» أو في أحدهما اكتفيت بالعزو إليهما أو إلى أحدهما.

أما إن كان في غير «الصحيحين» أذكر مَنْ رواه من أئمة الحديث مُتْبِعًا حكم العلامة الألبانى عليه في كثيرمن الأحيان؛ إتمامًا للفائدة.

٦- القصص والمواقف لها أثر في النفوس، فكنت حريصًا على ذكر المواقف من حياة الرسول ﷺ، ثم من حياة الصحابة والتابعين، مع مراعاتي أن آتي بالمواقف من كتب التاريخ المعتبرة، مع حرصي على انتقاء ما يتوافق مع العقل الصحيح والمنهج القويم دون شطط أو زيغ أو مغالاة.

٧- ذكرت من كلام الشعراء والأدباء ما يخدم الموضوع مع حرصي على انتقاء ما كتبت من شعر يساعد ويخدم الموضوع.

هذا ولا أدّعي أنني جئت بما لم يأت به أحد فهذا جهد المقل، وأسأل الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب كاتبَه وقارئَه وناشرَه، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن يجعله لي ذخرًا في يوم لقياه، إنه سميع مجيب.

وأسأل الله أن يجازي عني أساتذتي خير الجزاء، فهم أهل فضل ومنّة.

وأسأل الله أن يرحم أمّي كما ربتني صغيرًا، وأن يمتعها بالنظر إلى وجهه الكريم، وأن يجمعها مع النبي ﷺ في الجنة.

وأسأل الله أن يبارك لي في زوجتي الكريمة (أم نور) وأن يجزيها عنيِّ خير الجزاء وأن يحفظها من كل سوء ومكروه.

كما أسأله سبحانه أن يبارك لي في هبته الغالية ابنتي الحبيبة (نور) التي أسأل الله أن ينبتها نباتًا حسنًا وأن تكون قرة عين لى في الدنيا والآخرة، كما أسأل الله لها السَّتر في الدنيا والآخرة هي، وجميع بنات المسلمين.

وأسأل الله برحمته أن يحفظ بلاد المسلمين وأهل الإسلام.

- ثم أقول: إن هذا العملَ عملٌ بشريٌّ يعتريه ما يعتري الإنسان من نقص.

- وأُشْهدُ الله ﷻ أنّ كل خطإٍ وقعت فيه في كلامي أو في كتاباتي يخالف الصواب والمنهج الصحيح، فأنا راجع عنه في حياتي وبعد مماتي.

ولا أجد ما أقول لمن وجد خطأً عندى إلا ماقاله الشاطبي:

أَخي أَيُّهَا الْمُجْتَازُ نَظْمِي بِبَابِهِ ... يُنَادَى عَلَيْهِ كَاسِدَ السُّوْقِ أَجْمِلا
وَظُنَّ بِهِ خَيْرًا وَسَامِحْ نَسِيجَهُ ... بِالإِغْضَاءِ وَالْحُسْنَى وَإِنْ كانَ هَلْهَلا
وَسَلِّمْ لِإحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ إِصَابَةٌ ... وَالُاخْرَى اجْتِهادٌ رَامَ صَوْبًا فَأَمْحَلا
وَإِنْ كانَ خَرْقٌ فَأَدَّرِكْهُ بِفَضْلَةٍ ... مِنَ الحِلْمِ ولْيُصْلِحْهُ مَنْ جَادَ مِقْوَلا[1]

فدائمًا الإنسان يثبت بشريته، ويأبى الله إلا أن تكون العصمة لكتابه ولرسوله ﷺ.

وأختم قائلًا:

وليس يضرني وقوف أهل المعرفة على ما لي من التقصير، ومعرفتهم أن باعي في هذا الميدان قصير، فإن أخطئ فمَن الذي عُصِم؟! ولئن أُخَطَّأ فمن الذي وُصِمَ؟!

وأعلمُ أن الخطأ والزلل، هما الغالبان على مَنْ خلق الله من عجل، فإن

(١) الشاطبية الأبيات: (٧٥-٧٨).

أصبتُ فمن الله وحده، وإن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان، والله ورسوله منه براء، وأتمثل قول الشاعر:

لقد مضيت وراء الركب ذا عَرَجِ مؤمِّلًا جبر ما لاقيتُ من عَرَج
فإن لحقتُ بهم من بعد ما سبقوا فكم لرب الورى في الناس من فرج
وإن ضللتُ بقفر الأرض منقطعًا فما على أعرج في الناس من حَرَجِ

وأسأل أل الله تعالى أن ينفعني وإخواني من طلاب العلم بهذا العمل، وأن يخلص نيتي فيه لوجهه، فإن القلوب بيده وألَّا يجعل لأحد من خلقه فيه نصيبًا وأن ينفعني به يوم ألقاه ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]. وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

كتبه ببنانه ورضيه بجنانه

الفقير إلى عفو ربّه العزيز

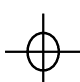
محمد هاشم عبد العزيز

يوم الأربعاء ١٥ رجب ١٤٣٨هـ

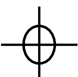
الموافق - ١٢ أبريل ٢٠١٧م

جمهورية مصر العربية

ونزيل - فرانكفورت - ألمانيا



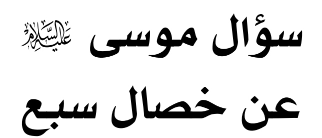




الْفَصْلُ الأَوَّل

مُوسى عليه السلام وَسُؤَالُهُ عَنِ الخِصَالِ السَّبع

سؤال موسى عليه السلام
عن خصال سبع



قَالَ ابْنُ حِبَّانِ:

«ذِكْرُ سُؤَالِ الْكَلِيمِ رَبَّهُ عَنْ خِصَالٍ سَبْعٍ»: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ محمد بن مسلم بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ، حَدَّثَنَا حَرْمَلَةُ بْنُ يَحْيَى، حدَّثنا ابْنُ وَهْبٍ، أَخْبَرَنِي عَمْرُو بْنُ الْحَارِثِ، أَنَّ أَبَا السَّمْحِ حدَّثه، عَنِ ابْنِ حُجَيْرَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:

«سأل موسى ربه ﷻ عَنْ سِتِّ خِصَالٍ كَانَ يَظُنُّ أَنَّهَا لَهُ خَالِصَةٌ، وَالسَّابِعَةُ لَمْ يَكُنْ مُوسَى يُحِبُّهَا:

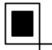
قَالَ: يَا رَبِّ أَيُّ عِبَادِكَ أَتْقَى؟ قَالَ: الَّذِي يَذْكُرُ وَلَا يَنْسَى. قَالَ: فَأَيُّ عِبَادِكَ أَهْدَى؟ قَالَ: الَّذِي يَتَّبِعُ الْهُدَى.

قَالَ: فَأَيُّ عِبَادِكَ أَحْكَمُ؟ قَالَ: الَّذِي يَحْكُمُ لِلنَّاسِ كَمَا يَحْكُمُ لِنَفْسِهِ.

قَالَ: فَأَيُّ عِبَادِكَ أَعْلَمُ؟ قَالَ: **عَالِمٌ لَا يَشْبَعُ مِنَ الْعِلْمِ، يَجْمَعُ عِلْمَ النَّاسِ إِلَى عِلْمِهِ. قَالَ: فَأَيُّ عِبَادِكَ أَعَزُّ؟ قَالَ: الَّذِي إِذَا قَدَرَ غَفَرَ.**

قَالَ: فَأَيُّ عِبَادِكَ أَغْنَى؟ قَالَ: الَّذِي يَرْضَى بِمَا يُؤْتَى.

قَالَ: فَأَيُّ عِبَادِكَ أَفْقَرُ؟ قَالَ: صَاحِبٌ مَنْقُوصٌ».



قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَيْسَ الْغِنَى عَنْ ظَهْرٍ إِنَّمَا الْغِنَى غِنَى النَّفس، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا جَعَلَ غِنَاهُ فِي نَفْسِهِ وَتُقَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدٍ شَرًّا جَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ**»(١).

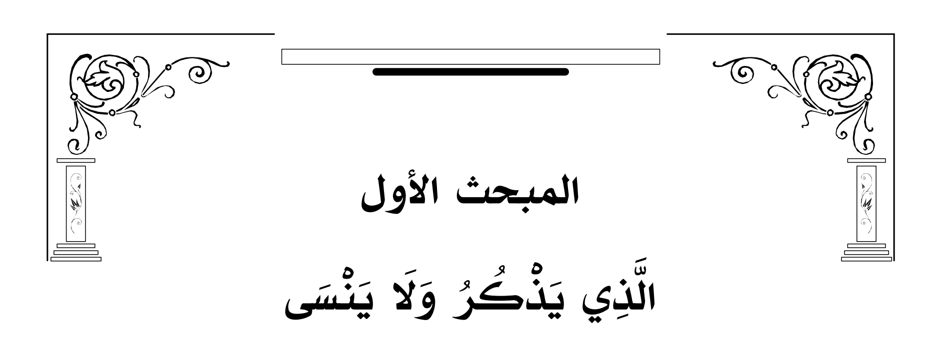
قَالَ ابْنُ حِبَّانَ قَوْلُهُ: «**صَاحِبٌ مَنْقُوصٌ**» يُرِيدُ بِهِ مَنْقُوصَ حَالَتِهِ يَسْتَقِلُّ مَا أُوتِيَ وَيَطْلُبُ الْفَضْلَ.



(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٥٠/٨٦ - موارد)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» (١/ ٢٧٤/ ٣٦٩)، والديلمي (١/ ١/ ٩٢ و ٢/ ١٠٢/ ٢)، وابن عساكر في «التاريخ» (١٧/ ٣٦٧- ٣٦٨). وانظر: «السلسلة الصحيحة» (٣٣٥٠).







المبحث الأول

الَّذِي يَذْكُرُ وَلَا يَنْسَى

قَالَ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا رَبِّ أَيُّ عِبَادِكَ أَتْقَى؟ قَالَ: الَّذِي يَذْكُرُ وَلَا يَنْسَى

✍وهنا نطرح سؤالًا: ماالمقصود بقوله: الَّذِي يَذْكُرُ وَلَا يَنْسَى؟

والجواب: المقصود أن أتقى الناس من يذكر الله ولا ينساه، وهذا هو مقام المراقبة ومن هنا نقف مع مقام المراقبة.

المراقبة لغة: مصدر قولهم: راقب مراقبة وهو مأخوذ من مادّة رقب الّتي تدلّ على «انتصاب؛ لمراعاة شيء ومن ذلك: الرّقيب وهو الحافظ، يقال منه: رقبت أرقب رقبة ورقبانا، والمرقب: المكان العالي يقف عليه النّاظر ومن ذلك اشتقاق الرّقبة؛ لأنّها منتصبة، ولأنّ النّاظر لا بدّ ينتصب عند نظره، ويقال: أرقبت فلانا هذه الدّار، وذلك أن تعطيه إيّاها يسكنها، ثمّ يقول له: إن متّ قبلي رجعت إليّ، وإن متّ قبلك فهي لك، وهذا من المراقبة كأنّ كلّ واحد منهما يرقب موت صاحبه، والرّقوب: المرأة الّتي لا يعيش لها ولد كأنّها ترقبه لعلّه يبقى لها، وجاء في «الصّحاح»: والرّقيب: المنتظر، والرّقيب

الموكّل بالضّريب، والرّقيب: الثّالث من سهام الميسر، والتّرقّب: الانتظار، وكذلك: الارتقاب. قال تعالى: ﴿وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ﴾ [هود: ٩٣].

وقال ابن منظور: راقب الله تعالى في أمره، أي خافه، ورقبه يرقبه رقبة ورقبانًا، بالكسر فيهما، ورقوبًا، وترقّبه، وارتقبه: انتظره ورصده، وارتقب: أشرف وعلا، والمرقب والمرقبة: الموضع المشرف، يرتفع عليه الرّقيب.

ورقب الشّيء يرقبه: حرسه، وفي أسماء الله تعالى: الرّقيب: وهو الحافظ الّذي لا يغيب عنه شيء، فعيل بمعنى فاعل[١].

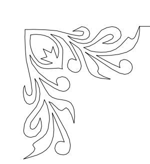
المراقبة اصطلاحًا: قال ابن القيّم: المراقبة دوام علم العبد وتيقّنه باطّلاع الحقّ سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه[٢].

وقال المحاسبيّ: المراقبة: دوام علم القلب بعلم الله عز وجل في السّكون والحركة علما لازما مقترنًا بصفاء اليقين.

أمّا أوّل المراقبة؛ فهو علم القلب بقرب الرّبّ عز وجل[٣].



(١) مقاييس اللغة (٢/ ٤٢٧)، ولسان العرب (١/ ٤٢٤/ ٤٢٦).
(٢) مدارج السالكين (٢/ ٦٨).
(٣) الوصايا للمحاسبى (٣١٣) بتصرف واختصار.



بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها

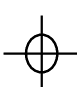
اعلم: أنّ حقيقة المراقبة هي ملاحظة الرّقيب وانصراف الهمم إليه، فمن احترز من أمر من الأمور بسبب غيره، يقال: إنّه يراقب فلانًا، ويراعي جانبه، ويعني بهذه المراقبة حالة للقلب يثمرها نوع من المعرفة، وتثمر تلك الحالة أعمالا في الجوارح وفي القلب.

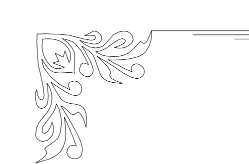
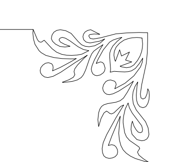
أمّا الحالة فهي مراعاة القلب للرّقيب واشتغاله به والتفاته إليه وملاحظته إيّاه وانصرافه إليه.

وأمّا المعرفة الّتي تثمر هذه الحالة، فهي العلم بأنّ الله مطّلع على الضّمائر، عالم بالسّرائر، رقيب على أعمال العباد، قائم على كلّ نفس بما كسبت، وأنّ سرّ القلب في حقّه مكشوف كما أنّ ظاهر البشرة للخلق مكشوف بل أشدّ من ذلك. فهذه المعرفة إذا صارت يقينًا - أعني أنّها خلت عن الشّكّ- ثمّ استولت بعد ذلك على القلب قهرته؛ فربّ علم لا شكّ فيه لا يغلب على القلب كالعلم بالموت، فإذا استولت على القلب استجرّت القلب إلى مراعاة جانب الرّقيب وصرفت همّه إليه؛ والموقنون بهذه المعرفة هم المقرّبون، وهم ينقسمون إلى الصّدّيقين وإلى أصحاب اليمين[١].

❊ ❊ ❊

(١) انظر: إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٣٩٨).



حديث القرآن عن المراقبة

قال تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

يقول السعدي معلقًا على هذه الآية: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ أي: فانووا الخير، ولا تنووا الشر؛ خوفًا من عقابه ورجاء لثوابه[١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

يقول ابن كثير معلقًا على هذه الآية: وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ أَيْ: هُوَ مُرَاقِبٌ لِجَمِيعِ أَعْمَالِكُمْ وَأَحْوَالِكُمْ، كَمَا قَالَ: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [الْبُرُوجِ: ٩].

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «**اعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**» وَهَذَا إِرْشَادٌ وَأَمْرٌ بِمُرَاقَبَةِ الرَّقِيبِ[٢].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧].

وقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾ [الأحزاب: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ١٤﴾ [العلق: ١٤].

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطور: ٤٨].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ١٠٥).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٠٦).

وقال تعالى: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩﴾ [غافر: ١٩].

يقول ابن كثير معلقًا على هذه الآية: وَقَوْلُهُ: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عِلْمِهِ التَّامِّ الْمُحِيطِ بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ، جَلِيلِهَا وَحَقِيرِهَا، صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا، دَقِيقِهَا وَلَطِيفِهَا؛ لِيَحْذَرَ النَّاسُ عِلْمَهُ فِيهِمْ، فَيَسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقّ الْحَيَاءِ، ويَتَّقُوهُ حَقَّ تَقْوَاهُ، وَيُرَاقِبُوهُ مُرَاقَبَةَ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَرَاهُ، فَإِنَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ الْعَيْنَ الْخَائِنَةَ وَإِنْ أَبْدَتْ أَمَانَةً، وَيَعْلَمُ مَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ خَبَايَا الصُّدُورِ مِنَ الضَّمَائِرِ وَالسَّرَائِرِ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩﴾: وَهُوَ الرَّجُلُ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِ الْبَيْتِ بَيْتَهُمْ، وَفِيهِمُ الْمَرْأَةُ الْحَسْنَاءُ، أَوْ تَمُرُّ بِهِ وَبِهِمُ الْمَرْأَةُ الْحَسْنَاءُ، فَإِذَا غَفَلُوا لَحَظَ إِلَيْهَا، فَإِذَا فَطِنُوا غَضّ، فَإِذَا غَفَلُوا لَحَظَ، فَإِذَا فَطِنُوا غَضَّ بَصَرَهُ عَنْهَا، وَقَدِ اطَّلَعَ اللَّهُ مِنْ قَلْبِهِ أَنَّهُ وَدّ أَنْ لَوِ اطَّلَعَ عَلَى فَرْجِهَا. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

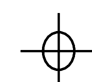
وَقَالَ الضَّحَّاكُ: ﴿خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾: هُوَ الْغَمْزُ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ: رَأَيْتُ، وَلَمْ يَرَ؛ أَوْ: لَمْ أَرَ، وَقَدْ رَأَى.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْلَمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْعَيْنِ فِي نَظَرِهَا، هَلْ تُرِيدُ الْخِيَانَةَ أَمْ لَا؟ وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ يَعْلَمُ إِذَا أَنْتَ قَدَرْتَ عَلَيْهَا هَلْ تَزْنِي بِهَا أَمْ لَا؟

وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ أي: من الوسوسة[١].

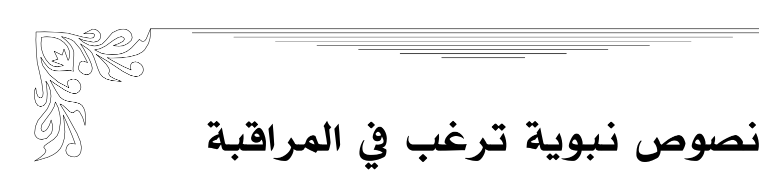
(١) تفسير ابن كثير (٧/ ١٣٧).

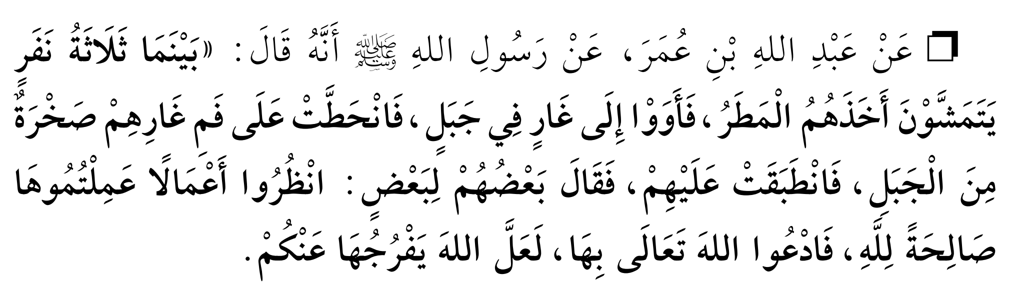


فهذه الآيات تبين أن الله مطلع على ما في النفوس، ويعلم ما في الصدور، فليحذر الإنسان وليراقب ربه في كل حركة وسكنة، فهو لا تخفى عليه خافية سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.









نصوص نبوية ترغب في المراقبة

❐ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «بَيْنَمَا ثَلَاثَةُ نَفَرٍ يَتَمَشَّوْنَ أَخَذَهُمُ الْمَطَرُ، فَأَوَوْا إِلَى غَارٍ فِي جَبَلٍ، فَانْحَطَّتْ عَلَى فَمِ غَارِهِمْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ، فَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: انْظُرُوا أَعْمَالًا عَمِلْتُمُوهَا صَالِحَةً لِلَّهِ، فَادْعُوا اللهَ تَعَالَى بِهَا، لَعَلَّ اللهَ يَفْرُجُهَا عَنْكُمْ.

فَقَالَ أَحَدُهُمْ: اللهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَامْرَأَتِي، وَلِي صِبْيَةٌ صِغَارٌ أَرْعَى عَلَيْهِمْ، فَإِذَا أَرَحْتُ عَلَيْهِمْ[١]، حَلَبْتُ، فَبَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ، فَسَقَيْتُهُمَا قَبْلَ بَنِيَّ، وَأَنَّهُ نَأَى بِي ذَاتَ يَوْمٍ الشَّجَرُ، فَلَمْ آتِ حَتَّى أَمْسَيْتُ، فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا، فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ، فَجِئْتُ بِالْحِلَابِ، فَقُمْتُ عِنْدَ رُؤُوسِهِمَا أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا، وَأَكْرَهُ أَنْ أَسْقِيَ الصِّبْيَةَ قَبْلَهُمَا، وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ[٢] عِنْدَ قَدَمَيَّ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبِي وَدَأْبَهُمْ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً، نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ، فَفَرَجَ اللهُ مِنْهَا فُرْجَةً، فَرَأَوْا مِنْهَا السَّمَاءَ.

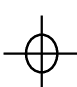
وَقَالَ الْآخَرُ: اللهُمَّ إِنَّهُ كَانَتْ لِيَ ابْنَةُ عَمٍّ أَحْبَبْتُهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ، وَطَلَبْتُ إِلَيْهَا نَفْسَهَا، فَأَبَتْ حَتَّى آتِيَهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ، فَتَعِبْتُ حَتَّى جَمَعْتُ مِائَةَ دِينَارٍ، فَجِئْتُهَا بِهَا، فَلَمَّا وَقَعْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا[٣]، قَالَتْ: يَا عَبْدَ اللهِ اتَّقِ اللهَ،

---

(١) فإذا أرحت عليهم: أي إذا رددت الماشية من المرعى إليهم.

(٢) يتضاغون: أي يصيحون ويستغيثون من الجوع.

(٣) فلما وقعت بين رجليها: أي جلست مجلس الرجل للوقاع.



وَلَا تَفْتَحِ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ[١]، فَقُمْتُ عَنْهَا، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً، فَفَرَجَ لَهُمْ.

وَقَالَ الْآخَرُ: اللهُمَّ إِنِّي كُنْتُ اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرَقِ أَرُزٍّ، فَلَمَّا قَضَى عَمَلَهُ قَالَ: أَعْطِنِي حَقِّي، فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ فَرَقَهُ فَرَغِبَ عَنْهُ، فَلَمْ أَزَلْ أَزْرَعُهُ حَتَّى جَمَعْتُ مِنْهُ بَقَرًا وَرِعَاءَهَا، فَجَاءَنِي فَقَالَ: اتَّقِ اللهَ وَلَا تَظْلِمْنِي حَقِّي، قُلْتُ: اذْهَبْ إِلَى تِلْكَ الْبَقَرِ وَرِعَائِهَا، فَخُذْهَا، فَقَالَ: اتَّقِ اللهَ وَلَا تَسْتَهْزِئْ بِي فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ، خُذْ ذَلِكَ الْبَقَرَ وَرِعَاءَهَا، فَأَخَذَهُ فَذَهَبَ بِهِ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لَنَا مَا بَقِيَ، فَفَرَجَ اللهُ مَا بَقِيَ»[٢].

❐ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ بِعِبَادَةِ اللهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ يَمِينُهُ مَا تُنْفِقُ شِمَالُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»[٣].

❐ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَالَ اللهُ ﷻ: إِذَا تَحَدَّثَ عَبْدِي بِأَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً، فَأَنَا أَكْتُبُهَا لَهُ حَسَنَةً مَا لَمْ يَعْمَلْ، فَإِذَا عَمِلَهَا، فَأَنَا أَكْتُبُهَا بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَإِذَا تَحَدَّثَ بِأَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً، فَأَنَا أَغْفِرُهَا لَهُ مَا لَمْ يَعْمَلْهَا، فَإِذَا عَمِلَهَا، فَأَنَا أَكْتُبُهَا لَهُ بِمِثْلِهَا»، وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: رَبِّ، ذَاكَ عَبْدُكَ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً، وَهُوَ أَبْصَرُ بِهِ، فَقَالَ: ارْقُبُوهُ فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِمِثْلِهَا، وَإِنْ

(١) لا تفتح الخاتم إلا بحقه: الخاتم كناية عن بكارتها. وقوله بحقه: أي: بنكاح لا بزنى.

(٢) البخاري – الفتح ١٠ (٥٩٧٤)، ومسلم (٢٧٤٣) واللفظ له.

(٣) البخاري– الفتح ٣ (١٤٢٣)، ومسلم (١٠٣١) واللفظ له.

تَرَكَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّايَ»[(١)]، وَقَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلَامَهُ، فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ، وَكُلُّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ بِمِثْلِهَا حَتَّى يَلْقَى اللهَ**»[(٢)].

❑ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ بَارِزًا يَوْمًا لِلنَّاسِ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: مَا الإِيمَانُ؟ قَالَ: «**الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَبِلِقَائِهِ، وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ**». قَالَ: مَا الإِسْلَامُ؟ قَالَ: «**الإِسْلَامُ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ، وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ المَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ** ». قَالَ: مَا الإِحْسَانُ؟ قَالَ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»، قَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «**مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا: إِذَا وَلَدَتِ الأَمَةُ رَبَّهَا، وَإِذَا تَطَاوَلَ رُعَاةُ الإِبِلِ البُهْمُ فِي البُنْيَانِ، فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ**»، ثُمَّ تَلَا النَّبِيُّ ﷺ: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ**﴾ [لقمان: ٣٤] الآيَةَ، ثُمَّ أَدْبَرَ فَقَالَ: «**رُدُّوهُ**» فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا، فَقَالَ: «**هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهُمْ**»[(٣)].

❑ عن مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْصِنِي. قَالَ: «**اعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، وَاعْدُدْ نَفْسَكَ فِي الْمَوْتَى، وَإِنْ شِئْتَ أَنْبَأْتُكَ بِمَا هُوَ أَمْلَكُ بِكَ مِنْ هَذَا كُلِّهِ**» قَالَ: «**هَذَا**» وَأَتَى بِيَدِهِ إِلَى لِسَانِهِ[(٤)].

❊ ❊ ❊

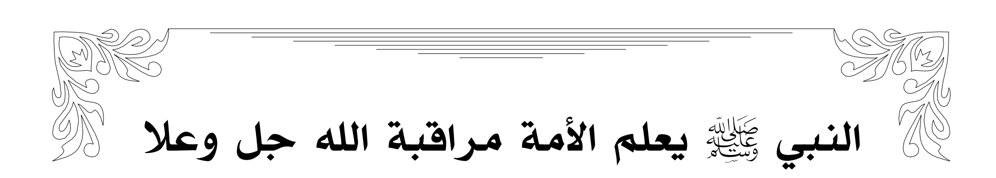
---

(١) من جراي: من أجلي.

(٢) البخاري- الفتح ١٣ (٧٥٠١)، ومسلم (١٢٩) واللفظ له.

(٣) البخاري- الفتح ١ (٥٠) واللفظ له، ومسلم (٩٠).

(٤) قال المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٥٣٢): رواه ابن أبي الدنيا بإسناد جيد.



النبي ﷺ يعلم الأمة مراقبة الله جل وعلا

❐ عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اتَّقِ اللهِ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**»(١).

فالنبي ﷺ يعلمنا هنا أن العبد لابد أن يراقب الله ﷻ في كل سكناته وحركاته وكلماته وأفعاله، بل في كل زمان ومكان «**اتَّقِ اللهِ حَيْثُمَا كُنْتَ...**».

ومن المعلوم أن العبد قد يخطئ ويقع في المعصية؛ ولذا عقَّب بعدها النبي ﷺ بقوله: «**وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا**» وهذا فيما يتعلق بحق الله جل وعلا أما فيما يتعلق بحق العباد، فلقد قال النبي ﷺ: «**وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**» فجمع في تلك الكلمات اليسيرة بين حق الله وحق العباد.

❐ وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ: «**يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ؛ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ؛ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ**»(٢).

❐ وعَنْ أُسَامَةَ بْنِ شَرِيكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَا كَرِهَ اللَّهُ مِنْكَ**

(١) سنن الترمذي: (١٩٨٧). وانظر: صحيح الجامع: (٩٧).

(٢) سنن الترمذي: (٢٥١٦). وانظر: صحيح الجامع: (٧٩٥٧).

شَيْئًا، فَلَا تَفْعَلْهُ إِذَا خَلَوْتَ»[١].

❐ وعَنْ قَيْسٍ، قَالَ: قَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ: **«مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ لَهُ خَبْءٌ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ فَلْيَفْعَلْ»**[٢].

❐ وهكذا تكون المراقبة لله ﷻ بأن ينشغل الإنسان المؤمن بعين الله ومراقبته ولا ينشغل بعين الناس؛ طلبًا للحمد والثناء، فقد قال الرسول ﷺ: **«مَنِ التَمَسَ رِضَاءَ اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنِ التَمَسَ رِضَاءَ النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ»**[٣].



---

(١) صحيح ابن حبان: (٤٠٣). وانظر: الصحيحة: (١٠٥٥).
(٢) مصنف ابن أبي شيبة: (٣٤٦٢٥). وانظرصحيح الجامع: (٦٠١٨).
(٣) سنن الترمذي: (٢٤١٤). وانظر: صحيح الجامع: (٦٠٩٧).



من الآثار وأقوال العلماء الواردة في المراقبة

❏ قال عبد الله بن دينار: خرجت مع عمر بن الخطّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى مكّة فعرّسنا في بعض الطّريق فانحدر عليه راعٍ من الجبل، فقال له: يا راعي، بعني شاة من هذه الغنم؟ فقال: إنّي مملوكٌ، فقال: قل لسيّدك: أكلها الذّئب؟ قال: فأين الله؟ قال: فبكى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثمّ غدا إلى المملوك، فاشتراه من مولاه، وأعتقه وقال: أعتقتك في الدّنيا هذه الكلمة وأرجو أن تعتقك في الآخرة(١).

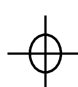
❏ قال ابن المبارك لرجل: راقب الله تعالى، فسأله عن تفسيرها فقال: كن أبدًا كأنّك ترى الله عَزَّ وَجَلَّ(٢).

❏ قال سفيان الثّوريّ: عليك بالمراقبة ممّن لا تخفى عليه خافية، وعليك بالرّجاء ممّن يملك الوفاء(٣).

❏ قال أبو عثمان: قال لي أبو حفص: إذا جلست للنّاس، فكن واعظًا لنفسك وقلبك، ولا يغرّنّك اجتماعهم عليك، فإنّهم يراقبون ظاهرك والله رقيب على باطنك(٤).

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٣٩٦).
(٢) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٢٩٧).
(٣) المرجع السابق (٤/ ٣٩٧).
(٤) المرجع السابق نفسه، والصفحة نفسها.



❏ قال الجريريّ: أمرنا هذا مبنيّ على أصلين: أن تلزم نفسك المراقبة لله ﷻ ويكون العلم على ظاهرك قائما[١].

❏ قال أبو عثمان المغربيّ: أفضل ما يلزم الإنسان نفسه في هذه الطّريقة المحاسبة والمراقبة وسياسة عمله بالعلم[٢].

❏ قال رجل للجنيد: بم أستعين على غضّ البصر؟ فقال: بعلمك أنّ نظر النّاظر إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليه[٣].

❏ قال حميد الطّويل لسليمان بن عليّ: عظني، فقال: لئن كنت إذا عصيت خاليًا ظننت أنّه يراك لقد اجترأت على أمر عظيم، ولئن كنت تظنّ أنّه لا يراك فلقد كفرت[٤].

❏ سئل ذو النّون: بم ينال العبد الجنّة؟ فقال: بخمس: استقامة ليس فيها روغان، واجتهاد ليس معه سهو، ومراقبة الله تعالى في السّرّ والعلانية، وانتظار الموت بالتّأهّب له، ومحاسبة نفسك قبل أن تحاسب[٥].

❏ قال ابن الجوزيّ رحمه الله: الحقّ ﷻ أقرب إلى عبده من حبل الوريد. لكنّه عامل العبد معاملة الغائب عنه البعيد منه، فأمر بقصد نيّته، ورفع اليدين إليه، والسّؤال له. فقلوب الجهّال تستشعر البعد؛ ولذلك تقع منهم المعاصي؛ إذ لو تحقّقت مراقبتهم للحاضر النّاظر لكفّوا الأكفّ عن الخطايا. والمتيقّظون

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٢٩٧).
(٢) المرجع السابق نفسه، والصفحة نفسها.
(٣) المرجع السابق نفسه، والصفحة نفسها.
(٤) المرجع السابق (٤/ ٣٩٥).
(٥) المرجع السابق (٤/ ٣٩٨).

علموا قربه فحضرتهم المراقبة، وكفتهم عن الانبساط[١].

❏ قال ابن منظور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فسّر النّبيّ ﷺ الإحسان حين سأله جبريل، صلوات الله عليهما وسلامه، فقال: «**هو أن تعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه؛ فإنّه يراك**». أراد بالإحسان الإشارة إلى المراقبة وحسن الطّاعة، فإنّ من راقب الله أحسن عمله[٢].

❏ ينبغي أن يراقب الإنسان نفسه قبل العمل وفي العمل، هل يحرّكه عليه هوى النّفس أو المحرّك له هو الله تعالى خاصّة؟ فإن كان الله تعالى، أمضاه، وإلّا تركه، وهذا هو الإخلاص.

قال الحسن: رحم الله عبدًا وقف عند همّه، فإن كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخّر.

فهذه مراقبة العبد في الطّاعة، وهو أن يكون مخلصا فيها، ومراقبته في المعصية تكون بالتّوبة والنّدم والإقلاع، ومراقبته في المباح تكون بمراعاة الأدب، والشّكر على النّعم، فإنّه لا يخلو من نعمة لا بدّ له من الشّكر عليها، ولا يخلو من بليّة لا بدّ من الصّبر عليها، وكلّ ذلك من المراقبة[٣].

❏ سئل بعضهم عن قوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨] فقال: معناه: ذلك لمن راقب ربّه عَزَّ وَجَلَّ وحاسب نفسه وتزوّد لمعاده[٤].

---

(١) صيد الخاطر (٢٣٦).

(٢) لسان العرب (١٣/ ١١٥- ١١٧).

(٣) إغاثة اللهفان لابن القيم (٣٩٢).

(٤) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٣٩٧).



ثمـــار المـراقبة

١ - الورع:

كانت فاطمة بنت عبد الملك بنت خليفة، وزوجة خليفة، وأخت أربعة من الخلفاء، خرجت من بيت أبيها إلى بيت زوجها يوم زفت إليه وهي مثقلة بأثمن ما تملكه امرأة على وجه الأرض من الحلي والمجوهرات، ومن فضول القول أن أشير إلى أن عروس عمر بن عبد العزيز كانت في بيت أبيها تعيش في نعمة لا تعلو عليها عيشة امرأة أخرى في الدنيا في ذلك العهد، ولو أنها استمرت في بيت زوجها تعيش كما كانت تعيش قبل ذلك لتملأ بطنها كل يوم، وفي كل ساعة بأدسم المأكولات وأندرها وأغلاها، وتنعم نفسها بكل أنواع النعيم الذي عرفه البشر، لاستطاعت ذلك..

إلا أن الخليفة الأعظم عمر بن عبد العزيز اختار - في الوقت الذي كان فيه أعظم ملوك الأرض- أن تكون نفقة بيته بضعة دراهم في اليوم، ورضيت بذلك زوجة الخليفة التي كانت بنت خليفة وأخت أربعة من الخلفاء، فكانت مغتبطة بذلك؛ لأنها تذوقت لذة القناعة، وتمتعت بحلاوة الاعتدال، فصارت هذه اللذة وهذه الحلاوة أطيب لها وأرضى لنفسها من كل ما كانت تعرفه قبل ذلك من صنوف البذخ وألوان الترف، بل اقترح عليها زوجها أن تترفع عن عقلية الطفولة، فتخرج عن هذه الألاعيب والسفاسف التي كانت تبهرج بها أذنيها وعنقها وشعرها ومعصميها، مما لا يسمن ولا يغني من جوع، ولو بيع لأشبع بثمنه بطون شعب برجاله ونسائه وأطفاله، فاستجابت له،

واستراحت من أثقال الحلي والمجوهرات واللآلئ والدرر التي حملتها معها من بيت أبيها، فبعثت بذلك كله إلى بيت مال المسلمين.

وتوفي أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ولم يخلف لزوجته وأولاده شيئًا، فجاءها أمين بيت المال، وقال لها: إن مجوهراتك يا سيدتي لا تزال كما هي، واعتبرتها أمانة لك، وحفظتها لذلك اليوم، وقد جئت أستأذنك في إحضارها.

فأجابته بأنها وهبتها لبيت مال المسلمين طاعة لأمير المؤمنين، ثم قالت: وما كنت لأطيعه حيًّا، وأعصيه ميتًا[1].

٢ - السماحة:

جاء أحد جلساء أبي حنيفة إليه، وقال: إني بحاجة إلى ثوب خز يا أبا حنيفة.

فقال له: ما لونه؟ فقال: كذا وكذا.

فقال: اصبر حتى يقع لي فآخذه لك، فما إن دارت الجمعة حتى وقع له الثوب المطلوب، فمر به صاحبه، فقال له أبو حنيفة: قد وقعت لي حاجتك.. وأخرج إليه الثوب فأعجبه وقال: كم أدفع لغلامك ثمنه؟ فقال: درهمًا، فقال الرجل في استغراب: درهمًا واحدًا؟ فقال أبو حنيفة: نعم، فقال له الرجل: ما كنت أظنك تهزأ بي يا أبا حنيفة، فقال أبو حنيفة: ما هزئت بك، وإنما اشتريت هذا الثوب وآخر معه بعشرين دينارًا ذهبًا، ودرهم من الفضة، وقد بعت أحد الثوبين بعشرين دينارًا ذهبًا، وبقي عليَّ هذا بدرهم واحد، وما

(١) مواقف من حياة الأنبياء والصحابة والتابعين (٦٨١ - ٦٨٢).

كنت أربح على جليسي[١].

٣ - تذكر الموت:

لقي الفضيل بن عياض رجلًا، فقال له الفضيل: أيها الرجل كم عمرك؟

قال الرجل: ستون سنة.

قال الفضيل: فأنت منذ ستين سنة تسير إلى الله يوشك أن تلقاه.

قال الرجل: إنا لله وإنا إليه راجعون.

قال الفضيل: هل تعلم معنى تلك الكلمة.

قال الرجل: نعم أعلم أني لله عبد وأني إليه راجع.

قال الفضيل: يا هذا من علم أنه لله عبد، وأنه إليه راجع، فليعلم أنه بين يديه موقوف، ومن علم أنه بين يديه موقوف فليعلم أنه بين يديه مسؤول، ومن علم أنه بين يديه مسؤول، فليعد للسؤال جوابًا.

قال الرجل: فما الحيلة يرحمك الله؟

قال الفضيل: أن تتقي الله فيما بقي يغفر الله لك ما قد مضى وما قد بقي[٢].

٤ - الأمانة:

عن أسلم مولى عمر رضي الله عنهما قال: بينما أنا مع عمر بن الخطاب، وهو يعس بالمدينة إذ عيي، فاتكأ على جاذب جدار في جوف الليل، وإذا امرأة تقول لابنتها: يا بنتاه قومي إلى ذلك اللبن فامذقيه بالماء.

---

(١) صور من حياة التابعين (٤٨٧ – ٤٨٨).

(٢) مواقف من حياة الأنبياء والصحابة والتابعين (٧٢٠).

قالت: يا أماه أو ما علمت بما كان من عزمة أمير المؤمنين؟

قالت: وما كان عزمته؟

قالت: إنه أمر مناديه فنادى: لا يشاب اللبن بالماء.

فقالت لها: يا بنية قومي إلى اللبن فامذقيه بالماء، فإنا بموضع لا يراك عمر ولا منادي عمر.

فقالت الصبية: والله ما كنت لأطيعه في الملأ، وأعصيه في الخلاء، وعمر يسمع كل ذلك.

فقال: يا أسلم علِّم الباب واعرف الموضع، ثم مضى في عسسه فلما أصبح: قال: يا أسلم امض في الموضع فانظر من القائلة ومن المقول لها، وهل لهم من بعل؟ فأتيت الموضع فنظرت فإذا الجارية أيم لا بعل لها، فأتيت عمر فأخبرته، فدعا ولده فجمعهم فقال: هل فيكم من يحتاج إلى امرأة فأزوجه؟ ولو كان بأبيكم حركة إلى النساء ما سبقه منكم أحد إلى هذه الجارية، فقال عبد الله: لي زوجة، وقال عبد الرحمن: لي زوجة، وقال عاصم: يا أبتاه لا زوجة لي فزوجني، فبعث إلى الجارية فزوجها من عاصم فولدت له بنتًا، وولدت البنت عمر بن عبد العزيز[1].

إذا ما خلوت بريبة في ظلمة والنفس داعية إلى الطغيان
فاستحي من نظر الإله وقل لها إن الذي خلق الظلام يراني

وهكذا كان عمر يتفقد الرعية بنفسه، ويعس في الليل ويقوم بواجبه نحو رعيته محتسبًا عند الله تعالى أجره، كما كان لمراقبة تلك الفتاة لربها وأمانتها الأثر الجميل والخير العميم في حياتها وفي آخرتها إن شاء الله.

(١) الدولة الأموية عوامل الازدهاروتداعيات الانهيار (٢/ ١٠٠).

أمانة في البيع والشراء:

حُكي عن محمد بن المنكدر رَحِمَهُ اللَّهُ أنه كان له شقاق[١] بعضها بخمسة، وبعضها بعشرة.

فباع غلامه في غيبته شقة من الخمسيات بعشرة.

فلما حضر ابن المنكدر، وعلم بذلك، صار يطلب المشتري طول النهار حتى وجده، وقال له: إن الغلام غلط، فباعك خمسة بعشرة.

فقال المشتري: يا هذا، قد رضيت.

فقال ابن المنكدر: إن رضيت أنت؛ فأنا لا أرضى لك إلا ما نرضاه لأنفسنا، فاختر إحدى ثلاث خصال: إما أن تأخذ شقة من العشريات، وإما أن نرد عليك خمسة، وإما أن ترد علينا شُقتنا وتأخذ دراهمك.

فقال: أعطني خمسة، فدفعها إليه، فانصرف الأعرابي وهو يسأل، ويقول: من هذا الشيخ؟

فقيل له: هذا محمد بن المنكدر. فقال الأعرابي: لا إله إلا الله، هذا الذي نستقي به في البوادي إذا قُحطنا[٢].

يقول محمد بن عدي الترمذي: اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره إليك، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك، واجعل طاعتك لمن لا تستغني عنه، وأجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه[٣].

---

(١) جنس من الثياب.

(٢) موسوعة الأخلاق والزهد والرقائق (١/ ٥٣). والمقصود السقيا بدعائه لله بإنزال المطر؛ لأن التوسل بالأشخاص لايجوز كما بينا من قبل.

(٣) إحياء علوم الدين (٤/ ٣٩٧).



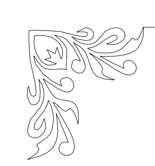
درس في المراقبة

يقول الإمام الغزالي: حُكي أنه كان لبعض المشايخ من هذه الطائفة تلميذ شاب، وكان يكرمه ويقدمه فقال له بعض أصحابه: كيف تكرم هذا وهو شاب ونحن شيوخ؟ فدعا بعدة طيور وناول كل واحد منهم طائرًا وسكينًا وقال: ليذبح كل واحد منكم طائره في موضع لا يراه أحد ودفع إلى الشاب مثل ذلك وقال له كما قال لهم، فرجع كل واحد بطائره مذبوحًا ورجع الشاب والطائر حي في يده فقال: ما لك لم تذبح كما ذبح أصحابك؟ فقال: لم أجد موضعا لا يراني فيه أحد؛ إذ الله مطلع علي في كل مكان، فاستحسنوا منه هذه المراقبة وقالوا: حق لك أن تكرم[1].

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل   خلوت ولكن قل علي رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة   ولا أن ما تخفيه عنه يغيب

❊ ❊ ❊

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٣٩٧).



صور من المراقبة

رجل اسمه نوح ابن مريم كان ذا نعمة ومال وثراء وجاه، وفوق ذلك صاحب دين وخلق، وكان له ابنة ذات منصب وجمال، وفوق ذلك صاحبة دين وخلق، وكان معه عبد اسمه مبارك لا يملك من الدنيا قليلًا ولا كثيرًا، ولكنه يملك الدين والخلق - ومن ملكهما فقد ملك كل شيء- أرسله سيده إلى بساتين له، وقال له: اذهب إلى تلك البساتين، واحفظ ثمرها، وقم على خدمتها إلى أن آتيك، فمضى الرجل، وبقي في البساتين لمدة شهرين، وجاءه سيده، ليستريح في بساتينه.

جلس تحت شجرة وقال: يا مبارك! ائتني بقطف من عنب، فجاءه بقطف، فإذا هو حامض، فقال: ائتني بقطف آخر إن هذا حامض، فأتاه بآخر فإذا هو حامض، فقال: ائتني بآخر إن هذا حامض، فجاءه بالثالث فإذا هو حامض، وكاد أن يستولي عليه الغضب، وقال: يا مبارك! أطلب منك قطف عنب قد نضج، وتأتيني بقطف لم ينضج، ألا تعرف حلوه من حامضه؟ قال: والله! ما أرسلتني لآكله، وإنما أرسلتني لأحفظه، وأقوم على خدمته، والذي لا إله إلا هو! ما ذقت منه عنبة واحدة، والذي لا إله إلا هو! ما راقبتك ولا راقبت أحدًا من الكائنات، ولكني راقبت الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السَّماء.

فأعجب به، وأُعْجِب بورعه، وقال: الآن أسْتَشِيرُكَ - والمؤمنون نصحة، والمنافقون غششة، والمستشار مؤتمن- تقدم لابنتي فلان وفلان من أصحاب

الثراء والمال والجاه، فمن ترى أن أزوج هذه البنت؟

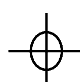
فقال مبارك: لقد كان أهل الجاهلية يزوجون للأصل والحسب والنسب، واليهود يزوجون للمال، والنصارى للجمال، وعلى عهد رسول الله ﷺ يزوجون للدين والخلق، وعلى عهدنا هذا للمال والجاه، والمرء مع من أحب، ومن تشبَّه بقوم فهو منهم.

أي نصيحة وأي مشورة! نظر وقدَّر وفكَّر، وتملى ونظر فما وجد خيرًا من مبارك، قال: أنت حرٌّ لوجه الله، فأعتقه أولًا، ثم قال: لقد قلبت النظر، ورأيت أنك خير من يتزوج بهذه البنت، قال: اعرض عليها، فذهب فعرض على البنت، وقال لها: إني قلبت ونظرت وحصل كذا وكذا، ورأيت أن تتزوجي بمبارك، قالت: أترضاه لي؟ قال: نعم. قالت: فإني أرضاه مراقبة للذي لا يخفي عليه شيء في الأرض ولا في السماء. فكان الزواج المبارك من مبارك، فما الثمرة وما النتيجة؟ حملت هذه المرأة وولدت طفلًا أسمياه عبد الله، لعل الكل يعرف هذا الرجل، إنه عبد الله بن المبارك المحدث الزاهد العابد الذي ما من إنسان قلَّب صفحة من كتب التاريخ إلا ووجده حيًّا بسيرته وذِكْره الطيب، إن ذلك ثمرة مراقبة الله ﷻ في كل شيء(١).

عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حُذَافَةَ السَّهْمِيُّ:

قَالَ أَبُو الْعَرَبِ: حَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ، عَنْ بَقِيِّ بْنِ مَخْلَدٍ، عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَائِشَةَ قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مُسْلِمٍ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مُحَمَّدٍ مِنْ وَلَدِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُذَافَةَ أَخْبَرَهُ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ حُذَافَةَ كَانَ بِالشَّامِ، فَكَتَبَ عُمَرُ ابْنُ الْخطاب إِلَى مُعَاوِيَة بن أبي سُفْيَان اغْزُ الرّوم وَولى عَلَيْهِمْ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ

(١) فصل الخطاب في الزهد والرقائق والآداب (١/ ٩٠٢).



حُذَافَةَ السَّهْمِيَّ قَالَ: فَخَرَجَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حُذَافَةَ عَلَى النَّاسِ قَالَ فَقِيلَ لَهُ فِي طَرِيقِ الرُّوم: إِنَّ فِي نَاحِيَةِ كَذَا وَكَذَا رَجُلا مِنْ أَصْحَابِ هَذَا الرَّجُلِ فِيهِمْ قَالَ: فَحَمَلَتِ الرُّومُ عَلَى طَائِفَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَاقْتَطَعُوهُمْ وَمِنْهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حُذَافَةَ السَّهْمِيُّ قَالَ فَلَمَّا دَخَلَ الرُّومُ عَلَى هِرَقْلَ قَالُوا لَهُ: إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ مِنْ قُرَيْشٍ – يَعْنُونَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ حُذَافَةَ وَهُوَ ابْنُ عَمِّ مُحَمَّدٍ – قَالَ: فَدَفَعَهُ إِلَى رَجُلٍ فَقَالَ: أَجِعْهُ قَالَ فَأَجَاعَهُ الرَّجُلُ فَكَانَ يَأْتِيهِ فِي كُلِّ يَوْم بِلَحْمِ خِنْزِيرٍ فَيَضَعُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَيَعْرِضُ عَنْهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حُذَافَةَ وَقَالَ: هَذَا طَعَامٌ لا يَحِلُّ لَنَا أَكْلُهُ قَالَ: فَدَخَلَ الرَّجُلُ عَلَى هِرَقْلَ فَقَالَ لَهُ: أَتَيْتُهُ بِلَحْمِ خِنْزِيرٍ وَخَمْرٍ فَأَعْرَضَ عَنْهُ وَقَالَ: هَذَا طَعَامٌ لَا يَحِلُّ لَنَا أَكْلُهُ؛ فَإِنْ كَانَ لَكَ فِي الرَّجُلِ حَاجَةٌ فَأَطْعِمْهُ قَالَ: فَاذْهَبْ فأطعمه شَيْئا قَالَ: فَذهب فَأَتَاهُ بِطعَام فَأَكَلَهُ قَالَ: فَلَمَّا أُخْبِرَ هِرَقْلُ بِذَلِك قَالَ: قد بلوته بالضراء، فابتليه بالسراء فَأَتَاهُ بالجواري وبألطاف وملاءٍ قَالَ: فَلَمْ يَلْتَفِتْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حُذَافَةَ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِك قَالَ: فَأَتَاهُ الرَّجُلُ فَأَخْبَرَهُ بِذَلِك فَقَالَ لِلْجَوَارِي: مَا كَانَ مِنْهُ إِلَيْكُنَّ حَرَكَةٌ؟ فَقُلْنَ: لَا وَاللَّهِ مَا الْتَفَتَ إِلَيْنَا فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ هِرَقْلُ فَأَتَاهُ فَقَالَ لَهُ هِرَقْلُ. قَدْ بَلَوْتُك بِالسَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، فَصَبَرْتَ، فَهَلْ لَك أَنْ تُقَبِّلَ رَأْسِي وَتَنْجُوَ بِنَفْسِك قَالَ: لَا قَالَ: فَهَلْ لَك أَنْ تُقَبِّلَ رَأْسِي وَأَدْفَعَ لَك كُلَّ أَسِيرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عِنْدِي قَالَ: نَعَمْ فَقَبَّلَ رَأْسَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حُذَافَةَ فَدَفَعَ إِلَيْهِ كُلَّ أَسِيرٍ عِنْدَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. قَالَ: فَقَدِمَ عَلَى عُمَرَ فَسَعَى بِهِ سَاعٍ إِلَى عُمَرَ وَقَالَ: إِنَّ هِرَقْلَ قَدْ بَعَثَ إِلَيْك مَعَهُ مَالا فَخزنَهُ عَنْك فَدَعَاهُ عُمَرُ فَقَالَ: أَيْنَ الْمَالُ الَّذِي بُعِثَ مَعَكَ إِلَيْنَا؟ قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا بَعَثَ إِلَيْك هِرَقْلُ شَيْئًا قَالَ: فَكَتَبَ عُمَرُ إِلَى مُعَاوِيَةَ أَنِ اسْتَخْرِجْ لِي خَبَرَهُ وَافْحَصْ عَنْ أَمْرِهِ قَالَ فَاسْتَخْرَجَ مُعَاوِيَةُ خَبَرَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُذَافَةَ قَالَ: فَكَتَبَ بِهِ إِلَى عُمَرَ قَالَ: فَلَمَّا قَرَأَ عمر كتاب مُعَاوِيَة قَامَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُذَافَةَ فَقَبَّلَ رَأْسَهُ، ثُم قَالَ لَهُ عُمَرُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ مَا مَنَعَك إِذْ بَلَغَ بِك الْجَهْدُ مَا بَلَغَ أَنْ تَأْكُلَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حُذَافَةَ: وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَقَدْ علمت أَن ذَلِك موسعًا لي

وَلَكِنِّي كرهت أَن يُشْمَتَ بِالإِسْلامِ وَأَهْلِهِ(١).

وأورد الذهبى خبره في السير:

يقول الذهبى: وَجَّهَ عُمَرُ جَيْشًا إِلَى الرُّومِ فَأَسَرُوا عَبْدَ اللهِ بنَ حُذَافَةَ فَذَهَبُوا بِهِ إِلَى مَلِكِهِم فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ فَقَالَ: هَلْ لَكَ أَنْ تَتَنَصَّرَ وَأُعْطِيَكَ نِصْفَ مُلْكِي؟ قَالَ: لَوْ أَعْطَيْتَنِي جَمِيْعَ ما تملك وجميع مَا تَمْلِكُ وَجَمِيعَ مُلْكِ العَرَبِ مَا رَجَعْتُ عَنْ دِينِ مُحَمَّدٍ طَرْفَةَ عَيْنٍ. قَالَ: إِذًا أَقْتُلُكَ قَالَ: أَنْتَ وَذَاكَ. فَأَمَرَ بِهِ فَصُلِبَ وَقَالَ لِلرُّمَاةِ: ارْمُوْهُ قَرِيبًا مِنْ بَدَنِهِ وَهُوَ يَعْرِضُ عَلَيْهِ وَيَأْبَى فَأَنْزَلَهُ وَدَعَا بِقِدْرٍ فَصَبَّ فِيْهَا مَاءً حَتَّى احْتَرَقَتْ وَدَعَا بِأَسِيْرَيْنِ مِنَ المُسْلِمِيْنَ فَأَمَرَ بِأَحَدِهِمَا فَأُلْقِيَ فِيهَا وَهُوَ يَعْرِضُ عَلَيْهِ النَّصْرَانِيَّةَ وَهُوَ يَأْبَى. ثُمَّ بَكَى. فَقِيْلَ لِلْمَلِكِ: إِنَّهُ بَكَى. فَظَنَّ أَنَّه قَدْ جَزِعَ فَقَالَ: رُدُّوهُ. مَا أَبْكَاكَ؟ قَالَ: قُلْتُ: هِيَ نَفْسٌ وَاحِدَةٌ تُلْقَى السَّاعَةَ فَتَذْهَبُ فَكُنْتُ أَشْتَهِي أَنْ يَكُونَ بِعَدَدِ شَعْرِي أَنْفُسٌ تُلْقَى فِي النَّارِ فِي اللهِ.

فَقَالَ لَهُ الطَّاغِيَةُ: هَلْ لَكَ أَنْ تُقَبِّلَ رَأْسِي وَأُخَلِّيَ عَنْكَ؟

فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللهِ: وَعَنْ جَمِيعِ الأُسَارَى؟ قَالَ: نَعَمْ فَقَبَّلَ رَأْسَهُ.

وَقَدِمَ بِالأُسَارَى عَلَى عُمَرَ، فَأَخْبَرَهُ خَبَرَهُ. فَقَالَ عُمَرُ: حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يُقَبِّلَ رَأْسَ ابْنِ حُذَافَةَ وَأَنَا أبدأ. فقبل رأسه(٢).

خاف أن يكون فتنة:

وَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْوَلِيدِ قَالَ: حدثني ابن رزين، عَنْ نُعَيْمِ بْنِ حَمَّادٍ، عَنِ

(١) المحن (ص: ٣٩٤-٣٩٥).

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٤٧).

ابْنِ الْمُبَارَكِ، عَنْ بَكَّارِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ سَمِعَ وَهْبَ بْنِ مُنَبِّهٍ يَقُولُ: أُتِيَ بِرَجُلٍ مِنْ أَفْضَلِ أَهْلِ زَمَانِهِ إِلَى مَلِكٍ مِنَ الْمُلُوكِ، كَانَ يَفْتِنُ النَّاسَ عَلَى أَكْلِ لُحُومِ الْخَنَازِيرِ فَلَمَّا أُتِيَ بِهِ أَعْظَمَ النَّاسُ مَكَانَهُ وَهَالَهُمْ أمره فَقَالَ لَهُ صَاحب شُرَطه: ائتني بِجَدْيٍ مِمَّا يَحِلُّ لَكَ أَكْلُهُ فَأُخْفِيهِ؛ فَإِنَّ الْمَلِكَ إِذَا دَعَا بِلَحْمِ الْخِنْزِيرِ أُتِيتَ بِهِ فَكُلْهُ فَذَبَحَ جَدْيًا فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ فَأَمَرَهُ أَنْ يَطْعَمَهُ فَأَبَى أَنْ يَأْكُلَهُ فَجَعَلَ صَاحِبُ الشُّرَطَةِ يَغْمِزُ إِلَيْهِ يُرِيدُ أَنَّهُ اللَّحْمَ الَّذِي دَفَعَ إِلَيْهِ فَأَبَى أَنْ يَأْكُلَهُ، فَأَمَرَ الْمَلِكُ صَاحِبَ شُرَطِهِ أَنْ يَقْتُلَهُ فَلَمَّا ذَهَبَ بِهِ قَالَ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْكُلَهُ وَهُوَ اللَّحْمُ الَّذِي دَفَعْتَ إِلَيَّ أَفَظَنَنْتَ أَنِّي أَتَيْتُكَ بِغَيْرِهِ قَالَ: قَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ هُوَ وَلَكِنِّي خِفْتُ أَنْ يُفْتَنَ النَّاسُ بِي، فَإِذَا أُرِيدَ أَحَدٌ عَلَى أَكْلِ لَحْمِ الْخِنْزِيرِ قَالَ: أَكَلَهُ فُلانٌ فَيَتَأَسَّى بِي فَأَكُونُ فِتْنَةً لَهُمْ، فَقُتِلَ[1].

عمر يختبر الراعي:

قال عبد الله بن دينار: خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى مكة فانحدر بنا راعٍ من الجبل، فقال له عمر ممتحنًا له: يا راعي بعني شاة من هذه الغنم. فقال لعمر: إنني مملوك. فقال عمر: قل لسيدك: أكلها الذئب[2]. فقال الراعي: فأين الله؟ فبكى عمر ثم غدا مع المملوك، فاشتراه من مولاه وأعتقه، وقال له: أعتقتك في الدنيا هذه الكلمة، وأرجو أن تعتقك في الآخرة[3].

الغلام المعلَّم:

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: كُنْتُ أَرْعَى غَنَمًا لِعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، فَمَرَّ بِي

---

(١) المحن (ص: ٣٩٥).

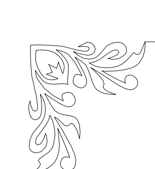
(٢) يريد أن يختبره.

(٣) موسوعة الأخلاق والزهد والرقائق (١/ ٥٣).

رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: «**يَا غُلَامُ، هَلْ مِنْ لَبَنٍ؟**» قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، وَلَكِنِّي مُؤْتَمَنٌ، قَالَ: «**فَهَلْ مِنْ شَاةٍ لَمْ يَنْزُ عَلَيْهَا الْفَحْلُ؟**» فَأَتَيْتُهُ بِشَاةٍ، فَمَسَحَ ضَرْعَهَا، فَنَزَلَ لَبَنٌ، فَحَلَبَهُ فِي إِنَاءٍ، فَشَرِبَ، وَسَقَى أَبَا بَكْرٍ، ثُمَّ قَالَ لِلضَّرْعِ: «**اقْلِصْ**» فَقَلَصَ، قَالَ: ثُمَّ أَتَيْتُهُ بَعْدَ هَذَا، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، عَلِّمْنِي مِنْ هَذَا الْقَوْلِ، قَالَ: فَمَسَحَ رَأْسِي، وَقَالَ: «**يَرْحَمُكَ اللهُ، فَإِنَّكَ غُلَيِّمٌ مُعَلَّمٌ**»(١).

❊ ❊ ❊

(١) مسند الإمام أحمد ٥ (٣٥٩٨) بتحقيق أحمد شاكر (٥/ ٢١٠): إسناده صحيح. وجاء بإسناد بعده. قال: فأتاه أبو بكر بصخرة منقورة، فاحتلب فيها وشرب، وشرب أبو بكر وشربت. قال: ثم أتيته بعد ذلك. قلت: علمني من هذا القرآن، قال: «**إنك غلام معلم**»، قال: فأخذت من فيه سبعين سورة.



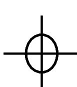
أحوال الناس اليوم مع المراقبة

اليوم تغيرت الأحوال، وانعكست المفاهيم، وقل الخوف من الله، وضعفت مراقبته في نفوس الناس، وانتشر بينهم الرياء والنفاق، والعمل للدنيا وحطامها، واتباع الأهواء والرغبات، وضعف الإخلاص لله، وفسدت النيات، ونسي كثيرٌ من الناس ربهم - إلا من عصم الله - في كل شؤونهم وأحوالهم في العقائد والعبادات، والمعاملات والأخلاق، في الأقوال والأعمال، فأين الذين استهانوا بعقيدة التوحيد، وأفسدوا في الأرض بالبدع والخرافات، بعد إصلاحها بالإيمان وصحة العقيدة.

أين هم من مراقبة الله؟! لو صدقوا في مراقبته سبحانه لاستقاموا على عقيدة سلف هذه الأمة، أين الذين يراؤون في أعمالهم، ويداهنون بأقوالهم وأفعالهم، ويتتبعون رضى الناس ورغباتهم؟! أين هم من مراقبة الله القائل: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:١٣].

أين الذين آثروا حب الدرهم والدينار؟! فجدّوا للحصول عليهما بأي طريق! ولم يبالوا بمصدرها! فيظلمون ويخدعون! ويغشون ويرابون، ويبخسون المكاييل والموازين، ولا يتقون الله في بيعهم وشرائهم! ويتساهلون في أداء زكاة أموالهم؛ حتى كانوا سببًا في منع القطر من السماء بسوء أفعالهم!

أين هؤلاء من مراقبة الواحد الديان؟!



أين الذين أطلقوا جوارحهم في الحرام؟!

فألسنتهم تقع في المحرمات! في الغيبة والنميمة! والكذب والسب والشتم! ونسوا قول المصطفى عليه الصلاة والسلام: «**وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ**»(١).

كما أطلقوا فروجهم وأيديهم وأرجلهم، وآذانهم، وجعلوها تواقع الحرام؛ ممارسةً وسماعًا، ونظرًا وبطشًا ومشيًا! أين هؤلاء من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور: ٢٤]! وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [فصلت: ٢٠]؟!

أنسوا أن الله سبحانه مستنطقٌ هذه الجوارح في يومٍ يجعل الولدان شيبًا؟!

أين الشباب المنغمس في أوحال الرذائل والمنكرات، فلا يعرفون الجماعات، ولا يؤدون الصلوات؟!

أين هم من مراقبة الله؟

أغرهم ما هم فيه من صحةٍ وفتوة؟!

أنسوا أن الموت يأتي بغتة، ولا يفرق بين صغير وكبير؟!

أين النساء اللاتي سرنَ في ركاب الجاهلية الأولى والأخرى، فلا يبالين بتعاليم الدين الحنيف، بل اتبعنَ أهواءهن، فوقعن فيما حرم الله عليهن؟!

أين هؤلاء كلهم من مراقبة الله؟! ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين: ٤ - ٦].

---

(١) سنن الترمذي (٤/ ٣٠٨). وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٧٧٢).

فأفيقوا من غفلتكم أيها المسلمون، وأديموا مراقبة مولاكم، واستشعروا قرب آجالكم، وموقفكم أمام ربكم: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨﴾ [الحاقة:١٨].

واعلموا أن المخرج والعلاج في تربية النفس على المراقبة.





تربية النفس على مراقبة الله جل وعلا

جاء رجل إلى الإمام أحمد فقال له: يا إمام! سمعت أحد الناس يقول شعرًا، قال: ما هو؟ فأخبره بالشعر، فأغلق الإمام أحمد الكتاب، ثم دخل الغرفة وأغلق على نفسه الباب، فانتظره الناس فاستبطؤوه، ثم جاؤوا عند باب الغرفة، واستمعوا ماذا يقول فسمعوه يردد الشعر وهو يبكي، أتعرف ما هو هذا الشعر؟

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل ... خلوت ولكن قل عليَّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ... ولا أن ما تخفيه عنه يغيب
لهونا لعمر الله حتى تتابعت ... ذنوب على آثارهن ذنوب
فيا ليت أن الله يغفر ما مضى ... ويأذن في توباتنا فنتوب

وأخذ الإمام أحمد يبكي ويردد تلك الأبيات.

أيها القارئ الكريم:

إذا جئت في وقت، وبدأت تعصي الله فلا تقل: خلوت، ولكن قل: عليَّ رقيب: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ١٤﴾ [العلق:١٤] ألا تعلم - يا عبد الله- أن الله يراك؟! يطلع عليك وأنت في هذه الحال!

عَنِ السَّائِبِ بْنِ جُبَيْرٍ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ وَكَانَ قَدْ أَدْرَكَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: مَا زِلْتُ أَسْمَعُ حَدِيثَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ خَرَجَ ذَاتَ لَيْلَةٍ يَطُوفُ بِالْمَدِينَةِ وَكَانَ يَفْعَلُ ذَلِكَ كَثِيرًا إِذْ مَرَّ بِامْرَأَةٍ مِنْ نِسَاءِ الْعَرَبِ مُغَلَّقَةٍ عَلَيْهَا بَابَهَا وَهِيَ تَقُولُ

تطَاوَلَ هَذَا اللَّيْلُ تَسْرِي كَوَاكِبُهْ	وَأَرَّقَنِي أَنْ لَا ضَجِيعَ أُلاعِبُهْ
أُلاعِبُهُ طَوْرًا وَطَوْرًا كَأَنَّمَا	بَدَا قَمَرًا فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ حَاجِبُهْ
يُسَرُّ بِهِ مَنْ كَانَ يَلْهُو بِقُرْبِهِ	لَطِيفُ الْحَشَا لَا تَحْتَوِيهِ أَقَارِبُهْ
فَوَاللَّهِ لَوْلا اللَّهُ لَا شَيْءَ غَيْرُهُ	لَنُقِّضَ مِنْ هَذَا السَّرِيرِ جَوَانِبُهْ
وَلَكِنَّنِي أَخْشَى رَقِيبًا مُوَكَّلا	بِأَنْفُسِنَا لَا يَفْتُرُ الدَّهْرُ كَاتِبُهْ

ثُمَّ تَنَفَّسَتِ الصَّعْدَاءَ وَقَالَتْ: لَهَانَ عَلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَحْشَتِي وَغَيْبَةُ زَوْجِي عَنِّي وَعُمَرُ وَاقِفٌ يَسْتَمِعُ قَوْلَهَا فَقَالَ لَهَا: يَرْحَمُكِ اللَّهُ، يَرْحَمُكِ اللَّهُ، ثُمَّ وَجَّهَ إِلَيْهَا بِكُسْوَةٍ وَنَفَقَةٍ وَكَتَبَ فِي أَنْ يَقْدُمَ عَلَيْهَا زَوْجُهَا[1]

هذه المرأة في قلبها إيمان بأن الله ﷻ يراقبها ويطلع عليها: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠﴾ [الرعد:١٠].

الله يعلم المستخفي في الظلمات وهو ينظر لها ويكلمها ويداعبها ويضاحكها؛ بل لعله يزني بها فهو في علم الله ولو كان مستخفيًا في الليل أو

---

(١) ذم الهوى (ص: ٢٨٣). وانظرسنن سعيد بن منصور (٢٤٦٣). ولفظه: عن زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَرَجَ لَيْلَةً يَحْرُسُ النَّاسَ، فَمَرَّ بِامْرَأَةٍ وَهِيَ فِي بَيْتِهَا وَهِيَ تَقُولُ:

تَطَاوَلَ هَذَا اللَّيْلُ وَاسْوَدَّ جَانِبُهْ	وَطَالَ عَلَيَّ أَنْ لَا خَلِيلَ أُلَاعِبُهْ
فَوَاللَّهِ لَوْلَا خَشْيَةُ اللَّهِ وَحْدَهْ	لَحُرِّكَ مِنْ هَذَا السَّرِيرِ جَوَانِبُهْ

فَلَمَّا أَصْبَحَ عُمَرُ أَرْسَلَ إِلَى الْمَرْأَةِ، فَسَأَلَ عَنْهَا، فَقِيلَ: هَذِهِ فُلَانَةُ بِنْتُ فُلَانٍ، وَزَوْجُهَا غَازٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا امْرَأَةً، فَقَالَ: كُونِي مَعَهَا حَتَّى يَأْتِيَ زَوْجُهَا، وَكَتَبَ إِلَى زَوْجِهَا، فَأَقْفَلَهُ، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى حَفْصَةَ بِنْتِهِ، فَقَالَ لَهَا: يَا بُنَيَّةُ، كَمْ تَصْبِرُ الْمَرْأَةُ عَنْ زَوْجِهَا؟؛ فَقَالَتْ لَهُ: يَا أَبَهْ، يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ أَمِثْلُكَ يَسْأَلُ مِثْلِي عَنْ هَذَا؟ فَقَالَ لَهَا: «إِنَّهُ لَوْلَا أَنَّهُ شَيْءٌ أُرِيدُ أَنْ أَنْظُرَ فِيهِ لِلرَّعِيَّةِ، مَا سَأَلْتُكِ عَنْ هَذَا، قَالَتْ: أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ، أَوْ خَمْسَةَ أَشْهُرٍ، أَوْ سِتَّةَ أَشْهُرٍ، فَقَالَ عُمَرُ: يَغْزُو النَّاسُ يَسِيرُونَ شَهْرًا ذَاهِبِينَ وَيَكُونُونَ فِي غَزْوِهِمْ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ، وَيَقْفُلُونَ شَهْرًا، فَوَقَّتَ ذَلِكَ لِلنَّاسِ مِنْ سَنَتِهِمْ فِي غَزْوِهِمْ.

ساربًا بالنهار، أي: مجاهرًا بالنهار.

يجب على العاقل أن يراقب الله - جل وعلا - وألَّا يظن أنه عندما يختلي أنه لا أحد يراه.

أبو جهل حارب النبيَّ عليه الصلاة والسلام، وصد عن سبيل الله، أتعرف بم رد الله ﷻ عليه؟! قال لأبي جهل ولأمثاله: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [العلق:١٤] ألا يعلم هذا الكافر الفاجر أن الله يراه؟! والله لو علم حق العلم أن الله يراه ومطلع عليه ما تجرأ على هذه المعصية، ولما تجرأ على أن ينتهك حرمات الله جل وعلا!



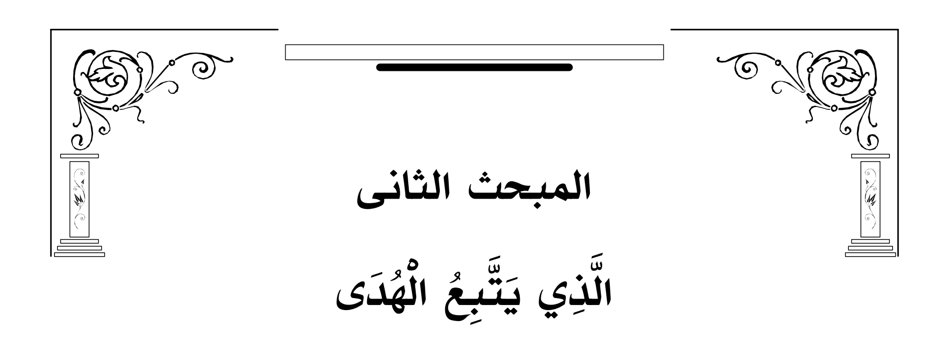


من فوائد المراقبة

- الفوز بالجنّة والنّجاة من النّار.
- الأمن من الفزع الأكبر يوم القيامة.
- دليل على كمال الإيمان وحسن الإسلام.
- تثمر محبّة الله تعالى ورضاه.
- دليل على حسن الخاتمة.
- مظهر من مظاهر صلاح العبد واستقامته.

نسأل الله أن يجعلنا من أهل المراقبة في السر والعلن





المبحث الثانى

الَّذِي يَتَّبِعُ الْهُدَى

قال موسى الكليم عليه السلام: فَأَيُّ عِبَادِكَ أَهْدَى؟
والجواب من الله الكريم: الَّذِي يَتَّبِعُ الْهُدَى

وهنا سؤال يطرح:

هل هناك هدى غير هدى الله القائل سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٢٠]. وهو القائل سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٣]. وهو القائل سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٧١].

فلا هدى إلا في وحي الله. ولا اتباع إلا لما جاء به رسول الله ﷺ.

ومن هنا نبدأ وقفتنا هذه مع هذا السؤال: **فَأَيُّ عِبَادِكَ أَهْدَى؟**

لنرى ونعيش مع الجواب من الملك الوهاب وهو: **الَّذِي يَتَّبِعُ الْهُدَى.**

❐ **الاتباع لغة:** مصدر اتّبع المأخوذ من مادّة (ت ب ع)، وتدلّ هذه المادّة على التّلو والقفو، يقال: تبعت القوم تبعًا، وتباعة بالفتح، إذا مشيت خلفهم أو مرّوا بك، فمضيت معهم، وتبعت الشّيء: سرت في أثره، والتّابع: التّالي، والجمع تبّع وتبّاع وتبعة. والتّبع اسم للجمع. وقال أبو عبيد: أتبعت

القوم إذا كانوا قد سبقوك فلحقتهم.

وقال الفرّاء: أتبع أحسن من اتّبع؛ لأنّ الاتّباع أن يسير الرّجل وأنت تسير وراءه. فإذا قلت: أتبعته فكأنّك قفوته.

❍ **واتّبع القرآن:** ائتمّ به وعمل بما فيه، وفي حديث أبي موسى الأشعريّ- رضي الله عنه- : «**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ كَائِنٌ لَكُمْ أَجْرًا، وَكَائِنٌ لَكُمْ ذِكْرًا، وَكَائِنٌ عَلَيْكُمْ وِزْرًا، فَاتَّبِعُوا الْقُرْآنَ وَلَا يَتَّبِعُكُمْ، فَإِنَّهُ مَنْ يَتَّبِعِ الْقُرْآنَ يَهْبطُ بِهِ رِيَاضَ الْجَنَّةِ، وَمَنْ يُتَّبَعْ بِهِ الْقُرْآنُ يَزُخُّ فِي قَفَاهُ حَتَّى يَقْذِفَهُ فِي جَهَنَّمَ**»(١).

يقول: اجعلوه أمامكم ثمّ اتلوه، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ أي: يتّبعونه حقّ اتّباعه، وأراد لا تدعوا تلاوته والعمل به فتكونوا قد جعلتموه وراءكم.

❍ **وتابع بين الأمور متابعة وتباعًا:** واتر، ووالى. وتابع عمله وكلامه: أتقنه وأحكمه، ومنه حديث أبي واقد اللّيثيّ: تابعنا الأعمال فلم نجد شيئا أبلغ في طلب الآخرة من الزّهد في الدّنيا، أي: أحكمناها وعرفناها. ويقال: تابع فلان كلامه، وهو تبيع للكلام؛ إذا أحكمه، ويقال: هو يتابع الحديث؛ إذا كان يسرده، وقيل: فلان متتابع العلم؛ إذا كان علمه يشاكل بعضه بعضًا لا تفاوت فيه(٢).

❍ **والاتّباع في الأصل:** اقتفاء أثر الماشي، ثمّ استعمل في العمل بمثل عمل الغير، كما في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ﴾ [التوبة: ١٠٠] ثمّ استعمل في

(١) التفسير من سنن سعيد بن منصور: (١/ ٤٩)، وسنن الدارمي (٣٣٧١).
(٢) لسان العرب لابن منظور (١/ ٤١٦، ٤١٩)، وانظر الصحاح (٣/ ١١٩٠)، ومقاييس اللغة (١/ ٣٦٢).

امتثال الأمر، والعمل بما يأمر به المتبوع؛ فهو الائتمار[١].

❐ **واصطلاحًا**: قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: هو أن يتّبع الرّجل ما جاء عن النّبيّ ﷺ وعن أصحابه، ثمّ هو من بعد في التّابعين مخيّر.

وقال ابن عبد البرّ رحمه الله تعالى: الاتّباع ما ثبت عليه الحجّة، وهو اتّباع كلّ من أوجب عليك الدّليل اتّباع قوله. فالرّسول ﷺ هو المثل الأعلى في اتّباع ما أمر به[٢].

قال الشّافعيّ رحمه الله تعالى: ولم يجعل لأحد من خلفه عذرًا أمر عرفه من أمر رسول الله ﷺ، وأن قد جعل الله بالنّاس كلّهم الحاجة إليه في دينهم، وأقام عليهم حجّته بما دلّهم عليه من سنن رسول الله ﷺ معاني ما أراد الله بفرائضه في كتابه، ليعلم من عرف منها ما وصفنا أنّ سنّته ﷺ إذا كانت سنّة مبيِّنة عن الله معنى ما أراد من مفروضه فيما فيه كتاب يتلونه، وفيما ليس فيه نصّ كتاب سنّة أخرى، فهي كذلك لا يختلف حكم الله ثمّ حكم رسوله، بل هو لازم بكلّ حال[٣].

وقال الشّاطبيّ رحمه الله تعالى: الكتاب (أي القرآن) هو المتّبع على الحقيقة، ومراتب النّاس بحسب اتّباعهم له. إنّ الله تعالى وضع هذه الشّريعة حجّة على الخلق كبيرهم وصغيرهم، مطيعهم وعاصيهم، برّهم وفاجرهم. لم يختصّ بها أحدًا دون أحد، وكذلك سائر الشّرائع إنّما وضعت لتكون حجّة على جميع الأمم الّتي تنزّل فيهم تلك الشّرائع، حتّى إنّ المرسلين بها صلوات الله عليهم داخلون تحت أحكامها.

---

(١) تفسير التحرير والتنوير (٧/ ٤٢٣).
(٢) أضواء البيان للشنقيطي (٧/ ٥٤٨).
(٣) الرسالة للشافعي (٨٥- ١٠٥) بتصرف.

فأنت ترى أنّ نبيّنا محمّدًا ﷺ مخاطب بها في جميع أحواله وتقلّباته ممّا اختصّ به دون أمّته، أو كان عامّا له ولأمّته- فالشّريعة هي الحاكمة على الإطلاق والعموم عليه وعلى جميع المكلّفين، وهي الطّريق الموصّل والهادي الأعظم. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

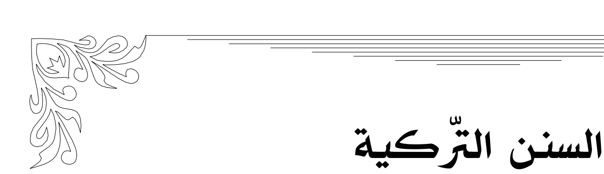
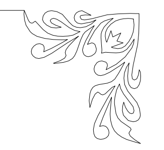
فهو – عليه الصّلاة والسّلام – أوّل من هداه الله بالكتاب والإيمان، ثمّ من اتّبعه فيه، والكتاب هو الهادي، والوحي المنزّل عليه مرشد ومبيّن لذلك الهدى، والخلق مهتدون بالجميع.

ولمّا استنار قلبه وجوارحه – عليه الصّلاة والسّلام – وباطنه وظاهره بنور الحقّ علما وعملا، صار هو الهادي الأوّل لهذه الأمّة والمرشد الأعظم، حيث خصّه الله تعالى دون الخلق بإنزال ذلك النّور عليه، واصطفاه من جملة من كان مثله في الخلقة البشريّة اصطفاء أوّليّا من جهة اختصاصه بالوحي الّذي استنار به قلبه وجوارحه فصار خلقه القرآن، حتّى قال الله فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] وذلك لأنّه حكّم الوحي على نفسه حتّى صار في علمه وعمله على وفقه واقفا عند حكمه، فقد جاء بالأمر وهو به مؤتمر، وبالنّهي وهو منتهٍ وبالوعظ وهو متّعظ، وبالتّخويف وهو أوّل الخائفين، وبالتّرجية وهو سائق دابّة الرّاجين، وقد صارت الشّريعة المنزّلة عليه حجّة حاكمة عليه، ودلالة على الصّراط المستقيم الّذي سار عليه، فإذا كان الأمر كذلك، فسائر الخلق حريّون بأن تكون الشّريعة حجّة حاكمة عليهم، ومنارًا يهتدون بها إلى الحقّ، وشرفهم إنّما يثبت بحسب ما اتّصفوا به من الدّخول تحت أحكامها، والأخذ بها قولًا واعتقادًا وعملًا، فمن كان أشدّ محافظة على اتّباع الشّريعة، فهو أولى بالشّرف والكرم، ومن كان دون ذلك لم يمكن أن يبلغ في الشّرف المبلغ

الأعلى في اتّباعها، فالشّرف إذًا إنّما هو بحسب المبالغة في تحكيم الشّريعة[١].



(١) الاعتصام (٢/ ٣٣٨- ٣٤٠) باختصار.

السنن التّركية

حكمها حكم السنن الفعلية

إذا فعل النّبيّ ﷺ حكمًا أو ترك حكمًا، فهو عبادة في حقّنا إلّا أن يقوم الدّليل على اختصاصه ﷺ بذلك الحكم، وكذلك ترك النّبيّ ﷺ لحكم؛ إذ إن التّرك وسيلة لبيان الأحكام كالفعل، فكما أنّ النّبيّ ﷺ كان يبيّن الأحكام بفعله المجرّد من القول، أو بالفعل الّذي يساعده القول، كذلك كان يبيّن الأحكام بالتّرك المجرّد من القول، أو بالتّرك الّذي يساعده القول[1].

خلاصة الأمر في هذا، أنّ المسلم واجب عليه أن يتّبع منهج الله وشريعته، كما وردت في القرآن الكريم والسّنّة النّبويّة المطهّرة؛ لأنّ كمال الإنسان وترقّيه لا يكون إلّا عبر منهاج العبادة الّذي ورد في هذين المصدرين، والّذي يعني إسلام النّفس في كلّ ما تفعل وتذر لما يريده الله ويرضاه عبر الالتزام الكلّي بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه.

وإذا كان الاتّباع كما سبق هو اتّباع النّبيّ ﷺ فيما جاء عنه وعن أصحابه، فما جاء عنه أمران: القرآن بوصفه وحيًا من الله تعالى إلى النّبيّ ﷺ، والسّنّة النّبويّة المطهّرة.

وكلّ ما جاء بالقرآن ملزم الاتّباع، حيث إنّه يحتوي على المنهج الكامل

---

(١) أفعال الرسول ﷺ للدكتور محمد سليمان الأشقر (٢/ ١٥).

لحياة المجتمع الإسلاميّ، وبالتّالي فهو يشمل كلّ ما يحتاجه هذا المجتمع، وما يحتاجه الإنسان في حياته، من عقائد وأخلاق، وأحكام عمليّة تتّصل بالعبادات والمعاملات الّتي تنظّم علاقة الإنسان بأمثاله وبالمجتمع وبالأمم والعالم.

أمّا السّنّة النّبويّة، فقد جاءت مكمّلة للقرآن، وأوجب الله على النّاس طاعة الرّسول في قبول ما شرعه لهم وامتثال ما يأمرهم به، وينهاهم عنه.

إذن واجب للرّسول ﷺ على الأمّة أمران:

الأوّل: الطّاعة فيما أتى به.

والثّاني: أن يبلّغوا عنه ما أخبرهم به.

والسّنّة أقوال وأفعال وتقريرات، وكلّ الأقوال والتّقريرات من الدّين، وحجّة على المسلم أن يتّبعها، والأفعال منها:

ما يتّصل ببيان الشّريعة وهذا واجب الاتّباع (كصلاته، وصومه، وحجّه...).

ما يتّصل بخاصّته هو، حيث قام الدّليل على أنّها خاصّة بمحمّد ﷺ.

ما يتّصل بمقتضى الجبلّة البشريّة أو بمقتضى العادات الجارية، كالملبس، والمأكل والمشرب، ... إلخ، وهذا يخضع لمقتضى الطّبيعة الإنسانيّة.

ولكنّ هذا الاتّباع ليس تقليدا أعمى، وإنّما اتّباع بصير متفهّم واعٍ بهدى الله وحكمته، وبالمقوّمات الكفيلة ببناء الإنسان بناء قويّا راسخا[1].

(١) أفعال الرسول ﷺ للدكتور محمد سليمان الأشقر (٢/ ١٥).



الاتباع دليل محبة الله ﷻ ورسوله ﷺ

❐ **للمحبّة طرفان هما:** المحبّ والمحبوب، وفيما يتعلّق بمحبّة الله ﷻ، فإنّ طرفيها هما:

محبّة العبد لربّه ومحبّة الرّبّ لعبده، **ودليل الأولى هي اتّباع المصطفى** ﷺ.

أمّا الثّانية، فهي ثمرة ذلك الاتّباع، ويؤكّد ذلك قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]؛ ولذلك أطلق على هذه الآية الكريمة آية المحبّة، يقول أبو سليمان الدّارانيّ: لمّا ادّعت القلوب محبّة الله ﷻ أنزل الله هذه الآية محنة[(١)][(٢)].

ومعنى هذه الآية كما يقول الطّبريّ: قل يا محمّد لوفد نصارى نجران: إن كنتم تزعمون أنّكم تحبّون الله فحققوا قولكم الّذي تقولونه إن كنتم صادقين باتّباعكم إيّاي، فإنّكم تعلمون أنّي رسول الله إليكم كما كان عيسى عليه السلام رسولًا إلى من أرسله الله إليهم[(٣)].

وقد فسّر بعضهم المحبّة بالاتّباع والطّاعة من جانب العباد ومحبّة الله لعباده بإنعامه عليهم بالغفران فقال: محبّة العبد لله ورسوله طاعته لهما واتّباعه أمرهما ومحبّة الله للعباد إنعامه عليهم بالغفران[(٤)].

---

(١) محنة: أي اختبارًا وامتحانًا لهذه القلوب.

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٢٢).

(٣) باختصار عن تفسير الطبري (٣/ ١٥٦).

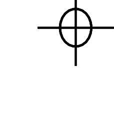
(٤) تفسير القرطبي (٤/ ٤٠).

وقال سهل بن عبد الله: علامة حبّ الله حبّ القرآن وعلامة حبّ القرآن حبّ النّبيّ ﷺ، وعلامة حبّ النّبيّ ﷺ حبّ السّنّة، وعلامة ذلك كلّه حبّ الآخرة[١]، وهذه الآية الكريمة حاكمة على كلّ من ادّعى محبّة الله وليس هو على الطّريقة المحمّديّة بأنّه كاذب في نفس الأمر حتّى يتّبع الشّرع المحمّديّ والدّين النّبويّ في جميع أقواله وأفعاله، والمراد بـ ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ أنّه يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبّتكم إيّاه وهو محبّته إيّاكم وهذا أعظم من الأوّل، إذ ليس الشّأن أن تحِبّ إنّما الشّأن أن تحَبّ[٢].

يقول ابن القيّم رحمه الله تعالى في قوله تعالى في الآية السّابقة: يحببكم الله إشارة إلى دليل المحبّة وثمرتها وفائدتها فدليلها وعلامتها اتّباع الرّسول ﷺ وفائدة الاتّباع وثمرته محبّة الله ﷻ، فإذا لم تحصل المتابعة، فليست المحبّة بحاصلة، وقال أيضًا: وعلى ذلك؛ فإنّه لا تنال محبّة الله ﷻ إلّا باتّباع الحبيب ﷺ[٣]، والخلاصة: أنّ الاتّباع علامة على صدق العبد في حبّه لله تعالى وأنّ ثمرة هذا الاتّباع هي محبّة الله ﷻ وغفرانه.



(١) تفسير القرطبي (٤/ ٤٠).
(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٣٥٨).
(٣) مدارج السالكين بتصرف (٣/ ٢٢- ٣٩).





الاتباع في القرآن الكريم

ورد الاتّباع في القرآن الكريم مأمورًا به ومنهيًّا عنه.

❐ **فالمنهيّ عنه**: هو اتّباع الهوى والشّيطان والظّنّ والكفّار وما أشبه ذلك.

❐ **أمّا المأمور به**: فقد ورد على صور عديدة؛ منها اتّباع الرّسل، ومنها اتّباع الوحي والشّريعة والهدى وصالح المؤمنين، وسنصنّف آيات الاتّباع المأمور به وفقا لما أمر باتّباعه.

الآيات الواردة في الاتباع

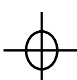
أولًا: اتباع المولى ﷻ:

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۖ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾ [غافر: ٧].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾﴾ [محمد: ٣].

وقال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا



قَرَأْنَهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة: ١٦ - ١٩].

ثانيًا: اتباع الرسول ﷺ ورسل الله الكرام وأوليائه الصالحين:

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقال تعالى: إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩، ٢٠].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال تعالى: ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [آل عمران: ٥٢-٥٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران: ٦٨].

وقال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٩٥].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا

عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧، ١٥٨].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤].

وقال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧].

وقال تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [يوسف: ٣٧- ٣٨].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨].

وقال تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [إبراهيم: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٣].

وقال تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف: ٦٦].

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾ [مريم: ٤١ - ٤٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾﴾ [طه: ٩٠ - ٩٣].

وقال تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يس: ٢٠، ٢١].

وقال تعالى: ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَـٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَـٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَـٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [الزخرف: ٥٧ - ٦١].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٧].

ثالثًا: اتباع الهدى والرضوان وما أنزل الله من كتاب أو ارتضى من شريعة:

وقال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة: ١٧٠].

وقال تعالى: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾﴾ [آل عمران: ١٦٢].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣- ١٧٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

وقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنعام: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنعام: ١٠٦].

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام: ١٥٥].

وقال تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأعراف: ٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ [يونس: ١٥].

وقال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٩].

وقال تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [طه: ٤٧].

وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه: ١٢٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ

أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة: ١٧٠].

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ١ - ٣].

وقال تعالى: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١٠، ١١].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر: ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزمر: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾﴾ [غافر: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الجاثية: ١٨].

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾﴾ [الأحقاف: ٩].

رابعًا: اتباع المؤمنين:

وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان: ١٥].

الآيات الواردة في «الاتّباع لفظا، ولها معنى آخر

وقال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٧٠].

وقال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٣ - ٩٢].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾ [طه: ١٠٨].

وقال تعالى: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الشعراء: ٥٢ - ٦٠].

وقال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٤٩، ٥٠].

وقال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الدخان: ٢٢، ٢٣].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾﴾ [النازعات: ٦ - ٩].





الأحاديث الواردة في (الاتباع)

❐ عن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه أَتَى النَّبِيَّ ﷺ بِكِتَابٍ أَصَابَهُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكُتُبِ، فَقَرَأَهُ عَلَى النَّبِيُّ ﷺ فَغَضِبَ، وَقَالَ: «**أَمُتَهَوِّكُونَ**[١] **فِيهَا يَا بْنَ الْخَطَّابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ، أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا، مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي**»[٢].

❐ عن أبي موسى الأشعريّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ مَا بَعَثَنِيَ اللهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمَهُ، فَقَالَ: يَا قَوْمِ إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِعَيْنَيَّ، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ**[٣]**، فَالنَّجَاءَ**[٤]**، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَأَدْلَجُوا**[٥] **فَانْطَلَقُوا عَلَى مُهْلَتِهِمْ، وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ، فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ**[٦]**، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي وَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ**

---

(١) متهوّكون: التهوّك: هو التحيّر، وقيل: هو الوقوع في الشيء بقلة مبالاة.

(٢) أحمد (٣/ ٣٨٧)، والسنة لابن أبي عاصم (٢٧)، وقال الألباني: حسن، المشكاة (١/ ٦٣). وعزاه للدارمي، وذكره في الإرواء وذكر له شواهد كثيرة (٦/ ٣٨٣٤).

(٣) أنا النذير العريان: أصله أن الرجل إذا أراد إنذار قومه وإعلامهم بما يوجب المخافة نزع ثوبه وأشار به إليهم إذا كان بعيدًا منهم ليخبرهم بما دهمهم، وأكثر ما يفعل هذا طليعة القوم ورقيبهم.

(٤) النجاء: اطلبوا النجاة.

(٥) فأدلجوا: ساروا من أول الليل.

(٦) اجتاحهم: استأصلهم.

مَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ»[١].

❐ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطًّا، ثُمَّ قَالَ: «**هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ**»، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**هَذِهِ سُبُلٌ** - قَالَ يَزِيدُ: مُتَفَرِّقَةٌ - **عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ**»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾[٢].

❐ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا**»[٣].

❐ عن أبي رافع رضي الله عنه أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يَأْتِيهِ الْأَمْرُ مِنْ أَمْرِي مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ فَيَقُولُ: لَا نَدْرِي مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ اتَّبَعْنَاهُ**»[٤].

❐ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «جَاءَتْ مَلَائِكَةٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ نَائِمٌ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ نَائِمٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ العَيْنَ نَائِمَةٌ، وَالقَلْبَ يَقْظَانُ، فَقَالُوا: إِنَّ لِصَاحِبِكُمْ هَذَا مَثَلًا، فَاضْرِبُوا لَهُ مَثَلًا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ نَائِمٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ العَيْنَ نَائِمَةٌ، وَالقَلْبَ يَقْظَانُ، فَقَالُوا: مَثَلُهُ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى

---

(١) البخاري- الفتح ١١ (٦٤٨٢)، ومسلم (٢٢٨٣) واللفظ له.

(٢) أحمد (١/ ٤٣٥) واللفظ له، الحاكم (٢/ ٣١٨) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، والسنة لابن أبي عاصم (١٣)، وقال الألباني (مخرجه): إسناده حسن، والحديث صحيح.

(٣) مسلم (٢٦٧٤).

(٤) أبو داود (٤٦٠٥) وقال الألباني (٣/ ٨٧١/ ٣٨٤٩): صحيح. **قلت (محمد)**: وفى هذا الحديث وصف لمن يدعون اتباع القرآن ويردون سنة رسول الله ﷺ.

دَارًا، وَجَعَلَ فِيهَا مَأْدُبَةً وَبَعَثَ دَاعِيًا، فَمَنْ أَجَابَ الدَّاعِيَ دَخَلَ الدَّارَ وَأَكَلَ مِنَ الْمَأْدُبَةِ، وَمَنْ لَمْ يُجِبِ الدَّاعِيَ لَمْ يَدْخُلِ الدَّارَ وَلَمْ يَأْكُلْ مِنَ الْمَأْدُبَةِ، فَقَالُوا: أَوِّلُوهَا لَهُ يَفْقَهْهَا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ نَائِمٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ، وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ، فَقَالُوا: فَالدَّارُ الْجَنَّةُ، وَالدَّاعِي مُحَمَّدٌ ﷺ، فَمَنْ أَطَاعَ مُحَمَّدًا ﷺ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَى مُحَمَّدًا ﷺ، فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ فَرْقٌ بَيْنَ النَّاسِ»[(١)].

❐ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: ذُكِرَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ رِجَالٌ يَجْتَهِدُونَ فِي الْعِبَادَةِ اجْتِهَادًا شَدِيدًا، فَقَالَ: «**تِلْكَ ضَرَاوَةُ الْإِسْلَامِ وَشِرَّتُهُ**[(٢)]، **وَلِكُلِّ ضَرَاوَةٍ شِرَّةٌ، وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةٌ، فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى اقْتِصَادٍ وَسُنَّةٍ فَلِأُمٍّ مَا هُوَ**[(٣)]، **وَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى الْمَعَاصِي، فَذَلِكَ الْهَالِكُ**».

وفي رواية: عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةً، وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةٌ، فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى سُنَّتِي، فَقَدْ أَفْلَحَ، وَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، فَقَدْ هَلَكَ**»[(٤)].

❐ عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «**كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا**

---

(١) البخاري- الفتح ١٣ (٧٢٨١).

(٢) الشّرّة بكسر الشين وفتح الراء مشدّدتين، معناها النشاط والرغبة، والضراوة مصدر قولهم: ضري بالشيء؛ لهج به أي أغرم به وعشقه، والفترة: هي السكون بعد الشدة، والهدوء بعد الحدة.

(٣) فلأم ما هو: دعاء لأمه يعني إنه راجع إلى أصل ثابت عظيم، وبمعنى فليؤم ويقصد؛ لأنه على الطريق المستقيم.

(٤) أحمد (٢/ ١٦٥) ولفظ الرواية الأولى له وصححه شاكر (٦٥٤٠)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٨) ولفظ الرواية الثانية له. وقال مخرجه: إسناده صحيح على شرط الشيخين وعزاه كذلك لابن حبان (٢/ ٣٤٩) عن أبى هريرة بلفظ قريب والطحاوي في مشكل الآثار.

مَنْ أَبَى»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: «**مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى**»[1].

❐ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ**»[2].

❐ عن وبرة قال: أَتَى رَجُلٌ ابْنَ عُمَرَ فَقَالَ: أَيَصْلُحُ أَنْ أَطُوفَ بِالْبَيْتِ وَأَنَا مُحْرِمٌ؟ قَالَ: مَا يَمْنَعُكَ مِنْ ذَلِكَ؟ قَالَ: إِنَّ فُلَانًا يَنْهَانَا عَنْ ذَلِكَ، حَتَّى يَرْجِعَ النَّاسُ مِنَ الْمَوْقِفِ، وَرَأَيْتُهُ كَأَنَّهُ مَالَتْ بِهِ الدُّنْيَا، وَأَنْتَ أَعْجَبُ إِلَيْنَا مِنْهُ، قَالَ ابْنُ عُمَرَ: «حَجَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَطَافَ بِالْبَيْتِ، وَسَعَى بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ» وَسُنَّةُ اللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ أَحَقُّ أَنْ تُتَّبَعَ مِنْ سُنَّةِ ابْنِ فُلَانٍ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا[3].

❐ عن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ**»[4].

❐ عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ سَأَلُوا أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ عَمَلِهِ فِي السِّرِّ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا آكُلُ اللَّحْمَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَنَامُ عَلَى فِرَاشٍ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ. فَقَالَ: «**مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا؟ لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ،**

(١) البخاري- الفتح ١٣ (٧٢٨٠).

(٢) البخاري- الفتح ٨ (٤٩٨١) واللفظ له، ومسلم (١٥٢).

(٣) مسلم (١٢٩٧).

(٤) الترمذي (٣٦٦٢) واللفظ له وقال: هذا حديث حسن، وابن ماجة (٩٧)، وأحمد (٥/ ٣٨٥- ٤٠٢)، والسنة لابن أبي عاصم (٥٣١) حديث: ١١٤٨ وقال الألباني: صحيح، وهو في الصحيحة له (٣/ ٢٣٤) حديث (١٢٣٣).

فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»[(١)].

❑ عن عروة بن الزّبير أنّ عبد الله بن الزّبير رضي الله عنهما حدّثه: أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ خَاصَمَ الزُّبَيْرَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي شِرَاجِ الْحَرَّةِ[(٢)] الَّتِي يَسْقُونَ بِهَا النَّخْلَ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: سَرِّحِ الْمَاءَ يَمُرَّ، فَأَبَى عليه، فاختصما عند رسول الله ﷺ، فقال رَسُول اللَّهِ ﷺ: «**اسق يَا زُبَيْرُ، ثُمَّ أرسل الْمَاءَ إِلَى جارك**» فَغَضِبَ الْأَنْصَارِيُّ فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ كَانَ ابْنَ عَمَّتِكَ؟ فَتَلَوَّنَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: «**يَا زُبَيْرُ، اسْقِ، ثُمَّ احْبِسِ الْمَاءَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الْجَدْرِ**[(٣)]». قَالَ: فَقَالَ الزُّبَيْرُ: وَاللَّهِ، إِنِّي لَأَحْسِبُ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥][(٤)].



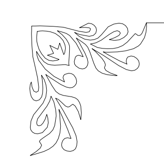
---

(١) مسلم (١٤٠١).

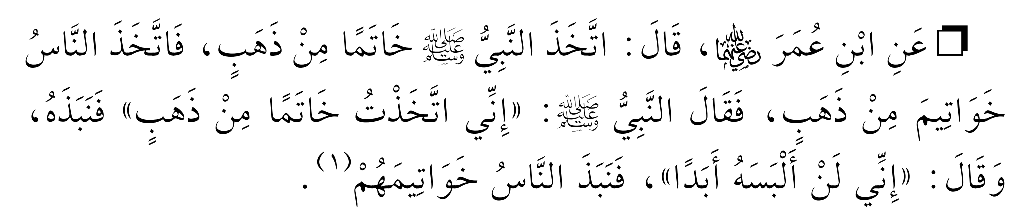
(٢) شراج الحرة: هي مسايل الماء، وواحدها شرجة. والحرة: هي الأرض الملسة التي بها حجارة سوداء.

(٣) الجدر: بفتح الجيم وكسرها، وهي الجدَّار وجمعه جدر والمراد بالجدر أصل الحائط.

(٤) البخاري- الفتح ٨ (٤٥٨٥)، ومسلم (٢٣٥٧) واللفظ له.



المثل التطبيقي
من حياة النبي ﷺ في الاتباع



❐ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، قَالَ: اتَّخَذَ النَّبِيُّ ﷺ خَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ، فَاتَّخَذَ النَّاسُ خَوَاتِيمَ مِنْ ذَهَبٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنِّي اتَّخَذْتُ خَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ» فَنَبَذَهُ، وَقَالَ: «إِنِّي لَنْ أَلْبَسَهُ أَبَدًا»، فَنَبَذَ النَّاسُ خَوَاتِيمَهُمْ(١).

❐ وعَنِ المِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ، وَمَرْوَانَ، يُصَدِّقُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَدِيثَ صَاحِبِهِ، قَالَا: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَمَنَ الحُدَيْبِيَةِ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ خَالِدَ بْنَ الوَلِيدِ بِالْغَمِيمِ(٢) فِي خَيْلٍ لِقُرَيْشٍ طَلِيعَةٌ(٣)، فَخُذُوا ذَاتَ اليَمِينِ**» فَوَاللَّهِ مَا شَعَرَ بِهِمْ خَالِدٌ حَتَّى إِذَا هُمْ بِقَتَرَةِ الجَيْشِ(٤)، فَانْطَلَقَ يَرْكُضُ نَذِيرًا لِقُرَيْشٍ، وَسَارَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ بِالثَّنِيَّةِ(٥) الَّتِي يُهْبَطُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ، فَقَالَ النَّاسُ: حَلْ حَلْ(٦) فَأَلَحَّتْ(٧)، فَقَالُوا: خَلَأَتِ القَصْوَاءُ، خَلَأَتِ القَصْوَاءُ(٨)، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

---

(١) البخاري- (٧٢٩٨).

(٢) الغميم: هو مكان بين رابغ والجحفة، وقيل: موضع بين مكة والمدينة.

(٣) الطليعة: مقدمة الجيش.

(٤) قترة الجيش: ما يثيره من الغبار أو هي الغبار الأسود.

(٥) الثنية: طريق في الجبل تشرف على الحديبية.

(٦) حل حل: كلمة تقال للناقة إذا تركت السير.

(٧) ألحّت: أي تمادت على عدم القيام، وهو من الإلحاح.

(٨) خلأت: الخلاء للناقة كالحران للخيل.

«مَا خَلَأَتِ القَصْوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الفِيلِ(١)»، ثُمَّ قَالَ: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا»**، ثُمَّ زَجَرَهَا فَوَثَبَتْ، قَالَ: فَعَدَلَ عَنْهُمْ حَتَّى نَزَلَ بِأَقْصَى الحُدَيْبِيَةِ عَلَى ثَمَدٍ(٢) قَلِيلِ المَاءِ، يَتَبَرَّضُهُ(٣) النَّاسُ تَبَرُّضًا، فَلَمْ يُلَبِّثْهُ النَّاسُ حَتَّى نَزَحُوهُ وَشُكِيَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ العَطَشُ، فَانْتَزَعَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِيهِ، فَوَاللَّهِ مَا زَالَ يَجِيشُ لَهُمْ بِالرِّيِّ حَتَّى صَدَرُوا عَنْهُ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ؛ إِذْ جَاءَ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ الخُزَاعِيُّ فِي نَفَرٍ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ خُزَاعَةَ، وَكَانُوا عَيْبَةَ نُصْحِ(٤) رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ تِهَامَةَ، فَقَالَ: إِنِّي تَرَكْتُ كَعْبَ بْنَ لُؤَيٍّ، وَعَامِرَ بْنَ لُؤَيٍّ نَزَلُوا أَعْدَادَ مِيَاهِ الحُدَيْبِيَةِ، وَمَعَهُمُ العُوذُ المَطَافِيلُ(٥)، وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ وَصَادُّوكَ عَنِ البَيْتِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«إِنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ، وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ نَهِكَتْهُمُ الحَرْبُ، وَأَضَرَّتْ بِهِمْ، فَإِنْ شَاؤُوا مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً، وَيُخَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ، فَإِنْ أَظْهَرْ: فَإِنْ شَاؤُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا، وَإِلَّا فَقَدْ جَمُّوا(٦)، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي(٧)، وَلَيُنْفِذَنَّ اللَّهُ أَمْرَهُ»**، فَقَالَ بُدَيْلٌ:

---

(١) حابس الفيل، أي: حبسها الله ﷻ، كما حبس الفيل عن مكة.

(٢) ثمد قليل الماء: أي حفيرة فيها ماء مثمود أي: قليل.

(٣) يتبرضه: هو الأخذ قليلًا قليلًا.

(٤) عيبة نصح: العيبة: هي ما توضع به الثياب لحفظها، أي أنهم موضع النصح له والأمانة لسره.

(٥) العوذ المطافيل: العوذ هي الناقة ذات اللبن، والمطافيل الأمهات اللاتي معها أطفالها.

(٦) جمّوا: أي: استراحوا.

(٧) سالفتي: السالفة: هي صفحة العنق. والمعنى من قوله: «حتى تنفرد سالفتي» كناية عن القتل أو القتال وحيدًا.

سَأُبَلِّغُهُمْ مَا تَقُولُ، قَالَ: فَانْطَلَقَ حَتَّى أَتَى قُرَيْشًا، قَالَ: إِنَّا قَدْ جِئْنَاكُمْ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ وَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ قَوْلًا، فَإِنْ شِئْتُمْ أَنْ نَعْرِضَهُ عَلَيْكُمْ فَعَلْنَا، فَقَالَ سُفَهَاؤُهُمْ: لَا حَاجَةَ لَنَا أَنْ تُخْبِرَنَا عَنْهُ بِشَيْءٍ، وَقَالَ ذَوُو الرَّأْيِ مِنْهُمْ: هَاتِ مَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ، قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا، فَحَدَّثَهُمْ بِمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَامَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ، أَلَسْتُمْ بِالوَالِدِ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: أَوَلَسْتُ بِالوَلَدِ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَهَلْ تَتَّهِمُونِي؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي اسْتَنْفَرْتُ أَهْلَ عُكَاظَ، فَلَمَّا بَلَّحُوا[١] عَلَيَّ جِئْتُكُمْ بِأَهْلِي وَوَلَدِي وَمَنْ أَطَاعَنِي؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَإِنَّ هَذَا قَدْ عَرَضَ لَكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ، اقْبَلُوهَا وَدَعُونِي آتِيهِ، قَالُوا: ائْتِهِ، فَأَتَاهُ، فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ نَحْوًا مِنْ قَوْلِهِ لِبُدَيْلٍ، فَقَالَ عُرْوَةُ عِنْدَ ذَلِكَ: أَيْ مُحَمَّدُ أَرَأَيْتَ إِنِ اسْتَأْصَلْتَ أَمْرَ قَوْمِكَ، هَلْ سَمِعْتَ بِأَحَدٍ مِنَ العَرَبِ اجْتَاحَ أَهْلَهُ قَبْلَكَ، وَإِنْ تَكُنِ الأُخْرَى، فَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَرَى وُجُوهًا، وَإِنِّي لَأَرَى أَوْشَابًا[٢] مِنَ النَّاسِ خَلِيقًا أَنْ يَفِرُّوا وَيَدَعُوكَ.

فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: امْصُصْ بِبَظْرِ اللَّاتِ[٣]، أَنَحْنُ نَفِرُّ عَنْهُ وَنَدَعُهُ؟ فَقَالَ: مَنْ ذَا؟ قَالُوا: أَبُو بَكْرٍ، قَالَ: أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْلَا يَدٌ كَانَتْ لَكَ عِنْدِي لَمْ أَجْزِكَ بِهَا لَأَجَبْتُكَ، قَالَ: وَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَكُلَّمَا تَكَلَّمَ أَخَذَ بِلِحْيَتِهِ، وَالمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِ النَّبِيِّ ﷺ، وَمَعَهُ السَّيْفُ وَعَلَيْهِ المِغْفَرُ، فَكُلَّمَا أَهْوَى عُرْوَةُ بِيَدِهِ إِلَى لِحْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ ضَرَبَ يَدَهُ بِنَعْلِ السَّيْفِ،

---

(١) بلّحوا: التبلّح: هو الامتناع عن الإجابة: وبلحوا بمعني امتنعوا عن أداء ما عليهم.

(٢) الأوشاب: الأخلاط من أنواع شتى.

(٣) امصص بظر اللات: البظر قطعة تبقى بعد الختان في فرج المرأة واللات: صنم لهم، وكانت عادة العرب الشتم بذلك لكن بلفظ الأم، فأراد أبو بكر المبالغة في سب عروة بإقامة من كان يعبد مقام أمه.

وَقَالَ لَهُ: أَخِّرْ يَدَكَ عَنْ لِحْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَرَفَعَ عُرْوَةُ رَأْسَهُ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: المُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ، فَقَالَ: أَيْ غُدَرُ(١)، أَلَسْتُ أَسْعَى فِي غَدْرَتِكَ؟ وَكَانَ المُغِيرَةُ صَحِبَ قَوْمًا فِي الجَاهِلِيَّةِ فَقَتَلَهُمْ، وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ، ثُمَّ جَاءَ فَأَسْلَمَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَمَّا الإِسْلَامَ فَأَقْبَلُ، وَأَمَّا المَالَ، فَلَسْتُ مِنْهُ فِي شَيْءٍ**».

ثُمَّ إِنَّ عُرْوَةَ جَعَلَ يَرْمُقُ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ بِعَيْنَيْهِ، قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا تَنَخَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ.

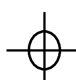
فَرَجَعَ عُرْوَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ، وَاللَّهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى المُلُوكِ، وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ، وَكِسْرَى، وَالنَّجَاشِيِّ، وَاللَّهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُحَمَّدًا، وَاللَّهِ إِنْ تَنَخَّمَ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ؛ تَعْظِيمًا لَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ فَاقْبَلُوهَا.

فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ: دَعُونِي آتِيهِ، فَقَالُوا: ائْتِهِ، فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**هَذَا فُلَانٌ، وَهُوَ مِنْ قَوْمٍ يُعَظِّمُونَ البُدْنَ، فَابْعَثُوهَا لَهُ**» فَبُعِثَتْ لَهُ، وَاسْتَقْبَلَهُ النَّاسُ يُلَبُّونَ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، مَا يَنْبَغِي لِهَؤُلَاءِ أَنْ يُصَدُّوا عَنِ البَيْتِ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ، قَالَ: رَأَيْتُ البُدْنَ قَدْ قُلِّدَتْ وَأُشْعِرَتْ، فَمَا أَرَى أَنْ يُصَدُّوا عَنِ البَيْتِ.

فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ: مِكْرَزُ بْنُ حَفْصٍ، فَقَالَ: دَعُونِي آتِيهِ، فَقَالُوا:

---

(١) غدر: من غادر وهي مبالغة في وصفه بالغدر.



ائْتِهِ، فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**هَذَا مِكْرَزٌ، وَهُوَ رَجُلٌ فَاجِرٌ**»، فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَبَيْنَمَا هُوَ يُكَلِّمُهُ؛ إِذْ جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، قَالَ مَعْمَرٌ: فَأَخْبَرَنِي أَيُّوبُ، عَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّهُ لَمَّا جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَقَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ**» قَالَ مَعْمَرٌ: قَالَ الزُّهْرِيُّ فِي حَدِيثِهِ: فَجَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، فَقَالَ: هَاتِ اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابًا، فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ الكَاتِبَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**»، قَالَ سُهَيْلٌ: أَمَّا الرَّحْمَنُ، فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا هُوَ وَلَكِنِ اكْتُبْ: «بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ» كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ، فَقَالَ المُسْلِمُونَ: وَاللَّهِ لَا نَكْتُبُهَا إِلَّا «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**اكْتُبْ: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ**» ثُمَّ قَالَ: «**هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ**»، فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَاللَّهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ البَيْتِ، وَلَا قَاتَلْنَاكَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَاللَّهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللَّهِ، وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي، اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ**» - قَالَ الزُّهْرِيُّ: وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ: «**لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا**» - فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**عَلَى أَنْ تُخَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ البَيْتِ، فَنَطُوفَ بِهِ**»، فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَاللَّهِ لَا تَتَحَدَّثُ العَرَبُ أَنَّا أُخِذْنَا ضُغْطَةً(١)، وَلَكِنْ ذَلِكَ مِنَ العَامِ المُقْبِلِ، فَكَتَبَ، فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَعَلَى أَنَّهُ لَا يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا، قَالَ المُسْلِمُونَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، كَيْفَ يُرَدُّ إِلَى المُشْرِكِينَ وَقَدْ جَاءَ مُسْلِمًا؟

فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو يَرْسُفُ فِي قُيُودِهِ(٢)، وَقَدْ خَرَجَ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ حَتَّى رَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ أَظْهُرِ المُسْلِمِينَ، فَقَالَ سُهَيْلٌ: هَذَا يَا مُحَمَّدُ أَوَّلُ مَا أُقَاضِيكَ عَلَيْهِ أَنْ تَرُدَّهُ إِلَيَّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّا لَمْ نَقْضِ**

---

(١) أخذنا ضغطة: أي قهرًا وعنوة.

(٢) يرسف في قيوده: أي يمشي مشيًا بطيئًا بسبب القيد.

الكِتَابَ بَعْدُ»، قَالَ: فَوَاللَّهِ إِذًا لَمْ أُصَالِحْكَ عَلَى شَيْءٍ أَبَدًا، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**فَأَجِزْهُ لِي**»، قَالَ: مَا أَنَا بِمُجِيزِهِ لَكَ، قَالَ: «**بَلَى فَافْعَلْ**»، قَالَ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ، قَالَ مِكْرَزٌ: بَلْ قَدْ أَجَزْنَاهُ لَكَ.

قَالَ أَبُو جَنْدَلٍ: أَيْ مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ، أُرَدُّ إِلَى المُشْرِكِينَ وَقَدْ جِئْتُ مُسْلِمًا، أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ لَقِيتُ؟! وَكَانَ قَدْ عُذِّبَ عَذَابًا شَدِيدًا فِي اللَّهِ، قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ ابْنُ الخَطَّابِ: فَأَتَيْتُ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: أَلَسْتَ نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا؟! قَالَ: «**بَلَى**»، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الحَقِّ، وَعَدُوُّنَا عَلَى البَاطِلِ؟! قَالَ: «بَلَى»، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا؟ قَالَ: «**إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي**»، قُلْتُ: أَوَلَيْسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي البَيْتَ فَنَطُوفُ بِهِ؟! قَالَ: «**بَلَى، فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ العَامَ؟**»، قَالَ: قُلْتُ: لَا، قَالَ: «**فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ**».

قَالَ: فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ فَقُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَيْسَ هَذَا نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى البَاطِلِ؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا[١] إِذًا؟ قَالَ: أَيُّهَا الرَّجُلُ إِنَّهُ لَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ، وَهُوَ نَاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِهِ[٢]، فَوَاللَّهِ إِنَّهُ عَلَى الحَقِّ، قُلْتُ: أَلَيْسَ كَانَ يُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي البَيْتَ وَنَطَّوَّفُ[٣] بِهِ؟ قَالَ: بَلَى، أَفَأَخْبَرَكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ العَامَ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ، - قَالَ الزُّهْرِيُّ: قَالَ عُمَرُ: فَعَمِلْتُ لِذَلِكَ أَعْمَالًا.

قَالَ: فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قَضِيَّةِ الكِتَابِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «**قُومُوا**

---

(١) نعطي الدنية في ديننا: أي لماذا نرضى بالنقص؟

(٢) غرزه: الغرز للإبل بمنزلة الركاب للفرس. والمراد بقوله: «فاستمسك بغرزه» أي: تمسك بأمره وترك مخالفته كالذي يمسك بركاب الفارس، فلا يفارقه.

(٣) ضبط العيني هذا الفعل بفتح الطاء والواو وتشديدهما (نطّوّف) على أن أصله (نتطوّف).

فَانْحَرُوا ثُمَّ احْلِقُوا»، قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ، فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَتُحِبُّ ذَلِكَ، اخْرُجْ ثُمَّ لا تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً، حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ، وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ، فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ نَحَرَ بُدْنَهُ، وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا، فَنَحَرُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا.

ثُمَّ جَاءَهُ نِسْوَةٌ مُؤْمِنَاتٌ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠] حَتَّى بَلَغَ بِعِصَمِ الكَوَافِرِ فَطَلَّقَ عُمَرُ يَوْمَئِذٍ امْرَأَتَيْنِ، كَانَتَا لَهُ فِي الشِّرْكِ فَتَزَوَّجَ إِحْدَاهُمَا مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ، وَالأُخْرَى صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ، ثُمَّ رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى المَدِينَةِ، فَجَاءَهُ أَبُو بَصِيرٍ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ وَهُوَ مُسْلِمٌ، فَأَرْسَلُوا فِي طَلَبِهِ رَجُلَيْنِ، فَقَالُوا: العَهْدَ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا، فَدَفَعَهُ إِلَى الرَّجُلَيْنِ، فَخَرَجَا بِهِ حَتَّى بَلَغَا ذَا الحُلَيْفَةِ، فَنَزَلُوا يَأْكُلُونَ مِنْ تَمْرٍ لَهُمْ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ لِأَحَدِ الرَّجُلَيْنِ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَى سَيْفَكَ هَذَا يَا فُلَانُ جَيِّدًا، فَاسْتَلَّهُ الآخَرُ، فَقَالَ: أَجَلْ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَجَيِّدٌ، لَقَدْ جَرَّبْتُ بِهِ، ثُمَّ جَرَّبْتُ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ: أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْهِ، فَأَمْكَنَهُ مِنْهُ، فَضَرَبَهُ حَتَّى بَرَدَ[١]، وَفَرَّ الآخَرُ حَتَّى أَتَى المَدِينَةَ، فَدَخَلَ المَسْجِدَ يَعْدُو، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ رَآهُ: «**لَقَدْ رَأَى هَذَا ذُعْرًا**»، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: قُتِلَ وَاللَّهِ صَاحِبِي وَإِنِّي لَمَقْتُولٌ، فَجَاءَ أَبُو بَصِيرٍ فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، قَدْ وَاللَّهِ أَوْفَى اللَّهُ ذِمَّتَكَ، قَدْ رَدَدْتَنِي إِلَيْهِمْ، ثُمَّ أَنْجَانِي اللَّهُ مِنْهُمْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَيْلُ أُمِّهِ**[٢] **مِسْعَرَ**[٣] **حَرْبٍ، لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ**».

---

(١) حتى برد: أي خمدت أنفاسه وحواسه.

(٢) ويل أمه: كلمة ذم تقولها العرب في المدح ولا يقصدون معنى ما فيها من الذم.

(٣) مسعر حرب: أي مقدام للحرب مسعّر لنارها.

فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ عَرَفَ أَنَّهُ سَيَرُدُّهُ إِلَيْهِمْ، فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى سِيفَ البَحْرِ[١] قَالَ: وَيَنْفَلِتُ مِنْهُمْ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلٍ، فَلَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ، فَجَعَلَ لَا يَخْرُجُ مِنْ قُرَيْشٍ رَجُلٌ قَدْ أَسْلَمَ إِلَّا لَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ، حَتَّى اجْتَمَعَتْ مِنْهُمْ عِصَابَةٌ، فَوَاللَّهِ مَا يَسْمَعُونَ بِعِيرٍ خَرَجَتْ لِقُرَيْشٍ إِلَى الشَّأْمِ إِلَّا اعْتَرَضُوا لَهَا، فَقَتَلُوهُمْ وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ، فَأَرْسَلَتْ قُرَيْشٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ تُنَاشِدُهُ بِاللَّهِ وَالرَّحِمِ، لَمَّا أَرْسَلَ، فَمَنْ أَتَاهُ فَهُوَ آمِنٌ، فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ حَتَّى بَلَغَ: ﴿ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٤ - ٢٦] وَكَانَتْ حَمِيَّتُهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يُقِرُّوا أَنَّهُ نَبِيُّ اللَّهِ، وَلَمْ يُقِرُّوا بِبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَحَالُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ البَيْتِ[٢].

هذه أمثلة من اتباع الصحابة لرسول الله ﷺ.

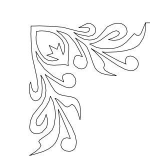
وانظر قولة أبى بكر لعمر: أَيُّهَا الرَّجُلُ إِنَّهُ لَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ، وَهُوَ نَاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِهِ، فَوَاللَّهِ إِنَّهُ عَلَى الحَقِّ.

وأيضًا ما حدث من أبى جندل وأبى بصير رضي الله عنهما.

❊ ❊ ❊

(١) سيف البحر (بكسر السين): أي ساحل البحر.

(٢) البخاري- الفتح (٢٧٣١، ٢٧٣٢) واللفظ له، ومسلم مقطعًا (١٧٨٣، ١٧٨٤، ١٧٨٥).




من الآثار وأقوال العلماء والمفسرين الواردة في الاتباع

❑ قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لشريح القاضي: «إن جاءك شيء في كتاب الله فاقض به، ولا يلفتنّك عنه الرّجال؛ فإن جاءك ما ليس في كتاب الله، فانظر سنّة رسول الله ﷺ فاقض بها، فإن جاءك ما ليس في كتاب الله ولم يكن فيه سنّة من رسول الله ﷺ، فانظر ما اجتمع عليه النّاس فخذ به، فإن جاءك ما ليس في كتاب الله ولم يكن في سنّة رسول الله ﷺ، ولم يتكلّم فيه أحد قبلك، فاختر أيّ الأمرين شئت، إن شئت أن تجتهد برأيك ثمّ تقدم فتقدّم، وإن شئت، إن تتأخّر فتأخّر، ولا أرى التّأخّر إلّا خيرا لك[١].

❑ وعن عمر بن الخطّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنّه جاء إلى الحجر الأسود فقبّله، فقال: «إنّي أعلم أنّك حجر لا تضرّ ولا تنفع، ولولا أنّي رأيت النّبيّ ﷺ يقبّلك ما قبّلتك»[٢].

❑ وعن أبي وائل قال: جلست إلى شيبة في هذا المسجد، قال: جلس إليّ عمر في مجلسك هذا فقال: هممت ألّا أدع فيها[٣] صفراء ولا بيضاء[٤] إلّا

---

(١) سنن النسائي (٨/ ٢٣١)، وسنن الدارمي (١/ ٧١، ٧٢).

(٢) البخاري - الفتح ٣ (١٥٩٧) واللفظ له، مسلم (١٢٧٠).

(٣) أي: في الكعبة.

(٤) الصفراء والبيضاء: المراد بهما الذهب والفضة، والمرآن: المراد بهما رسول الله ﷺ وأبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قسمتها بين المسلمين. قال: ما أنت بفاعل. قال: لم؟ قلت: لم يفعله صاحباك: قال: هما المرآن يقتدى بهما.

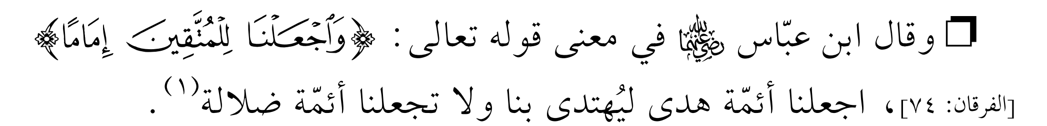
❑ وقال عليّ ابن أبي طالب رضي الله عنه: إيّاكم والاستنان بالرّجال؛ فإنّ الرّجل ليعمل بعمل أهل الجنّة ثمّ ينقلب لعلم الله فيه، فيعمل بعمل أهل النّار فيموت وهو من أهل النّار، وإنّ الرّجل ليعمل بعمل أهل النّار، فينقلب لعلم الله فيه، فيعمل بعمل أهل الجنّة فيموت وهو من أهل الجنّة، فإن كنتم لا بدّ فاعلين فبالأموات لا بالأحياء وأشار إلى رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام[١].

❑ وعن أبي إدريس الخولانيّ: «أنّ يزيد ابن عميرة، وكان من أصحاب معاذ بن جبل، أخبره، قال: كان لا يجلس مجلسا للذّكر حين يجلس إلّا قال: الله حكم قسط. هلك المرتابون. فقال معاذ بن جبل يوما: إنّ من ورائكم فتنا يكثر فيها المال، ويفتح فيها القرآن حتّى يأخذه المؤمن والمنافق، والرّجل والمرأة، والصّغير والكبير، والعبد والحرّ، فيوشك قائل أن يقول: ما للنّاس لا يتّبعوني وقد قرأت القرآن؟. ما هم بمتّبعيّ حتّى أبتدع لهم غيره، فإيّاكم وما ابتدع، فإنّ ما ابتدع ضلالة، وأحذّركم زيغة الحكيم؛ فإنّ الشّيطان قد يقول كلمة الضّلالة على لسان الحكيم، وقد يقول المنافق كلمة الحقّ. قال: قلت لمعاذ: ما يدريني- رحمك الله- أنّ الحكيم قد يقول كلمة الضّلالة، وأنّ المنافق قد يقول كلمة الحقّ؟. قال: بلى اجتنب من كلام الحكيم المشتهرات، الّتي يقال: ما هذه؟ ولا يثنينّك ذلك عنه؛ فإنّه لعلّه أن يراجع، وتلقّ الحقّ إذا سمعته، فإنّ على الحقّ نورا[٢].

---

(١) الاعتصام للشاطبي (٢/ ٣٥٨، ٣٥٩).

(٢) أبو داود (٤٦١١)، وقال الألباني (٣/ ٨٧٢): صحيح الإسناد موقوف.



❑ وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما في معنى قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]، اجعلنا أئمّة هدى ليُهتدى بنا ولا تجعلنا أئمّة ضلالة(١).

❑ وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، «فأمّا الذين ابيضّت وجوههم فأهل السّنّة والجماعة وأولو العلم. وأمّا الّذين اسودّت وجوههم فأهل البدع والضّلالة»(٢).

❑ وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: «قدم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر فنزل على ابن أخيه الحرّ بن قيس بن حصن- وكان من النّفر الذين يدنيهم عمر، وكان القرّاء أصحاب مجلس عمر ومشاورته كهولًا كانوا أو شبّانًا - فقال عيينة لابن أخيه: يا بن أخي! هل لك وجه عند هذا الأمير فتستأذن لي عليه؟ قال: سأستأذن لك عليه.

قال ابن عبّاس: فاستأذن لعيينة. فلمّا دخل قال: يابن الخطّاب، والله ما تعطينا الجزل، وما تحكم بيننا بالعدل. فغضب عمر حتّى همّ بأن يقع به، فقال الحرّ: يا أمير المؤمنين، إنّ الله تعالى قال لنبيّه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. وإنّ هذا من الجاهلين. فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقّافا عند كتاب الله»(٣).

❑ وعن ابن عمر رضي الله عنهما: «أنّه أتى على رجل قد أناخ بدنته ينحرها، قال: ابعثها قياما مقيّدة سنّة محمّد ﷺ: أي متّبعًا سنّة محمّد ﷺ»(٤).

---

(١) البخاري- الفتح ١٣ (٢٦٥).

(٢) أصول الاعتقاد (١/ ٧٢).

(٣) البخاري- الفتح ١٣ (٧٢٨٦).

(٤) البخاري - الفتح ٣ (١٥٧٣) واللفظ له، مسلم (١٢٥٩).

❐ وعن أميّة بن عبد الله بن خالد بن أسيد أنّه قال لعبد الله بن عمر: إنّا نجد صلاة الحضر وصلاة الخوف في القرآن، ولا نجد صلاة السّفر في القرآن، فقال له ابن عمر: «ابن أخي إنّ الله ﷻ بعث إلينا محمّدًا ﷺ ولا نعلم شيئًا، فإنّما نفعل كما رأينا محمّدًا ﷺ يفعل»[(١)].

❐ وعن نافع قال: «كان ابن عمر رضي الله عنهما إذا دخل أدنى الحرم أمسك عن التّلبية، ثمّ يبيت بذي طوى، ثمّ يصلّي الصّبح ويغتسل، ويحدّث أنّ النّبيّ ﷺ كان يفعل ذلك»[(٢)].

❐ وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «دخلت على حفصة فقالت: أعلمت أنّ أباك غير مستخلف؟ قال: قلت: ما كان ليفعل. قالت: إنّه فاعل. قال: فحلفت أن أكلّمه في ذلك فسكتّ. حتّى غدوت ولم أكلّمه. قال: فكنت كأنّما أحمل بيميني جبلًا. حتّى رجعت فدخلت عليه، فسألني عن حال النّاس وأنا أخبره. قال: ثمّ قلت له: إنّي سمعت النّاس يقولون مقالة فآليت أن أقولها لك. زعموا أنّك غير مستخلف، وإنّه لو كان لك راعي إبل أو راعي غنم، ثمّ جاءك وتركها رأيت أن قد ضيّع. فرعاية النّاس أشدّ. قال: فوافقه قولي.

فوضع رأسه ساعة ثمّ رفعه إليّ فقال: إنّ الله ﷻ يحفظ دينه، وإنّي لئن لا أستخلف، فإنّ رسول الله ﷺ لم يستخلف، وإن أستخلف، فإنّ أبا بكر قد استخلف. قال: فوالله ما هو إلّا أن ذكر رسول الله ﷺ وأبا بكر، فعلمت أنّه لم يكن ليعدل برسول الله ﷺ أحدًا. وأنّه غير مستخلف»[(٣)].

---

(١) أحمد (٢/ ٩٥).

(٢) البخاري - الفتح ٣ (١٥٧٣) واللفظ له، مسلم (١٢٥٩).

(٣) مسلم (١٨٢٣).

❐ وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنّه كان يفتي بالّذي أنزل الله عز وجل من الرّخصة بالتّمتّع وسنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه، فيقول ناس لابن عمر: كيف تخالف أباك وقد نهى عن ذلك؟ فيقول لهم عبد الله: ويلكم ألا تتّقون الله إن كان عمر نهى عن ذلك فيبتغي فيه الخير يلتمس به تمام العمرة، فلم تحرّمون ذلك وقد أحلّه الله وعمل به رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ أفرسول الله صلى الله عليه وسلم أحقّ أن تتّبعوا سنّته أم سنّة عمر؟ إنّ عمر لم يقل لكم إنّ العمرة في أشهر الحجّ حرام، ولكنّه قال: إنّ أتمّ العمرة أن تفردوها من أشهر الحجّ(١).

❐ وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إنّه قد أتى علينا زمان ولسنا نقضي ولسنا هنالك، ثمّ إنّ الله عز وجل قدّر علينا أن بلغنا ما ترون، فمن عرض له منكم قضاء بعد اليوم، فليقض بما في كتاب الله، فإن جاء أمر ليس في كتاب الله، فليقض بما قضى به نبيّه صلى الله عليه وسلم، فإن جاء أمر ليس في كتاب الله ولا قضى به نبيّه صلى الله عليه وسلم، فليقض بما قضى به الصّالحون، فإن جاء أمر ليس في كتاب الله ولا قضى به نبيّه صلى الله عليه وسلم ولا قضى به الصّالحون، فليجتهد رأيه ولا يقول: إنّي أخاف، وإنّي أخاف، فإنّ الحلال بيّن والحرام بيّن، وبين ذلك أمور مشتبهات، فدع ما يريبك إلى ما لا يريبك»(٢).

❐ وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «قد أصبحتم على الفطرة وإنّكم ستحدثون ويحدث لكم، فإذا رأيتم محدثة فعليكم بالهدى الأوّل»(٣).

❐ وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «من سرّه أن يلقى الله غدًا مسلمًا،

---

(١) أحمد (٢/ ٩٥).

(٢) النسائي (٨/ ٢٣٠) واللفظ له: وقال عقبه: هذا الحديث جيد. سنن الدارمي (١/ ٧١).

(٣) الفتح (١٣/ ٢٦٧).

فليحافظ على هؤلاء الصّلوات حيث ينادى بهنّ؛ فإنّ الله شرع لنبيّكم ﷺ سنن الهدى، وإنّهنّ من سنن الهدى، ولو أنّكم صلّيتم في بيوتكم كما يصلّي هذا المتخلّف في بيته لتركتم سنّة نبيّكم، ولو تركتم سنّة نبيّكم لضللتم.

وما من رجل يتطهّر فيحسن الطّهور، ثمّ يعمد إلى مسجد من هذه المساجد، إلّا كتب الله له بكلّ خطوة يخطوها حسنة. ويرفعه بها درجة. ويحطّ عنه بها سيّئة. ولقد رأيتنا وما يتخلّف عنها إلّا منافق معلوم النّفاق. ولقد كان الرّجل يؤتى به يهادى بين الرّجلين حتّى يقام في الصّفّ»[١].

❏ وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه «من كان منكم مستنًّا فليستنّ بمن قد مات، إنّ الحيّ لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمّد كانوا أفضل هذه الأمّة: أبرّها قلوبًا وأعمقها علمًا، وأقلّها تكلّفًا، اختارهم الله لصحبة نبيّه ولإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم واتّبعوهم على أثرهم وسيرتهم، فإنّهم كانوا على الهدى المستقيم»[٢].

❏ وعن جبير بن نفير؛ قال: خرجت مع شرحبيل بن السّمط إلى قرية، على رأس سبعة عشر أو ثمانية عشر ميلًا مع جماعة. فصلّى ركعتين. فقلت له: فقال: رأيت عمر صلّى بذي الحليفة ركعتين، فقلت له، فقال: إنّما أفعل كما رأيت رسول الله ﷺ يفعل[٣].

❏ وقال أنس بن مالك رضي الله عنه «أنّه سمع عمر رضي الله عنه يقول: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ۝٢٧ وَعِنَبٗا...﴾ الآية [عبس: ٢٧، ٢٨] إلى قوله: ﴿وَأَبّٗا﴾ [عبس: ٣١]. قال: كلّ هذا قد عرفناه

(١) مسلم (٦٥٤).
(٢) إغاثة اللهفان (١/ ١٥٩).
(٣) مسلم (٦٩٢).

فما الأبّ؟ ثمّ رمى عصا كانت في يده ثمّ قال: «هذا لعمر الله التّكلّف اتّبعوا ما بيّن لكم من هذا الكتاب»(١).

❐ وقال الحسن البصريّ رحمه الله تعالى: «السّنّة، والّذي لا إله إلّا هو بين الغالي والجافي، فاصبروا عليها رحمكم الله، فإنّ أهل السّنّة كانوا أقلّ النّاس فيما مضى، وهم أقلّ النّاس فيما بقى: الّذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف في إترافهم، ولا مع أهل البدع في بدعهم، وصبروا على سنّتهم حتّى لقوا ربّهم، فكذلك إن شاء الله فكونوا»(٢).

❐ وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى: «سنّ رسول الله ﷺ وولاة الأمور بعده سننًا، الأخذ بها تصديق لكتاب الله، واستكمال لطاعة الله، وقوّة على دين الله، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها، ولا النّظر فيما خالفها. من اقتدى بها فهو مهتد، ومن استنصر فهو منصور، ومن خالفها واتّبع غير سبيل المؤمنين ولّاه الله ما تولّى وأصلاه جهنّم وساءت مصيرا»(٣).

❐ وعن أبي الصّلت، قال: كتب رجل إلى عمر بن عبد العزيز يسأله عن القدر، فكتب: «أمّا بعد؛ أوصيك بتقوى الله، والاقتصاد في أمره، واتّباع سنّة نبيّه ﷺ، وترك ما أحدث المحدثون بعد ما جرت به سنّته، وكفوا مؤونته، فعليك بلزوم السّنّة، فإنّها لك بإذن الله عصمة، ثمّ اعلم أنّه لم يبتدع النّاس بدعة، إلّا قد مضى قبلها ما هو دليل عليها، أو عبرة فيها؛ فإنّ السّنّة إنّما سنّها من قد علم ما في خلافها من الخطأ، والزّلل، والحمق، والتّعمّق،

(١) الفتح (١٣/ ٢٨٥) وعزاه الحافظ لمسند عبد بن حميد. وأصل الحديث في البخاري ١٣ (٧٢٩٣).
(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٧٠).
(٣) إغاثة اللهفان (١/ ١٥٩).

فارض لنفسك ما رضي به القوم لأنفسهم؛ فإنّهم على علم وقفوا، وببصر نافذ كفّوا، وهم على كشف الأمور كانوا أقوى، وبفضل ما كانوا فيه أولى، فإن كان الهدى ما أنتم عليه لقد سبقتموهم إليه.

ولئن قلتم: إنّما حدث بعدهم. ما أحدثه إلّا من اتّبع غير سبيلهم، ورغب بنفسه عنهم؛ فإنّهم هم السّابقون، فقد تكلّموا فيه بما يكفي، ووصفوا منه ما يشفي، فما دونهم من مقصر، وما فوقهم من محسر، وقد قصّر قوم دونهم فجفوا، وطمح عنهم أقوام فغلوا، وإنّهم بين ذلك لعلى هدى مستقيم.

كتبت تسأل عن الإقرار بالقدر فعلى الخبير بإذن الله وقعت، فاعلم ما أحدث النّاس من محدثة، ولا ابتدعوا من بدعة، هي أبين أثرًا، ولا أثبت أمرًا، من الإقرار بالقدر، لقد كان ذكره في الجاهليّة الجهلاء، يتكلّمون به في كلامهم، وفي شعرهم، يعزّون به أنفسهم على ما فاتهم، ثمّ لم يزده الإسلام بعد إلّا شدّة، ولقد ذكره رسول الله ﷺ في غير حديث ولا حديثين، وقد سمعه منه المسلمون، فتكلّموا به في حياته وبعد وفاته، يقينًا وتسليمًا لربّهم، وتضعيفًا لأنفسهم، أن يكون شيء لم يحط به علمه، ولم يحصه كتابه، ولم يمض فيه قدره، وإنّه مع ذلك لفي محكم كتابه منه اقتبسوه، ومنه تعلّموه. ولئن قلتم: لم أنزل الله آية كذا، ولم قال: كذا؟

لقد قرؤوا منه ما قرأتم، وعلموا من تأويله ما جهلتم، وقالوا بعد ذلك كلّه بكتاب وقدر، وكتبت الشّقاوة، وما يقدّر يكن، وما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا نملك لأنفسنا ضرًّا ولا نفعًا، ثمّ رغبوا بعد ذلك ورهبوا»[(١)].

❑ وقال سفيان رحمه الله تعالى: «اسلكوا سبيل الحقّ، ولا تستوحشوا من

---

(١) أبو داود (٤٦١٢). وقال الألباني (٣/ ٨٧٣): صحيح مقطوع.

قلّة أهله»(١).

❒ وقال أبو شامة رحمه الله تعالى: «حيث جاء الأمر بلزوم الجماعة فالمراد به لزوم الحقّ واتّباعه، وإن كان المتمسّك به قليلًا والمخالف له كثيرًا»(٢).

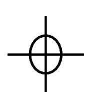
❒ وقال أبو عثمان الحيريّ: «من أمّر السّنّة على نفسه قولًا وفعلًا نطق بالحكمة، ومن أمّر الهوى على نفسه قولًا وفعلًا نطق بالبدعة، قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ﴾ [النور: ٥٤]»(٣).

❒ وقال أبو حفص: «من لم يزن أفعاله وأحواله في كلّ وقت بالكتاب والسّنّة ولم يتّهم خواطره، فلا يعدّ في ديوان الرّجال»(٤).

❒ وقال الشّاطبيّ رحمه الله تعالى: «إنّ الصّحابة كانوا مقتدين بنبيّهم ﷺ مهتدين بهديه، وقد جاء مدحهم في القرآن الكريم، وأثنى على متبوعهم محمّد ﷺ وإنّما كان خلقه ﷺ القرآن، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾ [القلم: ٤] فالقرآن إنّما هو المتبوع على الحقيقة، وجاءت السّنّة مبيّنة له، فالمتّبع للسّنّة متّبع للقرآن. والصّحابة كانوا أولى النّاس بذلك، فكلّ من اقتدى بهم، فهو من الفرقة النّاجية الدّاخلة للجنّة بفضل الله، وهو معنى قوله عليه الصّلاة والسّلام «**ما أنا عليه وأصحابي**» فالكتاب والسّنّة هو الطّريق المستقيم، وما سواهما من الإجماع وغيره فناشئ عنهما»(٥).

---

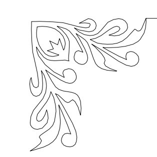
(١) الاعتصام (١/ ٣٤).
(٢) إغاثة اللهفان لابن القيم (١/ ٦٩)
(٣) الاعتصام (١/ ٩٦).
(٤) مدارج السالكين (٢/ ٤٦٤).
(٥) الاعتصام للشاطبي (٢/ ٢٥٢).



❐ وقال بعض السّلف - رحمهم الله تعالى جميعا: «لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتّى يتربّع في الهواء فلا تغترّوا به، حتّى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنّهي وحفظ الحدود»[١].

❊ ❊ ❊

(١) إغاثة اللهفان لابن القيم (١/ ١٢٤).



من فوائد الاتباع

❑ دليل المحبّة الكاملة ويجلب محبّة الله لعبده.

❑ الاتّباع مجلبة لرحمة الله تعالى ومغفرته ورضوانه.

❑ الاتّباع دليل الفلاح والهداية وقبول التّوبة.

❑ يجلب التّأييد والنّصر والتّمكين والعزّة والفلاح.

❑ يحصل للعبد به السّعادة وطيب العيش في الدّارين.

❑ الخروج من هوى النّفس وعبادة الذّات.

❑ ضمان السّلامة والأمن من الخطأ لعصمة المتبوع ﷺ.

❑ السّلامة من الاعتراض والأمن من الانتقاد.

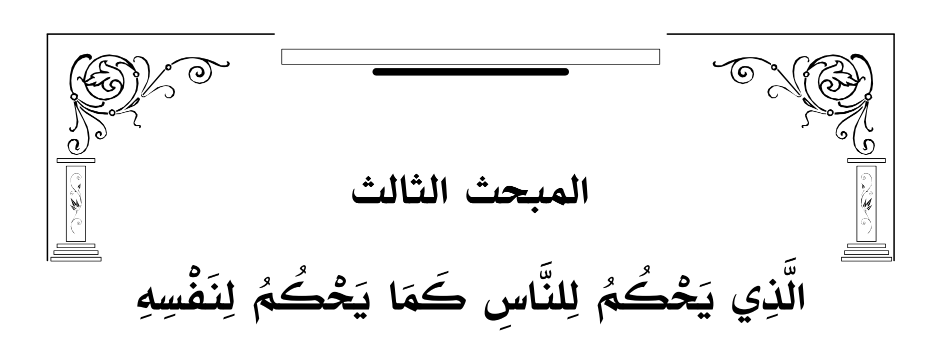
❑ صاحبه من أئمّة الهدى، فيكثر أجره بمقدار ما يكثر تابعه.

❑ الاتّباع فيما تركه ﷺ حكمه كحكم اتّباعه فيما فعله ﷺ.

❑ الاتّباع لا يكون إلّا للصّالحين المتّقين الّذين يقرؤون القرآن ويعملون به.

❑ لا يجوز اتّباع الكذّابين وطلّاب السّلطة الّذين يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم.

❊ ❊ ❊



المبحث الثالث

الَّذِي يَحْكُمُ لِلنَّاسِ كَمَا يَحْكُمُ لِنَفْسِهِ

قال موسى الكليم عليه السلام: فَأَيُّ عِبَادِكَ أَحْكَمُ؟ والجواب من الله الكريم: الَّذِي يَحْكُمُ لِلنَّاسِ كَمَا يَحْكُمُ لِنَفْسِهِ

العدل لغة:

مصدر عدل يعدل عدلًا، وهو مأخوذ من مادّة (ع د ل) الّتي تدلّ- كما يقول ابن فارس- على معنيين متقابلين: أحدهما يدلّ على الاستواء، والآخر على اعوجاج، ويرجع لفظ العدل هنا إلى المعنى الأوّل، وإذا كان العدل مصدرًا فمعناه: خلاف الجور: وهو ما قام في النّفوس أنّه مستقيم، وقد يستعمل هذا المصدر استعمال الصّفات، فيقال: رجل عدل، والعدل من النّاس المرضيّ المستقيم الطّريقة، ويستوي في هذا الوصف المفرد والمثنّى والجمع والمذكّر والمؤنّث. يقال: رجل عدل، ورجلان عدل ورجال عدل، وامرأة عدل، كلّ ذلك على معنى: ذو عدل، أو ذوو عدل، أو ذوات عدل. فإن رأيته مثنّى أو مجموعًا أو مؤنّثا، فعلى أنّه قد أجري مجرى الوصف الّذي ليس بمصدر، كما في قولهم: قوم عدل وعدول أيضًا، وحكى ابن جنّي: امرأة عدلة: ومعنى

قولهم: رجل عدل، بيّن العدل والعدالة أي أنّه رضا ومقنع في الشّهادة.

ويرادف العدل (في معناه المصدريّ) العدالة والعدولة والمعدلة والمعدلة يقال: بسط الوالي عدله ومعدلته ومعدلته بمعنى، وفلان من أهل المعدلة أي من أهل العدل، وتعديل الشّهود أن تقول: إنّهم عدول، والعدل والعدل والعديل سواء أي النّظير والمثيل، وقيل: هو المثل وليس بالنّظير عينه، وفي التّنزيل ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ [المائدة: ٩٥]، والعدل بالفتح أصله مصدر قولك: عدلت بهذا عدلًا تجعله اسما للمثل، لتفرّق بينه وبين عدل المتاع، وقال الرّاغب: العدل والعدل يتقاربان، لكنّ العدل يستعمل فيما يدرك بالبصيرة كالأحكام، والعدل والعديل فيما يدرك بالحاسّة كالموزونات والمعدودات والمكيلات، وقد فرّق سيبويه بين العدل والعديل فقال: العديل من عادلك من النّاس، والعدل لا يكون إلّا للمتاع خاصّة.

والعدل (أيضًا) الحكم بالحقّ، وفي قول الله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢].

قال سعيد بن المسيّب: ذوي عقل، وقال إبراهيم النَّخَعِيّ: العدل الّذي لم تظهر منه ريبة (ومن معاني) العدل أن تعدل الشّيء عن وجهه، أي تصرفه عنه[١].

وفيما يتعلّق بالفعل المشتقّ من هذه المادّة؛ فإنّ معناه يختلف باختلاف التّجرّد والزّيادة من ناحية، وباعتبار التّعدّي واللّزوم من ناحية ثانية، وباعتبار حرف الجرّ المتعلّق به من ناحية ثالثة، ومن أمثلة ما أوردته كتب اللّغة من ذلك قولهم: عدل في الحكم: لم يجر فيه، وعدل عليه في القضيّة: أنصفه،

(١) مقاييس اللغة لابن فارس (٤/ ٢٤٦)، والصحاح (٥/ ١٧٦٠)، ولسان العرب (٥/ ٢٨٣٨)، ومفردات الراغب (٣٢٥).

وعدل عن الحقّ: جار، ويقال: فلان يعدل فلانًا: يساويه، وما يعدلك عندنا شيء، أي: لا يقع شيء موقعك، وعدلت فلانًا بفلان: سوّيت بينهما، وعدل فلان: صار ذا عدل، وعدل بالله: أشرك، وعدل عن الشّيء: حاد عنه، وعدل إليه: رجع، وعدل الفحل عن الإبل: ترك الضّراب، ومن أمثلة الصّيغ المزيدة قولهم: عدّل الشّيء قوّمه والحكم أقامه، وعدّل الشّاهد: زكّاه، وعادل الشّيء، وازنه، وعادل الأمر ارتبك فيه، وتأتي «عادل» في معنى «انعدل» أي: اعوجّ، أمّا اعتدل، فيراد بها استقام، وقد يحتمل الفعل «عدل» أكثر من معنى كما في قوله: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠] يصحّ أن يكون على تقدير يعدلون به أي: يشركون، ويصحّ أن يكون من قولهم: عدل عن الحقّ: جار[(١)].

العدل من أسماء الله ﷻ:

ومن أسماء الله – تعالى – العدل. وهو الّذي لا يميل به الهوى، فيجور في الحكم، وهو في الأصل مصدر سمّي به، فوضع موضع (اسم الفاعل) العادل والمصدر أبلغ منه؛ لأنّه جعل المسمّى نفسه عدلا[(٢)].

ويقول الغزاليّ رحمه الله: من أراد أن يفهم وصف الله ﷻ بالعدل ينبغي له أن يحيط علما بأفعال الله– تعالى– من ملكوت السّماوات إلى منتهى الثّرى. حتّى إذا لم ير في خلق الرّحمن من تفاوت، ثمّ رجع إليه بصره، فما رأى من فطور، ثمّ رجع مرّة أخرى فانقلب إليه البصر خاسئًا وهو حسير، وقد بهره جمال ما رأى، وحيّره اعتداله وانتظامه، فعند ذلك يعبق بفمه شيء من معاني

(١) المفردات للراغب (٣٢٤) (بتصرف يسير)، وانظر هذه الأمثلة وغيرها في المراجع المذكورة في التعليق السابق.
(٢) لسان العرب (٥/ ٢٨٣٩).

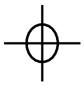
عدله، تعالى وتقدّس.

وقد خلق الله أقسام الموجودات، جسمانيّها وروحانيّها، كاملها وناقصها، وأعطى كلّ شيء خلقه، وهو بذلك جواد، ورتّبها في مواضعها اللّائقة بها وهو بذلك عدل، ولينظر الإنسان إلى بدنه، فإنّه مركّب من أعضاء مختلفة، فقد ركّبه من العظم واللّحم والجلد، وجعل العظم عمادًا مستبطنًا، واللّحم صوانًا له مكتنفًا إيّاه، وكذلك جعل الجلد صوانًا للّحم، فلو عكس هذا التّرتيب وأظهر ما أبطن لبطل النّظام واختلّ العدل، وعلى هذا ينبغي أن تعلم أنّه لم يخلق شيء في موضع إلّا لأنّه متعيّن له، ولو تيامن عنه أو تياسر أو تسفّل أو تعلّى، لكان ناقصًا أو باطلًا، أو قبيحًا، أو خارجًا عن المتناسب، كريها في المنظر، ألم تر أنّه مثلًا لو خلق الأنف على غير وسط الوجه أو لو خلق على الجبهة أو على الخدّ لتطرّق النّقص إليه.

ثمّ إنّ الإنسان لو ترقّى ونظر في ملكوت السّماوات والأرض وعجائبها لرأى ما يستحقر فيه عجائب بدنه، وكيف لا؟ وخلق السّماوات والأرض أكبر من خلق النّاس.

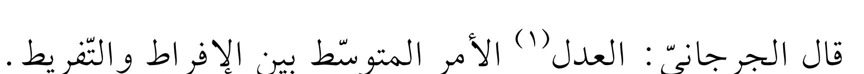
هذا هو الطّريق لمعرفة هذا الاسم؛ لأنّ معرفة الأسامي المشتقّة من الأفعال لا تفهم إلّا بعد فهم الأفعال وأنت تعلم أنّ كلّ ما في الوجود من أفعال الله. فإذا كان الأمر كذلك، فإنّ الواجب على العبد بعد إيمانه بأنّ الله عدل أنّه لا يعترض عليه في تدبيره وحكمه وسائر أفعاله، وافق مراده أم لم يوافق؛ لأنّ كلّ ذلك عدل، وتيقّنه أنّه لو لم يفعل ﷻ ما فعله لحصل في الوجود أمر آخر هو أعظم ضررًا ممّا حصل، كما أنّ المريض لو لم يحتجم لتضرّر ضررًا يزيد على ألم الحجامة(١).

(١) بتصرف شديد من «المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى» (٩٨- ١٠١).



العدل اصطلاحًا:

قال الجرجانيّ: العدل[1] الأمر المتوسّط بين الإفراط والتّفريط.



(١) الفرق بين العدالة والمساواة: المساواة هي الغاية الّتي تسعى العدالة إلى تحقيقها، وهي الغاية المرجوّة منها، والعادل- في مجال الحكم- هو الحاكم بالسّويّة؛ لأنّه يخلف صاحب الشّريعة في حفظ المساواة، ومن هنا فقد جاء في تعريف العدل أنّه القسط اللّازم للاستواء (أي لتحقيق المساواة بين الطّرفين دون زيادة أو نقصان)، وإذا كانت العدالة خلقًا؛ فإنّ المساواة قيمة وهدف. ولمّا كانت العدالة خلقًا أو هيئة نفسانيّة تصدر عنها المساواة، فقد اقترن الأمران وارتبطا ارتباطًا وثيقًا؛ لأنّ العادل من شأنه أن يساوي بين الأشياء الّتي هي غير متساوية، لمّا كان الأمر كذلك، فإنّ كليهما قد يستعمل استعمال الآخر تسامحًا، ولكنّهما غالبا ما يستعملان معا.

من صور المساواة في الإسلام:

للمساواة في الإسلام صور عديدة فصّلها الشّرع الحكيم، ومنها:

- المساواة بين الرّجل والمرأة في أداء الواجبات الشّرعيّة والإثابة عليها.
- المساواة بين الزّوجات في حقوق الزّوجيّة (في حالة التّعدّد).
- المساواة بين الأجناس والأعراق في التّمتّع بالحقوق المشروعة لكلّ منهم.
- المساواة بين الأبناء في الهبة والوصيّة ونحوهما.
- المساواة بين الخصوم في مجالس القضاء وفي سماع الحجّة منهم والقصاص من المعتدي أيًّا كانت منزلته.
- المساواة في حقّ الكرامة الإنسانيّة، فلا يؤذى أحد بسبب لونه أو جنسه أو مذهبه أو عقيدته.
- المساواة في حقّ إبداء الرّأي من المسلم وغير المسلم ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤].
- المساواة في حرمة الدّماء والأموال والأعراض.
- المساواة في إيقاع الجزاء بكلّ من ينتهك حدًّا من حدود الله، فلا يُعفى أحد من العقوبة لشرفه أو قرابته من الحاكم فتلك الّتي أهلكت الأمم السّابقة، أمّا في الإسلام، فلا أدلّ على المساواة الكاملة في هذه النّاحية من قوله ﷺ: «**لو أنّ فاطمة بنت محمّد سرقت؛ لقطع**=

والعدالة في الشّريعة: عبارة عن الاستقامة على طريق الحقّ بالاجتناب ممّا هو محظور دينًا[1].

فضيلة العدل:

قال الفيروزآباديّ رحمه الله تعالى: العدل: هو القسط على سواء، وعلى هذا روي: بالعدل قامت السّماوات والأرض؛ تنبيهًا على أنّه لو كان ركن من الأركان الأربعة في العالم زائدًا على الآخر أو ناقصًا عنه على مقتضى الحكمة لم يكن العالم منتظمًا.

أنواع العدل وأنحاؤه:

والعدل ضربان: مطلق يقتضي العقل حسنه، ولا يكون في شيء من الأزمنة منسوخًا، ولا يوصف بالاعتداء بوجه، نحو الإحسان إلى من أحسن إليك، وكفّ الأذى عمّن كفّ أذاه عنك.

وعدل يعرف كونه عدلًا بالشّرع. ويمكن أن يكون منسوخًا في بعض الأزمنة، كالقصاص وأرش الجنايات، وأخذ مال المرتدّ؛ ولذلك قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وقال: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] فسمّى ذلك سيّئة واعتداء. وهذا النّحو هو المعنيّ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠].

فإنّ العدل هو المساواة في المكافأة إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشرّ،

= محمّد يدها».

- المساواة في نيل الجزاء في الدّنيا والثّواب في الآخرة لكلّ من يعمل عملًا صالحًا.
- المساواة بين المسلمين في الحضور لأماكن العبادة كالمسجد الحرام وغيره.

(١) التعريفات للجرجاني (١٥٣).

والإحسان أن يقابل الخير بأكثر منه والشّرّ بأقلّ منه[١].

أقسام العدل وكيفية تحقيقها:

قال الماورديّ: إنّ ممّا تصلح به حال الدّنيا قاعدة العدل الشّامل، الّذي يدعو إلى الألفة، ويبعث على الطّاعة، وتعمر به البلاد، وتنمو به الأموال، ويكبر معه النّسل، ويأمن به السّلطان.

وليس شيء أسرع في خراب الأرض، ولا أفسد لضمائر الخلق من الجور؛ لأنّه ليس يقف على حدّ، ولا ينتهي إلى غاية، ولكلّ جزء منه قسط من الفساد حتّى يستكمل.

ونقل عن بعض البلغاء قوله: إنّ العدل ميزان الله الّذي وضعه للخلق، ونصبه للحقّ، فلا تخالفه في ميزانه، ولا تعارضه في سلطانه، واستعن على العدل بخلّتين: قلّة الطّمع، وكثرة الورع. فإذا كان العدل من إحدى قواعد الدّنيا الّتي لا انتظام لها إلّا به، ولا صلاح فيها إلّا معه، وجب أن يبدأ بعدل الإنسان في نفسه، ثمّ بعدله في غيره. فأمّا عدله في نفسه، فيكون بحملها على المصالح وكفّها عن القبائح، ثمّ بالوقوف في أحوالها على أعدل الأمرين: من تجاوز أو تقصير، فإنّ التّجاوز فيها جور، والتّقصير فيها ظلم، ومن ظلم نفسه فهو لغيره أظلم، ومن جار عليها، فهو على غيره أجور.

فأمّا عدله مع غيره، فقد تنقسم حال الإنسان مع غيره على ثلاثة أقسام:

القسم الأوّل: عدل الإنسان فيمن دونه، كالسّلطان في رعيّته، والرّئيس مع صحابته، فعدله فيهم يكون بأربعة أشياء:

باتّباع الميسور، وحذف المعسور، وترك التّسلّط بالقوّة، وابتغاء الحقّ في

(١) بصائر ذوي التمييز (٤/ ٢٨- ٣٠) بتصرف يسير.

السّيرة، فإنّ اتّباع الميسور أدوم، وحذف المعسور أسلم، وترك التّسلّط أعطف على المحبّة، وابتغاء الحقّ أبعث على النّصرة.

القسم الثّاني: عدل الإنسان مع من فوقه:

كالرّعيّة مع سلطانها، والصّحابة مع رئيسها، ويكون ذلك بثلاثة أشياء:

بإخلاص الطّاعة، وبذل النّصرة، وصدق الولاء؛ فإنّ إخلاص الطّاعة أجمع للشّمل، وبذل النّصرة أدفع للوهن، وصدق الولاء أنفى لسوء الظّنّ.

وهذه أمور إن لم تجتمع في المرء تسلّط عليه من كان يدفع عنه واضطرّ إلى اتّقاء من كان يقيه... وفي استمرار هذا حلّ نظام شامل، وفساد صلاح شامل.

القسم الثّالث: عدل الإنسان مع أكفائه، ويكون بثلاثة أشياء:

بترك الاستطالة، ومجانبة الإدلال، وكفّ الأذى؛ لأنّ ترك الاستطالة آلف، ومجانبة الإدلال أعطف، وكفّ الأذى أنصف، وهذه أمور إن لم تخلص في الأكفاء أسرع فيهم تقاطع الأعداء، ففسدوا وأفسدوا.

وقد يتعلّق بهذه الطّبقات أمور خاصّة يكون العدل فيها بالتّوسّط في حالتي التّقصير والسّرف؛ لأنّ العدل مأخوذ من الاعتدال، فما جاوز الاعتدال، فهو خروج عن العدل، وإذا كان الأمر كذلك، فإنّ كلّ ما خرج عن الأولى إلى ما ليس بأولى خروج عن العدل إلى ما ليس بالعدل.

ولست تجد فسادًا إلّا وسبب نتيجته الخروج فيه عن حال العدل، إلى ما ليس بعدل من حالتي الزّيادة والنّقصان، وإذا لا شيء أنفع من العدل، كما أنّه لا شيء أضرّ ممّا ليس بعدل(١).

---

(١) أدب الدنيا والدين للماوردي (١٤١- ١٤٤) بتصرف.

عدالة الشهود وعلاقتها بالمروءة:

قال بعض العلماء: والعدالة صفة توجب مراعاتها الاحتراز عمّا يخلّ بالمروءة عادة ظاهرًا، فالمرّة الواحدة من صغائر الهفوات، وتحريف الكلام لا تخلّ بالمروءة ظاهرًا، لاحتمال الغلط والنّسيان والتّأويل، بخلاف ما إذا عرف منه ذلك وتكرّر، فيكون الظّاهر الإخلال، ويعتبر عرف كلّ شخص وما يعتاده من لبسه، وتعاطيه للبيع، والشّراء وحمل الأمتعة، وغير ذلك، فإذا فعل ما لا يليق به لغير ضرورة قدح وإلّا فلا(١).

الآيات الواردة في العدل

آيات العدل فيها عام:

قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٤، ١١٥].

وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل: ٧٦].

وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْۖ وَقُلْ ءَامَنتُ

(١) المصباح المنير (٢/ ٤٤- ٤٥)، وانظر: لسان العرب (٥/ ٢٨٣٨- ٢٨٣٩).

بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الشورى: ١٥].

آيات العدل فيها في الشهادة:

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٨٢﴾﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وقال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء: ١٣٥].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم

مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [المائدة: ١٠٦].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ ﴾ [الطلاق: ١ - ٢].

آيات العدل فيها في الحكم:

وقال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [النساء: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ ﴾ [المائدة: ٩٥].

وقال تعالى: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ


تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾ [الحجرات: ٩].

الأحاديث الواردة في العدل

– عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِذَا حَكَمْتُمْ فَاعْدِلُوا وَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا، فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ مُحْسِنٌ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**»(١).

– عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ ﷻ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا**»(٢).

– عَنْ عَامِرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ رضي الله عنهما، وَهُوَ عَلَى المِنْبَرِ يَقُولُ: أَعْطَانِي أَبِي عَطِيَّةً، فَقَالَتْ عَمْرَةُ بِنْتُ رَوَاحَةَ: لَا أَرْضَى حَتَّى تُشْهِدَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: إِنِّي أَعْطَيْتُ ابْنِي مِنْ عَمْرَةَ بِنْتِ رَوَاحَةَ عَطِيَّةً، فَأَمَرَتْنِي أَنْ أُشْهِدَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «**أَعْطَيْتَ سَائِرَ وَلَدِكَ مِثْلَ هَذَا؟**»، قَالَ: لَا، قَالَ: «**فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ**»، قَالَ: فَرَجَعَ فَرَدَّ

---

(١) مجمع الزوائد (٥/ ١٩٧) واللفظ له وقال: رواه الطبراني في «الأوسط» ورجاله ثقات. وذكره الألباني في صحيح الجامع (١/ ١٩٤) وقال: حسن. وكذلك في الصحيحة برقم (٤٦٩).

(٢) مسلم (١٨٢٧) واللفظ له. والنسائي (٨/ ٢٢١، ٢٢٢) وقال الألباني في صحيحه: صحيح، حديث رقم (٤٩٧٢).

عَطِيَّتَهُ(١).

- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَى اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَجْلِسًا إِمَامٌ عَادِلٌ، وَأَبْغَضَ النَّاسِ إِلَى اللهِ وَأَبْعَدَهُمْ مِنْهُ مَجْلِسًا إِمَامٌ جَائِرٌ**»(٢).

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْخَيْرِ سَبْعِينَ سَنَةً، فَإِذَا أَوْصَى حَافَ فِي وَصِيَّتِهِ، فَيُخْتَمُ لَهُ بِشَرِّ عَمَلِهِ فَيَدْخُلُ النَّارَ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الشَّرِّ سَبْعِينَ سَنَةً، فَيَعْدِلُ فِي وَصِيَّتِهِ، فَيُخْتَمُ لَهُ بِخَيْرِ عَمَلِهِ فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ**» قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَاقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٣]- إِلَى قَوْلِهِ: ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠](٣).

- عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنْ شِئْتُمْ أَنْبَأْتُكُمْ عَنِ الْإِمَارَةِ وَمَا هِيَ؟**»، فَقُمْتُ فَنَادَيْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**أَوَّلُهَا مَلَامَةٌ، وَثَانِيهَا نَدَامَةٌ، وَثَالِثُهَا عَذَابٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَنْ عَدَلَ، وَكَيْفَ يَعْدِلُ مَعَ أَقْرِبِيهِ؟**»(٤).

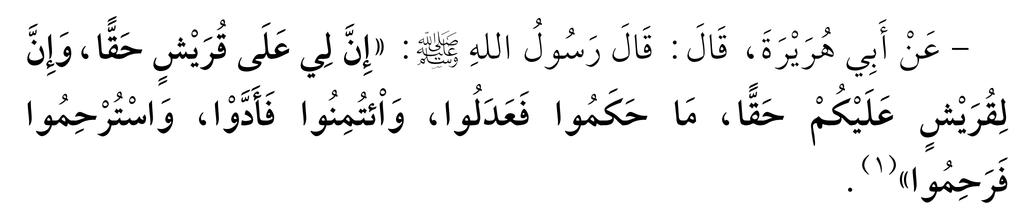
---

(١) البخاري- الفتح ٥ (٢٥٨٧).

(٢) الترمذي (١٣٢٩) واللفظ له وقال: حديث حسن غريب. وذكره في المشكاة، وعزاه للترمذي ونقل كلامه (٢/ ١٠٩٤)، وذكره ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٢٨/ ٦٥) وعزاه لمسند الإمام أحمد. وهو فيه بلفظ قريب (٣/ ٢٢، ٥٥). وقد حسنه السيوطي في الجامع الصغير (٢١٧٤)، ونقل المناوي عن ابن القطان قوله: الحديث حسن. فيض القدير (٢/ ٤١١).

(٣) أبو داود (٢٨٦٧)، والترمذي (٢١١٧) وقال: حسن صحيح غريب. وابن ماجة (٢٧٠٤) واللفظ له.

(٤) مجمع الزوائد (٥/ ٢٠٠) واللفظ له، وقال: رواه البزار والطبراني في «الكبير» و«الأوسط» باختصار ورجال «الكبير» رجال الصحيح وهو عند البزار (٢/ ٢٣٦) حديث (١٥٩٧).



- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ لِي عَلَى قُرَيْشٍ حَقًّا، وَإِنَّ لِقُرَيْشٍ عَلَيْكُمْ حَقًّا، مَا حَكَمُوا فَعَدَلُوا، وَائْتُمِنُوا فَأَدَّوْا، وَاسْتُرْحِمُوا فَرَحِمُوا**»(١).

- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الجِهَادِ كَلِمَةَ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ**»(٢).

- عن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: «بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي عُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَمَنْشَطِنَا وَمَكَارِهِنَا، وَعَلَى أَلَّا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ وَعَلَى أَنْ نَقُولَ بِالْعَدْلِ أَيْنَ كُنَّا، لَا نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ(٣).

- عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما، قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْسِمُ غَنِيمَةً بِالْجِعْرَانَةِ؛ إِذْ قَالَ لَهُ رَجُلٌ: اعْدِلْ، فَقَالَ لَهُ: «**لَقَدْ شَقِيتُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ**»(٤).

- عَن أَنَس، عَن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**ثَلاثٌ كَفَّارَاتٌ وَثَلاثٌ دَرَجَاتٌ وَثَلاثٌ مُنْجِيَاتٌ وَثَلاثٌ مُهْلِكَاتٌ فَأَمَّا الْكَفَّارَاتُ: فَإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ فِي السَّبَرَاتِ(٥) وَانْتِظَارُ الصَّلَوَاتِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ، وَنَقْلُ الأَقْدَامِ إِلَى الْجُمُعَاتِ وَأَمَّا الدَّرَجَاتُ: فَإِطْعَامُ الطعام وإفشاء السلام والصلاة بالليل وَالنَّاسُ نِيَامٌ، وَأَمَّا الْمُنْجِيَاتُ:**

(١) المسند (٢/ ٢٧٠) واللفظ له وقال الشيخ أحمد شاكر: صحيح (١٤/ ٧٢) وهو في المجمع (٥/ ١٩٢) وقال: رواه أحمد والطبراني في «الأوسط» ورجال أحمد رجال الصحيح.

(٢) الترمذى (٢١٧٤) واللفظ له وقال: هذا حديث حسن غريب. وأبو داود (٤٣٤٤) وذكره المنذرى في المختصر وأشار إلى تحسين الترمذي (٦/ ١٩١). وابن ماجة (٤٠١١) وذكره الألباني في الصحيحة (١/ ٨٠٦) حديث (٤٩١).

(٣) النسائي (٧/ ١٣٩) واللفظ له، وصحيح النسائي للألباني (٣٨٧٢)، وابن ماجة (٢٨٦٦) بلفظ: «**وعلى أن نقول بالحق**» بدل العدل.

(٤) البخاري - الفتح ٦ (٣١٣٨) واللفظ له، ومسلم (١٠٦٣).

(٥) السبرات: جمع سبرة وهي شدة البرد.

فَالْعَدْلُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا وَالْقَصْدُ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى وَخَشْيَةُ اللَّهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلانِيَةِ، وَأَمَّا الْمُهْلِكَاتُ، فَشُحٌّ مُطَاعٌ وَهَوًى مُتَّبَعٌ وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ»(١).

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**ثَلاثَةٌ لا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَالصَّائِمُ، حَتَّى يُفْطِرَ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ، يَرْفَعُهَا اللَّهُ دُونَ الْغَمَامِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَيَقُولُ: بِعِزَّتِي لأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ**»(٢).

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَدْلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ، اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ**»(٣).

من الآثار وأقوال العلماء في العدل

- قال سعيد بن جبير في جواب لعبد الملك عن العدل: «العدل على أربعة

(١) كشف الأستار عن زوائد البزار (١/ ٥٩، ٦٠): (٨٠) ومجمع الزوائد (١/ ٩١) واللفظ له، وعزاه كذلك للطبراني في «الأوسط» وذكره الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٦٧): (٣٠٤١) وقال: حسن من حديث ابن عمر وهو في الصحيحة (٤/ ٤١٢): (١٨٠٢) فانظره هناك.

(٢) الترمذي (٣٥٩٨) وقال: حديث حسن. وأحمد بتحقيق الشيخ أحمد شاكر (١٥/ ١٨٧) (٨٠٣٠) وقال: صحيح، وهو أطول من هذا. وابن ماجة (١٧٥٢) واللفظ له. وقال في الزوائد: إسناده صحيح ورجاله على شرط البخاري إلا إسحاق بن عبيد الله بن الحارث وهو ثقة، وذكره ابن كثير في تفسيره (١/ ٢١٩) وعزاه لأحمد في مسنده وسنن الترمذي والنسائي وابن ماجة.

(٣) البخاري- الفتح ٣ (١٤٢٣) واللفظ له. ومسلم (١٠٣١).

أنحاء: العدل في الحكم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٤٢]، والعدل في القول؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟﴾ [الأنعام: ١٥٢]، والعدل في الفدية، لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ١٢٣]، والعدل في الإشراك، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١](١).

- قال الغزاليّ رحمه الله تعالى: «إنّ حظّ العبد من العدل أمر ظاهر لا يخفى، فأوّل شيء يجب عليه من العدل في صفات نفسه أن يجعل الشّهوة والغضب أسيرين تحت إشارة العقل والدّين، فإنّه لو جعل العقل خادمًا للشّهوة والغضب فقد ظلمه، هذا في الجملة، أمّا تفصيلات ما يجب عليه في العدل في نفسه، فمراعاة حدود الشّرع كلّها، وإنّ عدله في كلّ عضو أنّه يستعمله على الوجه الّذي أذن الشّرع فيه.

وأمّا عدله في أهله وذويه فأمر ظاهر يدلّ عليه العقل الّذي وافقه الشّرع، وأمّا إن كان من أهل الولاية، فإنّ العدل في الرّعيّة من أوجب واجباته(٢).

- قال طاوس وإبراهيم وشريح: «البيّنة العادلة أحقّ من اليمين الفاجرة»(٣).

- قال ابن حزم رحمه الله تعالى: «أفضل نعم الله تعالى على المرء أن يطبعه على العدل وحبّه، وعلى الحقّ وإيثاره»(٤).

- قال ابن تيميّة رحمه الله تعالى: «إنّ النّاس لم يتنازعوا في أنّ عاقبة الظّلم وخيمة، وعاقبة العدل كريمة؛ ولهذا يُروى: الله ينصر الدّولة العادلة، وإن

---

(١) التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي (٥٠٦).

(٢) انتهى بتصرف شديد من «المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى» للإمام الغزالي (٩٨ - ١٠١).

(٣) البخاري معلقا مجزومًا به - الفتح ٥ (٣٤٠).

(٤) مداواة النفوس (٩٠).

كانت كافرة، ولا ينصر الدّولة الظّالمة، ولو كانت مؤمنة[١].

- وقال أيضًا: «أخبر الله في كتابه أنّه أنزل الكتاب والحديد ليقوم النّاس بالقسط، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد: ٢٥].

ولهذا أمر النّبيّ ﷺ أمّته بتولية ولاة الأمور عليهم، وأمر ولاة الأمور أن يردّوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكموا بين النّاس أن يحكموا بالعدل، وأمرهم بطاعة ولاة الأمور من طاعة الله تعالى[٢].

- وقال أيضًا: «بالصّدق في كلّ الأخبار، والعدل في الإنشاء من الأقوال والأعمال تصلح جميع الأعمال، وهما قرينان كما قال الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥][٣].

- وقال: يجب على كلّ وليّ أمر أن يستعين بأهل الصّدق والعدل، وإذا تعذّر ذلك، استعان بالأمثل فالأمثل، وإن كان فيه كذب وظلم، فإنّ الله يؤيّد هذا الدّين بالرّجل الفاجر، وبأقوام لا خلاق لهم، والواجب إنّما هو فعل المقدور[٤].

- وقال: فأيّ (يعني فكلّ) من عدل في ولاية من الولايات فساسها بعلم وعدل، وأطاع الله ورسوله بحسب الإمكان، فهو من الأبرار الصّالحين[٥].

(١) الحسبة (١٦، ١٧٠).

(٢) المصدر السابق (١٩).

(٣) الحسبة (٢٢).

(٤) المصدر السابق (٢٣).

(٥) المصدر السابق (٢٥).

- وقال أيضًا: «أمور النّاس تستقيم في الدّنيا مع العدل، أكثر ممّا تستقيم مع الظّلم في الحقوق. ويقال: الدّنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظّلم والإسلام»[١].

- قال أيضًا: «العدل نظام كلّ شيء. فإذا أقيم أمر الدّنيا بعدل قامت وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق. ومتى لم تقم بعدل لم تقم، وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة[٢].

- قال ابن القيّم - رحمه الله تعالى-: «إنّ من له ذوق في الشّريعة واطّلاع على كمالها وتضمّنها لغاية مصالح العباد في المعاش والمعاد، ومجيئها بغية العدل الّذي يسع الخلائق يجد أنّه لا عدل فوق عدلها، ولا مصلحة فوق ما تضمّنته من المصالح، تبيّن له أنّ السّياسة العادلة جزء من أجزائها، وفرع من فروعها، وأنّ من أحاط علما بمقاصدها ووضعها موضعها وحسن فهمه فيها، لم يحتج معها إلى سياسة غيرها البتّة».

فإنّ السّياسة نوعان: سياسة ظالمة، فالشّريعة تحرّمها. وسياسة عادلة تخرج الحقّ من الظّالم الفاجر، فهي من الشّريعة، علمها من علمها، وجهلها من جهلها[٣].

- قال ابن القيّم رحمه الله تعالى: «التّوحيد والعدل هما جمّاع[٤] صفات الكمال»[٥].

(١) الحسبة (١٤٧).
(٢) المصدر السابق (١٤٨).
(٣) الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية لابن القيم (ط ٥ دار المدني تحقيق جميل غازى).
(٤) الجمّاع - بضم الجيم وتشديد الميم: مجتمع أصل كل شيء.
(٥) التفسير القيم (١٧٩).

- عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: من عرض له قضاء فليقض بما في كتاب الله، فإن جاءه أمر ليس في كتاب الله عز وجل فليقض بما قضى به النّبيّ ﷺ، فإن جاءه أمر ليس في كتاب الله عز وجل ولم يقض به نبيّه ﷺ، فليقض بما قاله الصّالحون، فإن جاءه أمر ليس في كتاب الله ولم يقض به نبيّه ﷺ ولم يقض به الصّالحون، فليجتهد رأيه، فإن لم يحسن فليقرّ، ولا يستحي[(١)].

- قال القرطبيّ رحمه الله تعالى: وأمّا تفريق بعضهم بين المسكينة والّتي لها قدر من الجمال، فغير جائز لأنّ النّبيّ ﷺ قد سوّى بين أحكامهم في الدّماء فقال: «**المسلمون تتكافأ دماؤهم**»[(٢)]، وإذا كانوا في الدّماء سواء، فهم في غير ذلك شيء واحد[(٣)].

العدل أساس قيام الدول

حينما نتتبع سير سلفنا الصالح، نرى أنهم لا يحكمون الناس إلا بالعدل؛ ولأجل ذلك ولدت دولة الإسلام في المدينة، وبعد مدة وجيزة بسطت نفوذها على أكثر الكرة الأرضية، حتى كان أحد خلفائها يرفع رأسه إلى السماء ليقول لسحابةٍ مرت وهو في بغداد: أمطري أنَّى شئت، فسيأتيني خراجك ولو بعد حين.

وفي ظل هذه الدولة الإسلامية العادلة كان الراكب يسير من بلاد الصين

(١) النسائي (٨/ ٢٣٠) وقال الألباني فى صحيحه: صحيح الإسناد. موقوف (٣/ ١٠٩٢-١٠٩٣) والحاكم (٤/ ٩٤) واللفظ له وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي: صحيح.

(٢) انظر الحديث رقم (٣٩).

(٣) تفسير القرطبي (٣/ ٧٦).

شرقًا إلى المحيط الأطلسي غربًا في دولة واحدة، وتحت رايةٍ واحدة، ليست هناك حدودٌ ولا حواجزُ تستوقفه لتقول له: من أنت؟ ولو قيل له: من أنت؟ لقال: أنا مسلم أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله! في ظل العدل قامت هذه الدولة في مدةٍ وجيزة، لا تبلغ نصف قرنٍ من الزمان.

فالعدل هو الذي يقيم الأمم، كما أن الجَوْر هو سبب دمار الشعوب والأمم، وشتان بين العادل والجائر؛ قال ﷺ: «**إن المقسطين عند الله على منابر من نور: الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا**»، وأما القاسطون -وهم الجائرون- فيقول الله ﷻ عنهم: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥﴾ [الجن: ١٥].

العدل عند رسول الله ﷺ

إن لنا في سلفنا الصالح قدوةً في العدل والإنصاف، ابتداءً من رسول البرية ﷺ، الذي ما كان يعرفه الأعرابي حين يقدم عليه إلى المدينة، فكان يدخل المسجد ويقول: أيكم محمد رسول الله؟! فلم يكن ﷺ ليتميز حتى في مجلسه، أو في هيئته، أو في أي أمرٍ من الأمور.

وهيا بنا لنذكر قليلًا من كثير من عدل رسول الله ﷺ:



موقف سواد بن غزية:

- عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزّبَيْرِ قَالَ: عَدّلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الصّفُوفَ يَوْمَئِذٍ، فَتَقَدّمَ سَوَادُ بْنُ غَزِيّةَ أَمَامَ الصّفّ، فَدَفَعَ النّبِيّ ﷺ بِقَدَحٍ فِي بَطْنِ سواد بن غزيّة، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اسْتَوِ يَا سَوَادُ**»، فَقَالَ لَهُ سَوَادٌ: أوجعتنى، وَالّذِي بَعَثَك بِالْحَقّ نَبِيّا، أَقِدْنِي! فَكَشَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ بَطْنِهِ، ثُمّ قَالَ: «**اسْتَقِدْ**»،

فَاعْتَنَقَهُ وَقَبَّلَهُ، وَقَالَ لَهُ: «**مَا حَمَلَك عَلَى مَا صَنَعْت؟**» فَقَالَ: حَضَرَ مِنْ أَمْرِ اللهِ مَا قَدْ تَرَى، وَخَشِيت الْقَتْلَ، فَأَرَدْت أَنْ يَكُونَ آخِرَ عَهْدِي بِك، أَنْ أَعْتَنِقَك[١].

العدل بين المالك والمملوك:

- عَنِ الْمَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ، قَالَ: مَرَرْنَا بِأَبِي ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ وَعَلَى غُلَامِهِ مِثْلُهُ، فَقُلْنَا: يَا أَبَا ذَرٍّ لَوْ جَمَعْتَ بَيْنَهُمَا كَانَتْ حُلَّةً، فَقَالَ: إِنَّهُ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ مِنْ إِخْوَانِي كَلَامٌ، وَكَانَتْ أُمُّهُ أَعْجَمِيَّةً، فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ، فَشَكَانِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَلَقِيتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: «**يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ**»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ سَبَّ الرِّجَالَ سَبُّوا أَبَاهُ وَأُمَّهُ، قَالَ: «**يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، هُمْ إِخْوَانُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَأَطْعِمُوهُمْ مِمَّا تَأْكُلُونَ، وَأَلْبِسُوهُمْ مِمَّا تَلْبَسُونَ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ**»[٢].

- وعَنِ المَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ، قَالَ: لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ، وَعَلَى غُلَامِهِ حُلَّةٌ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلًا فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «**يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ**»[٣].

«لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»:

- وعَنْ عَائِشَةَ ﵂، أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ المَرْأَةِ المَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ، فَقَالُوا: وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ

(١) مغازي الواقدي (١/ ٥٦).
(٢) صحيح مسلم (١٦٦١).
(٣) صحيح البخاري (٣٤٧٥).

زَيْدٍ، حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟!**» ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ، ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ، وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا**»[١].

العدالة عند أبي بكر

أما أبو بكر الصديق رضي الله عنه: فهو الذي يستهل خلافته بقوله: «**يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَدْ وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ**»[٢].

وقد كان الخلفاء الراشدون يعتبرون ولاية أمر المسلمين تكليفًا لا تشريفًا، لا كما يعتبره كثيرٌ من ولاة المسلمين اليوم.

يقول أبو بكر رضي الله عنه في خطبته: «يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَدْ وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ، فَإِنْ ضَعُفْتُ فَقَوِّمُونِي، وَإِنْ أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي، الصِّدْقُ أَمَانَةٌ، وَالْكَذِبُ خِيَانَةٌ، الضَّعِيفُ فِيكُمُ الْقَوِيُّ عِنْدِي حَتَّى أُزِيحَ عَلَيْهِ حَقَّهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَالْقَوِيُّ فِيكُمُ الضَّعِيفُ عِنْدِي حَتَّى آخُذَ مِنْهُ الْحَقَّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، لَا يَدَعُ قَوْمٌ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا ضَرَبَهُمُ اللَّهُ بِالْفَقْرِ، وَلَا ظَهَرَتْ - أَوْ قَالَ: شَاعَتِ - الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ إِلَّا عَمَّمَهُمُ الْبَلَاءُ، أَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِذَا عَصَيْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ، قُومُوا إِلَى صَلَاتِكُمْ يَرْحَمْكُمُ اللَّهُ»[٣]. هكذا يعلم ولاة أمر المسلمين كيف يتعاملون مع الله ومع الناس.

---

(١) صحيح البخاري (٣٠).

(٢) جامع معمر بن راشد (١١/ ٣٣٦).

(٣) جامع معمر بن راشد (١١/ ٣٣٦).

العدالة العمرية

العدالة العمرية مَعْلَمٌ عظيم من معالم السيرة العمرية التي نتفيأ ظلالها، ونستقي أخبارها، ونجني من ثمارها، والعدل أساس في الحياة الإنسانية كلها، وبانعدامه تختل الأمور، وتضطرب الأحوال، وتقع الشحناء والبغضاء، ويفشو الظلم والاعتداء، وما من نفس بشرية ما تزال على فطرتها إلا وهي مفطورة على إباء الظلم، ومفطورة على حب العدل، وتجد أن في العدل راحتها وطمأنينتها، وتجد فيه أساسًا لانطلاقها وحريتها، وتجد من خلاله فرصة لعملها واستثمارها، وبدونه تتعطل الطاقات، وتكبت الحريات، وتتبلد الأحاسيس، ويفوت الناسَ خيرٌ كثيرٌ.

وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جاء في فترة من الزمان عصيبة وعجيبة، تضاعفت فيها مساحة الدولة الإسلامية أضعافًا مضاعفة، ودخل فيها في دين الإسلام آلاف مؤلفة، وتشعبت الأمور، واختلفت طرائق الحياة، وتغيرت موارد الرزق، وتفجرت خيرات الدنيا، وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد عاش مع النبي ﷺ بيئة فيها بساطة، وفيها محدودية في مساحتها وفي إطارها، ولكنه تعلم المبادئ، وتلقّن الأسس، وتلقى المنهج الذي يطبق على الفرد كما يطبق على الأمة وإن بلغت الملايين من البشر، ويطبق على الرقعة الصغيرة كما يطبق على الدنيا كلها في شرقها وغربها، وتلقى قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل:٩٠]، وقول الله جل وعلا: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٨]، وتلقى من محمد ﷺ نموذج العدالة الأكمل في فعله عليه الصلاة والسلام؛ فلذلك جعل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذا المعلم ركنًا ركينًا وأساسًا مكينًا في سياسته، وفي معاملته، وفي إدارته، وفي فتوحاته

وجهاده رضي الله عنه وأرضاه.

أراد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذات يوم أن يقنن المهور فماذا حدث؟

عَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ: خَطَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه النَّاسَ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَقَالَ: أَلَا لَا تُغَالُوا فِي صُدُقِ النِّسَاءِ فَإِنَّهُ لَا يَبْلُغُنِي عَنْ أَحَدٍ سَاقَ أَكْثَرَ مِنْ شَيْءٍ سَاقَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَوْ سِيقَ إِلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتُ فَضْلَ ذَلِكَ فِي بَيْتِ الْمَالِ، ثُمَّ نَزَلَ فَعَرَضَتْ لَهُ امْرَأَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ فَقَالَتْ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كِتَابُ اللَّهِ عز وجل أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَوْ قَوْلُكَ؟ قَالَ: بَلْ كِتَابُ اللَّهِ عز وجل فَمَا ذَلِكَ؟ قَالَتْ: نَهَيْتَ النَّاسَ آنِفًا أَنْ يُغَالُوا فِي صُدُقِ النِّسَاءِ وَاللَّهُ عز وجل يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٢٠]، فَقَالَ عُمَرُ: كُلُّ أَحَدٍ أَفْقَهُ مِنْ عُمَرَ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ لِلنَّاسِ: «إِنِّي نَهَيْتُكُمْ أَنْ تُغَالُوا فِي صُدُقِ النِّسَاءِ أَلَا فَلْيَفْعَلْ رَجُلٌ فِي مَالِهِ مَا بَدَا لَهُ»[1].

قصة جبلة بن الأيهم:

قَالَ أبو عمرو الشيباني: كتب جبلة إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في القدوم عليه، فأذن له عمر، فخرج إليه في خمسمائة من بنيه حتى إذا كان على مرحلتين كتب إلى عمر يعلمه بذلك، فَسُرّ عمر وبعث إليه بإنزال، وأمر جبلة مائتي رجل من أصحابه فلبسوا الديباج والحرير، وركبوا الخيل معقودة أذنابها وألبسوها قلائد الذهب والفضة، ولبس جبلة تاجه وفيه قرط مارية، وهي جدته، ودخل المدينة فلم يبق بها بكر ولا عانس إلا خرجت تنظر إليه وإلى زيه، فلما انتهى إلى عمر رحب به وألطفه وأدنى مجلسه، ثم خرج عمر إلى الحج، فحج معه جبلة، فبينما هو يطوف بالبيت وطئ إزاره رجل من بني

(١) سنن سعيد بن منصور (١/ ١٩٥).

فزارة فانحل، فرفع جبلة يده فهشم أنفه، فاستعدى عليه عمر، فبعث إلى جبلة، فقال له: ما هذا؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، إنه تعمد حل إزاري ولولا حرمة الكعبة لضربت بين عينيه بالسيف، فقال له عمر: قد أقررت، فإما أن ترضي الرجل وأما أن أقيد منك، قال جبلة: تصنع بي ماذا؟! قال: آمر بهشم أنفك كما فعلت، قال: كيف ذلك وهو سوقة وأنا ملك؟! قال: إن الإسلام جمعك وإياه، فلست تفضله إلا بالتقى، قال جبلة: قد ضننت أني أكون في الإسلام أعز مني في الجاهلية، قال عمر: دع ذا عنك فإنك إن لم ترض الرجل اقتدته منك، قال: إذا أتنصر، قال: إن تنصرت ضربت عنقك لأنك قد أسلمت فإن ارتددت قتلتك. فلما رأى الجد من عمر قال: أنا ناظر في ليلتي هذه، وقد اجتمع بباب عمر من حي هذا وحي هذا خلق كثير حتى كادت تكون بينهم فتنة، فلما أمسوا أذن له عمر في الانصراف حتى إذا نام الناس تحمل بخيله ورواحله إلى الشام فأصبحت مكة بلاقعَ منهم، فلما أتى الشام تحمل في خمسمائة رجل من قومه حتى أتى القسطنطينية فدخل إلى هرقل فتنصر هو وقومه، فسر بذلك وظن أنه فتح من الفتوح، وأجرى عليه ما شاء أوجعله من سُمَّاره[1]:

وراع صاحب كسرى أن عُمْرًا ... بين الرعية عُطْلًا وهو راعيها

رآه مستغرقًا في نومه فرأى فيه ... الجلالة في أسمى معانيها

فوق الثرى تحت ظل الدوح مشتملًا ... ببردة كاد طول العهد يبليها

فقال قولة حقٍّ أصبحت مثلًا ... وأصبح الجيل بعد الجيل يرويها

أمنت لما أقمت العدل بينهمُ ... فنمت نوم قرير العين هانيها

---

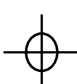
(١) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (٥/ ٢٥٦).

متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟!

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كنا عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ جاءه رجل من أهل مصر، فقال: «يا أمير المؤمنين، هذا مقام العائذ بك»، قال: «وما لك؟» قال: أجرى عمرو بن العاص بمصر الخيل فأقبلت، فلما تراءها الناس، قام محمّد بن عمرو فقال: «فرسي ورب الكعبة، فلما دنا منه عرفته، فقلت: فرسي ورب الكعبة، فقام إليّ يضربني بالسوط، ويقول: «خذها وأنا ابن الأكرمين». قال: فوالله ما زاده عمر أن قال له: «اجلس، ثم كتب إلى عمرو إذا جاءك كتابي هذا فأقبل، وأقبل معك بابنك محمّد، قال: فدعا عمرو ابنه فقال: «أحدثت حدثًا؟ أجنيت جناية؟»، قال: «لا»، قال: «فما بال عمر يكتب فيك؟» قال: فقدم على عمر، قال أنس: فوالله إنا عند عمر حتى إذا نحن بعمرو، وقد أقبل في إزار ورداء، فجعل عمر يلتفت هل يرى ابنه؟ فإذا هو خلف أبيه، قال: «أين المصري؟» قال: «ها أنا ذا»، قال: «دونك الدّرة فاضرب ابن الأكرمين، اضرب ابن الأكرمين». قال: فضربه حتى أثخنه، ثم قال: أجلها على صلعة عمرو، فوالله ما ضربك إلا بفضل سلطانه، فقال: «يا أميرالمؤمنين، قد ضربت من ضربني»، قال: «أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذي تدعه، يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟!»، ثم التفت إلى المصري فقال: «انصرف راشدًا فإن رابك ريب فاكتب إليّ»[١].

***

(١) محض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (٢/ ٤٧٢).



العدل مع غير المسلمين

هذا شريح القاضي يتحاكم إليه أمير المؤمنين وخليفة المسلمين ورجل ذمي، فيحكم شريح يرحمه الله للذمي على أمير المؤمنين؛ فقد أخرج البيهقي بسنده عن الشعبي؛ قال: خرج علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى السوق، فإذا هو بنصراني يبيع درعًا قال: فعرف علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الدرع، فقال: هذه درعي، بيني وبينك قاضي المسلمين، قال: فلما رأى شريح أمير المؤمنين قام من مجلس القضاء وأجلس عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مجلسه، وجلس شريح قدامه إلى جنب النصراني؛ فقال له علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا شريح لو كان خصمي مسلمًا لقعدت معه مجلس الخصم، ولكني سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**لا تصافحوهم، ولا تبدؤوهم بالسلام ولا تعودوا مرضاهم، ولا تصلوا عليهم، ولجوهم إلى مضايق الطرق، وصغروهم كما صغرهم الله**»، اقض بيني وبينه يا شريح. فقال شريح: ما تقول يا أمير المؤمنين؟ قال: فقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذه درعي ذهبت مني منذ زمان قال: فقال شريح: ما تقول يا نصراني؟ قال: فقال: ما أُكَذِّب أمير المؤمنين؛ الدرع هي درعي، فقال شريح: ما أرى أن تخرج من يده، فهل من بينة؟ فقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: صدق شريح. قال: فقال النصراني: أما أنا أشهد أن هذه أحكام الأنبياء، أمير المؤمنين يجيء إلى قاضيه، وقاضيه يقضي عليه، هي والله يا أمير المؤمنن درعك. اتبعتك من الجيش وقد زلت عن جملك الأورق؛ فأخذتها، فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. قال: فقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أما إذ أسلمت فهي لك، وحمله على فرس عتيق، قال: فقال الشعبي: لقد رأيته يقاتل المشركين[1].

(١) وسطية أهل السنة بين الفرق (ص: ١٧٢-١٧٣).

انظر ماذا فعل العدل!! رد الدرع والحق إلى صاحبه، ودخل رجل يهوديٌّ في الإسلام وحَسُنَ إسلامه، وانتهت القضية بالعدل، الذي لا يُحكم الناس إلا به.



قصة طعمة بن أبيرق:

إن ديننا الإسلامي دين عدل حتى مع غير المسلمين، فلا بد أن يُنْصَفَ الكافرُ من المسلم إذا كان المسلم ظالمًا، فهذا طعمة بن أبيرق كان رجلًا يدّعي الإسلام، وفي ذات يوم سرق سرقة وأراد أن يلصقها برجل يهودي، وارتفع الأمر إلى الرسول ﷺ، وجاء ناس من قوم طعمة يشهدون أن السارق هو اليهودي، حتى كاد النبي ﷺ أن يعاقب اليهودي، لولا أن الله تعالى أنزل قرآنًا يبرئه، ويأمر الرسول بالعدل والتحري، ويحذر المسلمين من أن يشهدوا ولو مع رجل مسلم ضد رجل كافر.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ﴾ [النساء:١٠٥ - ١٠٧]، ولو كان مسلمًا وذاك يهوديًّا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾﴾ [النساء:١٠٧ - ١٠٩]، ثم أخبر الله ﷻ أن الإنسان إذا عمل سوءًا فعليه أن يستغفر الله: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً

﴿أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾ [النساء:١١٠-١١٢]، ولو كان يهوديًا، ثم يقول الله تعالى لرسول الله ﷺ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ [النساء:١١٣].

إذًا: هذا هو العدل الذي قامت عليه دولة الإسلام، ولو فتشنا عن أسباب سقوط الأمم؛ لوجدنا أن السبب الرئيس هو عدم العدل بين الرعية، فإن الأمم لا تقوم إلا على العدل ولا تستقر إلا بالعدل؛ ولذلك فإن العدل هو أفضل طريق إلى الجنة، ولرضا الله ﷻ، ولاستقرار الأمور وهدوئها.

فضل العدالة في إقامة الأمر بالمعروف والدعوة إلى الله

إن الإمام العادل هو الذي يقود سفينة الحياة إلى طريق أفضل؛ هو الذي يخلصها من الأمواج المتضاربة، والأزمات المدلهمة. إن العدل هو الذي يفرض على من يتولى أمرًا من أمور المسلمين ألا يولي على أمورهم إلا كفؤًا.

وهو الذي يجعله يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الحج:٤١]، فلا بد من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن الأمة التي لا ترسخ فيها قواعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يُفْسح فيها الطريق للدعوة إلى الله ﷻ؛ أمةٌ في خطر؛ لأنها تكون قد فقدت أكبر وأعظم مقوم من مقومات البقاء والوجود في هذه الأرض، ويخشى عليها من عقاب الله ﷻ.

إنه قد تأتي فترةٌ من الفترات، في زمن من الأزمنة، في مكان من الأمكنة ينشط دعاة الباطل، ويتكلمون ملء أفواههم، ويسكت دعاة الحق عن الدعوة إليه، وحينئذٍ يضطر دعاة الحق إلى أن يطالبوا بالعدل؛ فضلًا عن أن يطالبوا بأن تكون الكلمة للمصلحين لا للفسقة والمجرمين.

ولذلك فليس من العدل أن يتحرك دعاة الباطل ويسكت دعاة الحق؛ لأنه إذا تحرك دعاة الباطل وسكت دعاة الحق؛ فإن المصيبة لن تكون في الجور وعدم العدل فقط، ولكنها مصيبة الفساد العريض الذي سيصيب الأمة؛ ولذلك نقول لمن ولي أمرًا من أمور المسلمين: اتق الله! واترك المجال للدعوة إلى الله ﷻ، فإن دعاة الباطل وإن ابتسموا في وجوه الناس، أو في وجوه ولاة الأمر، فهم الذين يحملون الحقد الدفين على هذه الأمة، أما دعاة الحق فهم الذين يشعرون - دائمًا - بالعهد والميثاق الذي أبرموه بينهم وبين الله ﷻ من جانب، وبينهم وبين الحاكم من جانب آخر، وهم الذين يحرصون كل الحرص أن يكون الحاكم على ما يرضي الله ﷻ.

إن مفهوم الإمام العادل ليس مقصورًا على من تولى الإمامة الكبرى فحسب، وإن كان هذا أول ما يتبادر إلى الذهن، لكن كل من ولي أمر المسلمين؛ فإنه سيسأل بين يدي الله ﷻ يوم القيامة عن هذه المسؤولية، وعن هذه الأمانة التي تحملها، وهي الأمانة التي يقول الله ﷻ عنها: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢].

إن الإمام العادل هو أول السبعة الذين يظلهم الله ﷻ في ظل عرشه يوم القيامة.

أما الإمام الجائر الذي يسير في طرق منحرفة معوجة، ويرى أن الحق له

دائمًا، وليس هناك حق عليه، ولا يفكر أنه سوف يحاسب بين يدي الله ﷻ يوم القيامة، ذلك الحساب الذي ينشر له فيه كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ويقال له في ذلك الموقف: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤﴾ [الإسراء:١٤]؛ فإنه على خطر عظيم، وعليه أن يتوب إلى الله ﷻ قبل فوات الأوان.

صور للعدل

العدل في الأخلاق:

من العدل: العدل في الأخلاق، الأخلاق نفسها تحتاج إلى عدل، وعلى سبيل المثال: **الشجاعة والجبن**: فالشجاعة إذا تعدت حدها تحولت إلى نوع من التهور، وإذا نقصت تحولت إلى جبن؛ لذلك فالمطلوب الاعتدال فيها.

كذلك الكرم والبخل: فالكرم إذا تعدى تحول إلى نوع من الإسراف والتبذير، وإذا نقص تحول إلى نوع من الشح والتقتير، والله تعالى مدح المؤمنين – عباد الرحمن– بأنهم: ﴿إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان:٦٧].

التواضع: إذا تعدى حده تحول إلى نوع من المهانة، وإذا نقص تحول إلى نوع من الكبر.

الطموح: إذا نقص تحول إلى نوع من الخمول والعجز، وإيثار العافية، وإذا زاد تحول إلى نوع من الغرور والإعجاب بالنفس، فحتى الأخلاق المطلوبة للإنسان ينبغي أن يحرص الإنسان فيها على الالتزام بالعدل، فلا تتعدى حدها، ولا تنقص عن قدرها.

العدل في التعامل مع الخلاف:

وهناك – في الحقيقة- ألوان أخرى من العدل لعلّي أتركها، وأكتفي بالصورة الأخيرة من العدل وهي:

العدل في التعامل مع الخلاف: وهذه من أهم القضايا، فالخلاف واقع لا محالة:

وبعض الناس – نظرًا لكثرة الخلاف يقول لك: دع المسلمين مهما كانت ألوانهم، وعقائدهم، واتجاهاتهم، ومللهم، ونِحلهم، يجتمعون على أمر واحد، ولا يعنينا اختلافهم، فيرضى بأن يجتمع أهل البدع، والضلالات، والانحرافات الغليظة والقريبة والبعيدة ليقوموا بعمل ما، وهذا في الواقع ليس من العدل؛ لأن من هؤلاء من يكونون مجرمين، والله تعالى يقول: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥﴾ [القلم:٣٥]، ومن هؤلاء مبتدعة، ومنهم غلاة، ومنهم من تصل الأحوال بهم إلى حد البدعة المكفرة.

وفي مقابل ذلك قد تجد من الناس من يبالغ في قضية منع الخلاف، حتى يريد من الناس أن يجتمعوا ويوافقوه حتى في اجتهادات شخصية فردية له، ربما لم يوافقه عليها أحد، لكن يريد أن يوافقه الناس على ما يرى، وإلا لا يأبه بهم ولا يقيم لهم وزنًا.

والعدل في ذلك أن تقبل الخلاف فيما يجوز الخلاف فيه: في موضوع الوسائل، في موضوع الاجتهادات التي تحدث للدعوة، في الفرعيات وما يتعلق بالأحكام، في أمور اختلف فيها العلماء السابقون، يسع فيها الاختلاف ما دام فيها الاختلاف مبنيًّا على الدليل وعلى الاجتهاد، حسب ما فهم الإنسان من الكتاب والسنة، وليس لمجرد الهوى، والتشهي، والرغبة الشخصية.

وإن خالفت هذا الإنسان، فإنني أقبل أن أتعاون معه على البر والتقوى، ولو كنت مختلفًا معه في بعض الأمور؛ فالعدل في التفاهم، والتعامل مع الخلاف هو من أهم وألزم الأشياء للدعاة.

العدل مع العدو والصديق:

وأيضًا على سبيل المثال من العدل: إعطاء كل ذي حق حقه، فمن العدل العدل مع الصديق والعدو، هل نحقق نحن العدل مع الأصدقاء والأعداء؟

أما أن الواحد منا – أحيانًا- إذا ذكر صديقه أثنى عليه، ولو كان يعلم أنه لا يستحق هذا الثناء، وإذا ذكر خصمه ذمه ولو كان يعلم أنه خلاف ما يقول، فمتى يصل الداعية إلى درجة ألا تؤثر الصداقة، والعداوة، والقرب، والبغض في تقويمه للأشخاص ومعرفة قدرهم؟ هل يستطيع الداعية –فعلًا- أن يذكر العيوب الموجودة في أقرب الناس إليه، ممن يكونون مثله في المنهج، والطريق، وربما يكونون شركاء في عمل واحد؟ هل يستطيع ذلك؟ وهل يستطيع الداعية أن يثني بصدق على إنسان يختلف معه، وقد ينتقده في أمور معينة، ويكون مجال عمله مجالًا آخر مختلفًا عنه، هل يستطيع ذلك؟

إن كان يستطيع فقد حقق العدل في هذه الناحية، لكن الأغلب من الناس إذا ذكر من يكون شريكًا له في العمل أثنى عليه، ولو كان لا يستحق هذا الثناء، وإذا ذكر إنسانًا مخالفًا له في المنهج ذمه، وتجاهل فضائله، وهذا ليس من العدل في شيء؛ بل الله جل وعلا يقول: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٨].

العدل في الحكم على الناس:

ومثل العدل في الحكم على الأشياء، الحكم على الناس، على الأشخاص

- كثيرًا ما ننسى أن الإنسان بشر جُبِلَ على النقص، فهو ظلوم جهول[(١)]، عجول[(٢)]، فبمجرد أن يقع خطأ من شخص، أو خطآن، أو عشرة: نسقطه من الحساب، وتتحول محاسنه إلى عيوب، وكما قيل:

إذا محاسني اللائي أدل بها … كانت عيوبًا فقل لي كيف أعتذر

فالحكم على الناس يتطلب العدل، والعدل في هذا الموقع بمعنى أن فلانًا أخطأ في مسألة، أو في مسألتين، أو عشر مسائل، أو عشرين مسألة، هذا كله ممكن أن يقع، لكن لا ينسيك هذا الكم من الأخطاء أن فلانًا له فضائلُ وحسناتٌ أخرى ينبغي أن تذكر في الكفة الثانية.

العدل مع المؤسسات:

كذلك العدل في النظر إلى المؤسسات، والجمعيات، والأعمال، والكتب، أو إلى أي شيء تريد أن تقومه، أو تقيمه، افترض أنك تريد أن تتحدث عن كتاب من الكتب، وهذا الكتاب فيه أحاديثُ ضعيفةٌ، وأحاديث موضوعة، وفيه آراء شاذة، وهذا كله صحيح، لكن ليس فيه إلا هذا؟! بحيث تذكر الجانب المظلم، والجانب الأسود، وتنسى الجانب الثاني المشرق، هذا ليس من العدل في شيء!

هذا ذكر نصف الحقيقة، والغفلة عن النصف الآخر، هو ليس من الأمانة؛ بل كان ينبغي إلى جوار الخطأ، أن تذكر الصواب، وكثير من الناس بمجرد ما يكون الكتاب فيه خطأ، إما أحاديث ضعيفة، أو مسحة من تصوف، أو خطأ

---

(١) قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

(٢) قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]، وقال تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧].

في الاعتقاد، أو خطأ في مسائل فقهية يحذرونه، ويحذرون منه.

ولو عاملنا كتب أهل العلم بهذا المنطق؛ لم يبق كتاب من كتب أهل العلم على ضوء هذا المقياس، حتى «صحيح البخاري» - أصح الكتب بعد كتاب الله- فيه نقص، فيه أبواب بيض لها، لم يضع تحتها أحاديث، وفيه أحاديث معلقة ضعيفة، والأحاديث المعلقة ليست هي الأحاديث الموصولة، حتى لا يلتبس الأمر على بعض من لا يفرقون بين الموصول والمعلق، وهناك مواضع كان الإمام البخاري يريد أن يرجع إليها، أو ما أشبه ذلك، وهناك اختلاف في بعض الروايات، وليس هناك كتاب غير القرآن يسلم من الخطأ.

فإذا قومت كتابًا فلا ينبغي أن تذكر عيوبه، وتحذر من هذا الكتاب، وتنسى ما لهذا الكتاب من الحسنات والإيجابيات.

العدل في الحكم على الدعوات:

من العدل في الحكم على الأشياء العدل في الحكم على الدعوات، ونحن نعلم أنه في هذا العصر دعوات كثيرة، قامت تدعو إلى الله جل وعلا، وهي تختلف في مناهجها، وتتفاوت في قربها وبعدها من منهج الكتاب والسنة - لا شك - لكن هذا لا يعني أن أجور على قوم، أو أبخسهم حقهم، فالله تعالى يحب العدل، وكوني أنتقدهم، لا يعني أن أنسى ما لهم من الفضائل.

أحيانًا تسمع بعض الإخوة يتحدثون عن فئة من فئة الدعاة إلى الله فيحولونهم - والعياذ بالله - إلى مجموعة من الشياطين حتى نطقهم بالشهادتين يحاولون أن يفسروها تفسيرًا غير صحيح، وهذا من الجور، والظلم، ومع الأسف - أن من يفعلون مثل هذا المسلك أحيانًا ربما يقدمون في بداية حديثهم بالكلام عن العدل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾

[النحل:٩٠]، ثم يكون هذا مسلكهم وهذا أمر مؤسف في الواقع؛ لأن الإنسان يعتقد أن هذا هو العدل، ثم ينسى ما لهؤلاء القوم من الفضائل، وينظر إليهم بعين البغضاء، والعداوة، العين التي لا ترى إلا الخبيث فيه.

هذا - والله - ظلم وجور، كوني أنتقد هؤلاء، كوني لا أرتضي منهجهم، هذا شيء، لكن كوني أنسى أن هؤلاء القوم لهم محاسنُ، ولهم فضائلُ، فالأئمة السابقون كانوا يذكرون حتى محاسن أهل البدع، في الرد على من هو أشد منهم بدعة، في دعوة بعض الكفار إلى الدخول في الإسلام، في مواجهة هجمات أعداء الدين العسكرية، في أعمال خيرية قاموا بها، فنحن لا نتجاهل بدعتهم؛ لأنهم خدموا الإسلام، ولا نتجاهل خدمتهم للإسلام بأنهم أهل بدعة، هذا هو العدل، والعدل أن نجمع بين الأمرين.

في النظر إلى الأعمال، والحركات، والمؤسسات، والأشياء التي يقوم بها المسلمون، وتجد في المسلمين إما إفراطًا، وإما تفريطًا.

أين ميزان القسطاس الذي وضعه الله - تبارك وتعالى - لهذه الأمة؟!

هل هذا هو الاتباع الحقيقي للنبي ﷺ؟

إن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يعرف للناس أقدارهم، وكان يمدح الإنسان بما فيه، وإن كان فيه ضعف ذلك من العيوب، خذ على سبيل المثال، في حديث أم سلمة، وهو في المسند، وسنده صحيح، أن النبي ﷺ قال عن النجاشي: «**إنه ملك لا يظلم عنده أحد**» فأثنى عليه النبي ﷺ بهذه الحسنة، مع أنه كان - حينئذ - كافرًا، وأسلم بعد ذلك، لكن لم يمنع ذلك النبي ﷺ من أن يذكر هذه الخصلة الحسنة فيه.

وهذا ما يفتقده كثير من الدعاة اليوم، فهم - غالبًا - ينظرون بعين واحدة،

إما ينظرون بعين الرضا فينسون العيوب، أو ينظرون بعين السخط، فينسون المحاسن، وكما قيل:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

العدل في التعامل مع النصوص الشرعية:

من العدل: العدل في التعامل مع النصوص الشرعية، نحن نعرف أن النصوص الشرعية كثيرة: قرآنًا وسنة، فمن العدل أن تعدل في النظر إلى هذه النصوص، لا تأخذ نوعًا من النصوص وتهمل نوعًا آخر، قد يقوم بعض الناس - مثلًا- في بداية تعلمه، فيأخذ نوعًا من النصوص، وهي نصوص الوعيد، مثل: «**لا يدخل الجنة قاطع**»، لا يدخل الجنة قتات.

إلى غير ذلك من النصوص، فيأخذها وبناءً على ذلك قد يكفر الخلق بهذه الظواهر التي فهمها!! هذا جور، لماذا؟ لأنه أخذ نوعًا من النصوص، وأهمل النوع الآخر الذي يجب أن يفهمه على ضوئه، فعندنا نصوص أخرى -مثلًا- «**مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ**»[1].

وآخرون يعكسون القضية، فينظرون إلى هذه النصوص، وبناءً على ذلك يأذنون للناس في الوقوع فيما شاؤوا من المعاصي، ويقولون لهم: ستدخلون الجنة، وسيغفر لكم: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف:١٦٩] هذا جور، فهذا أخذ بنوع من النصوص، وهي نصوص الوعيد، وذاك أخذ بنوع من النصوص وهي نصوص الوعد.

(١) صحيح البخاري: (٣٤٣٥).

والعدل أن يأخذ بهذا وهذا، ويجعل النصوص كلها في كفة واحدة جنبًا إلى جنب، ويفهم بعضها على ضوء البعض الآخر، فلا يشتط الميزان في يده.

✍العدل بين الكليات والجزئيات:

إن بعض الناس لا يستطيعون العدل بين الكليات والجزئيات، فالدين كله دين، وفي حديث جبريل عندما سأل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان، وفي الأخير قال: «**هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ دِينَهُمْ**»[1]، فكل هذا دين، ولا نقول: إن في الدين شيئًا ينبغي إهماله، أو إغفاله، أو أنه لا قيمة له، أو قشر، كلا؛ لأن الدين كله دين وكله من عند الله.

ولذلك لو أن إنسانًا - مثلًا- أنكر معلومًا من الدين بالضرورة، أو أمرًا متواتر الثبوت، ولو كان سنة من السنن كفر بذلك، إذا كان أمرًا قطعي الثبوت، مثل أن ينكر - مثلًا- الأذان، أو أن ينكر سنة الفجر، ينكر أنها مشروعة؛ لأن هذه الأمور ثابتة مشروعيتها، ومتواترة، لا إشكال فيها، ولا خلاف فيها بين المسلمين أنها قطعية.

إذًا ليس في الدين أمر نقول: إنه لا قيمة له، لكن لا شك أن هناك أولوياتٍ، فمثلًا: البداءة بأمور العقيدة، هذا منهج ظاهر لا بد منه، كذلك تقديم الكليات عمومًا على الجزئيات، فأنت حين ترى - مثلًا- إنسانًا عنده مجموعة من الأخطاء أو النقائص، فمن الطبعي أنك ستبدأ بالأكبر فالأكبر، فتبدأ بتعليمه الصلاة -مثلًا- قبل أن تبدأ بتعليمه الأذكار الأخرى، وتبدأ بنهيه عن الشرك الأكبر -إن كان موجودًا عنده- قبل أن تنهاه عن التدخين، أو عن أكل الربا.

---

(١) صحيح مسلم: (٩).

هذا تدرج طبعي وهو ثابت في «الصحيحين» من حديث ابن عباس، أن النبي ﷺ حين بعث معاذًا إلى اليمن قال: «**إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ، فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ**»[(١)].

إذًا: مسألة تقديم الأولويات: شريعة وسنة نبوية ثابتة عن الرسول عليه الصلاة والسلام.

كثيرًا ما يطيش الميزان في أيدي الشباب؛ بسبب ظروف محلية يواجهونها فتجد أن عنايتهم وتركيزهم يكون على جزئيات غفلوا بسببها عن الكليات، فأصبح الشاب -مثلًا- مشغولًا بمجموعة من السنن مثل موضوع تقصير الثوب، موضوع الصلاة في الثوب، موضوع جلسة الاستراحة، وموضوع تحريك الإصبع في التشهد، وعندك عشرات القضايا، وهذه القضايا أرجو ألا يفهم أنني أقلل من شأنها - حاشا لله - فهي أمور وارد فيها نصوص، وينبغي أن يكون لنا فيها رأي، وينبغي أن تدرس، وتعلم، وتتعلم -أيضًا- ويعمل بها.

لكن ينبغي - أيضًا - ألا يُشْتغل بهذه الأشياء، ويغفل عما هو أهم منها، أذكر أنني اطلعت على عدد من الأبحاث في موضوع كيفية تحريك الإصبع في التشهد، فهناك بحوث كثيرة، بعضها كتب مستقلة، وبعضها بحوث ضمن كتب، وبعضها بحوث من مجلات وغيرها، لكن هناك مسائلُ عويصةٌ، نازلة بالمسلمين، وهم في أمسِّ الحاجة إلى بحثها ومعرفة حكمها -أحيانًا- قد لا تجد فيها ولا بحثًا واحدًا.

---

(١) صحيح البخاري (٢/ ١٢٨).

إذًا: لا بد من العدل في التوفيق بين الكليات والجزئيات، هناك من يشتغل بالجزئيات، ويغفل عن الكليات وهناك العكس، وهناك من يشتغل ببعض الكليات، ويقلل من شأن الجزئيات، فإذا حُدِّث في بعض السنن يقول: والعياذ بالله: يا أخي هذه توافه، هذه قشور! وهذا خطر كبير على دين الإنسان؛ لأنه من الخطأ أن نستهين بأي أمر من الدين، ويجب أن نحترم كل ما جاء به النبي ﷺ، وليس في الدين شيء صغير، فالدين كله عظيم؛ لأنه من عند عظيم جل وعلا، وقد بلغه النبي ﷺ.

وسأضرب مثلًا للجمع بين هذه الأمور: أحد الدعاة منذ زمن ليس بالبعيد قال: إنني أهتم بالكليات، والقضايا الكبرى، على حين يهتم غيري بالجزئيات والقشور، ويقول: مثلًا: لما أنظر إلى شخصية عمر، أنظر فيها إلى شخصية عمر العادل، الذي نشر العدل بين الناس، أنظر فيها إلى شخصية عمر الخليفة الذي يتحمل المسؤولية حتى يقول: لو عثرت بغلة بالعراق لشعرت أن الله سائلني عنها: لم لم تسو لها الطريق يا عمر؟

ثم يقول هذا الداعية: في حين أنظر إلى غيري، فينظر إلى عمر الذي قصر ثوبه، وأطال لحيته، كل إنسان ينظر من زاوية معينة.

وأقول تعليقًا على هذا: لماذا شطرنا شخصية عمر إلى نصفين؟

لماذا جعلنا من عمر: عمرين؟!

عمر العادل، وعمر الملتزم بالسنة، وسلوك الإسلام في مظهره! هذا من الخطأ.

عمر نفسه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يكن يؤمن بهذه القسمة الثنائية، وفي هذا قصة طريفة ومناسبة أذكرها، وسندها صحيح: عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ، قَالَ: قَدِمْتُ

عَلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَعَلَيَّ خُفَّانِ فَقَالَ لِي: «**يَا عُقْبَةُ، مَتَى لَبِسْتَهُمَا؟**»، قُلْتُ: يَوْمَ الْجُمُعَةِ، قَالَ: «**وَالْيَوْمُ الْجُمُعَةُ؟**»، قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «**أَصَبْتَ**»[1][2].

إذًا: عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لم يكن يشغله الاهتمام بالأمور الكبرى مثل: إقرار شأن الإسلام، وتوسيع الفتوح، وإخضاع العالم لحكم الإسلام، لم يكن هذا الأمر يشغله عن قضية في نظر الناس: جزئية أو فرعية، وهي مسألة: المسح على الخفين، أو حكم يتعلق بها، وهو توقيت المسح، أو عدم توقيته، بطبيعة الحال إما أن يكون هذا رأيًا لعمر، أنه لا يرى التوقيت كما هو رأي جماعة من أهل العلم، أو يكون عمر يرى أنه يجوز ترك التوقيت في المسح على الخفين عند الحاجة إلى ذلك؛ حيث لا يتمكن الإنسان من النزول لخلع الخفين، وغسل قدميه.

هذه قضية فقهية، ليس المقصود أن نتحدث عنها -الآن- ولكن المهم: الفائدة.

والعبرة من هذه القصة: ألا نشطر شخصية عمر، بل ألا نشطر الإسلام إلى شطرين، فنجعل هناك فروعًا يهتم بها أناس، وأصولًا يهتم بها آخرون، أو كلياتٍ يهتم بها قوم، وجزئياتٍ يهتم بها آخرون، فنكون جعلنا القرآن عِضين، كلا! بل نحاول أن نأخذ ونحيط بالدين كله من جميع جوانبه؛ بحيث لا نترك مجالًا لأحد أن يتهمنا بأننا فرطنا في شيء، واهتممنا أو ضخمنا شيئًا على حساب شيء.

(١) أي: أصبت السنة.

(٢) المعجم الكبير للطبراني (١٧/ ٢٦٨).

قال تعالى: ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: ١٤][1]، وتحزبوا على جزءٍ من الدين، فتجد

(١) وهذه الآية الكريمة استنبط منها فضيلة الدكتور محمد النابلسي قانونًا أذكره هنا باختصارلأهميته قال: حفظه الله:

قانون العداوة والبغضاء:

١- معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية:

التفسير الأول للعداوة والبغضاء: أن معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية.

٢- آية قرآنية أصلٌ في موضوع العداوة والبغضاء:

وهى تنطبق على شخصين، على زوجين، على شريكين، على جارين، على زميلين، على قريبين، على أسرتين، على عائلتين، على قبيلتين، على عشيرتين، على شعبين، على أمتين، على حضارتين، فهي قانون.

قال تعالى: ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [المائدة: ١٤].

أسباب العداوة والبغضاء:

١- المعصية:

حينما تختلف مع إنسان، وحينما تنشأ بين إنسانين عداوة وبغضاء فاعلم علم اليقين أن هذه العداوة والبغضاء سببها المعصية.

يَقُولُ الرسول ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا تَوَادَّ اثْنَانِ فَفُرِّقَ بَيْنَهُمَا، إِلَّا بِذَنْبٍ يُحْدِثُهُ أَحَدُهُمَا**» مسند أحمد: (٩/ ٢٥٩).

لأن الآخرة تسع الجميع، ولأن فضل الله عميم، أما الدنيا فمحدودة في كل شيء، ولهذا يتنازع الناس عليها، ولا بد من سفك دماء، فالقضية واضحة جدًّا، الدنيا أحد أسباب العداوة والبغضاء، والآخرة أحد أسباب المودة واللقاء.

فهذه الآية تنطبق على كل شخصين، بل على كل أسرتين، على كل شعبين، على كل أمتين: ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [المائدة: ١٤].

- إذن في كل مصيبة ابحث عن المعصية، وفي كل معصية ابحث عن الجهل، والجهل أعدى أعداء الإنسان، والجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به. =

طائفة منهم يهتمون بالإسلام السياسي -فقط- ولا يعنيهم غيره، لا يعنيهم إصلاح العقائد، ولا يعنيهم تصحيح أخلاق الناس، ولا يعنيهم بناء شخصيات

= والشيطان لا يمل يوسوس للمؤمن بالكفر فلا يستطيع، يجده على إيمان، يوسوس له بالشرك فلا يستطيع، يجده على توحيد، يوسوس له بالكبيرة فلا يستطيع، يجده على طاعة، يوسوس له بالصغيرة فلا يستطيع، يجده على ورع، بقيت ورقتان، يوسوس له بالمباحات، حتى يغرق فيها، وينسى الآخرة، فإن رآه زاهدًا بقي فمعه آخر ورقة يلعب بها، هذه الورقة هي التحريش بين المؤمنين. ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩١]؟

٢- كثرة نقط الخلاف:

العداوة والبغضاء سببها نقاط الخلاف، والمودة والمحبة سببها نقاط اللقاء.

٣- فساد ذات البين:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِيَّاكُمْ وَسُوءَ ذَاتِ البَيْنِ فَإِنَّهَا الحَالِقَةُ**»: «وَمَعْنَى قَوْلِهِ «**وَسُوءَ ذَاتِ البَيْنِ**» إِنَّمَا يَعْنِي العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ، وَقَوْلُهُ: «**الحَالِقَةُ**» يَقُولُ: «**إِنَّهَا تَحْلِقُ الدِّينَ**» الترمذي: (٤/ ٦٦٣)، أحد أكبر أسباب الضعف سوء ذات البين؛ لذلك قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١].

معنى: إصلاح ذات البين:

أصلح ما بينك وبين الله بالتوبة والإنابة، وأصلح ما بينك وبين الآخرين بالتسامح والاعتذار والهدية والتوضيح والتبيين، وأصلح ما بين اثنين من باب العمل الصالح.

لذلك: المؤمن يصلح بين الناس، وغير المؤمن يفسد ما بينهم، أما غير المؤمن يشبه الشيطان: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ [المائدة: ٩١].

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ: الْحَسَدُ، وَالْبَغْضَاءُ، وَالْبَغْضَاءُ هِيَ: الْحَالِقَةُ، حَالِقَةُ الدِّينِ لَا حَالِقَةُ الشَّعَرِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَفَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِشَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ، أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ**» مسند أحمد: (٣/ ٢٩)

والمجتمعات الإسلامية حينما تتفلت من منهج الله تنشأ بينها العداوة والبغضاء؛ لذلك الأذكياء بينهم قواسمُ مشتركة ٥% فيتعاونون، والمسلمون بينهم ٩٥٪ قواسم مشتركة، والدماء تسيل كل يوم، وهذه وصمة عار بحق الأمة، نسأل الله أن يرد المسلمين إلى دينهم ردًّا جميلًا، وأن تكون بلادهم بلاد سلم ورخاء، إنه على ما يشاء قدير.

إسلامية، ولا يعنيهم نشر العلم الشرعي.

وآخرون تجد أنهم يهتمون بجانب من الإسلام، وهو: الجانب العلمي البحت، فيتعلمون، ويعلمون الناس السنة، وكيف يصلي، لكن لا يهتمون بما وراء ذلك، ولا يعنيهم أمر الدعوة إلى الله جل وعلا، وربما يهمل كثير منهم التعبد الحقيقي، والسلوك، والتنسك، فتجد الواحد منهم جاف القلب، خامد العاطفة، رديء الإحساس.

وتجد فئة ثالثة: يهتمون بالعبادة، وقيام الليل، وكثرة الأذكار، ولكنهم يهملون العلم الشرعي الصحيح، ويهملون النزول بالإسلام إلى واقع الحياة، وتحزبت كل طائفة على جزءٍ من الدين، فما هم عليه جزء من الحق، لكن ليس الحق كله، فمن العدل أن يأخذ الإنسان هذه الأشياء - كلها.

العدل مع الواقع:

من العدل: العدل مع الواقع، فلا يتجاهل الإنسان هذا الواقع، ويكون بعيدًا عنه، ولا يغرق فيه وينساق معه.

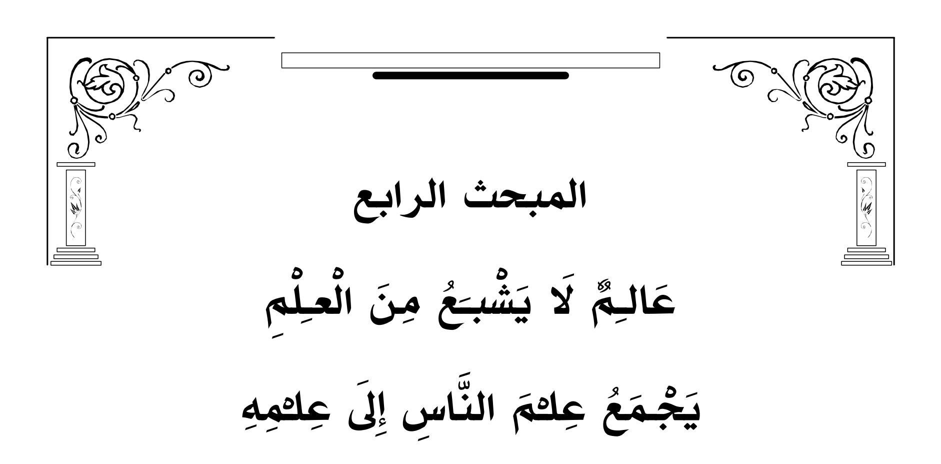
بعض المسلمين يعيش اليوم وكأنه يعيش في القرن الخامس أو السادس لا يدري ما يقع حوله، وهذا خطأ؛ لأن المسلم قيّم وشاهد على عصره، يدعو الناس في واقعه إلى الإسلام، ويُوجد الحلول الصحيحة لهم من واقع الكتاب والسنة.

الإسلام ليس دينًا للعزلة، فلا يجوز أن ينعزل المسلم - وخاصة الداعية- عن عصره وواقعه، كما أن هذا النزول إلى الواقع لا ينبغي أن يتحول إلى نوع من الانهزامية، والبحث عن مسوغات ومبررات، فمن العدل: أن نعرف الواقع ونحاكم هذا الواقع إلى الإسلام الصحيح.

من فوائد العدل

- الأمن لصاحبه في الدّنيا والآخرة.
- دوام الملك وعدم زواله.
- رضا الرّبّ قبل رضا الخلق عن العادل.
- سلامة الخلق من شرّه.
- أصحابه أهل للولاية والحكم والتّقدّم والرّفعة.
- الصّدع بالحقّ وعدم ممالأة الباطل.
- يسدّ مسدّ كثير من أعمال البرّ والطّاعة.
- عموم العدل في الإسلام؛ حتّى إنّه ليشمل الأبعدين - فضلا عن الأقربين - والكافرين مع المسلمين، ويشمل التّسوية حتّى مع أعضاء الإنسان نفسه.
- طريق موصل إلى الجنّة.





المبحث الرابع

عَالِمٌ لَا يَشْبَعُ مِنَ الْعِلْمِ يَجْمَعُ عِلْمَ النَّاسِ إِلَى عِلْمِهِ

السؤال الرابع، وهوقول موسى الكليم عليه السلام: فَأَيُّ عِبَادِكَ أَعْلَمُ؟ قَالَ: والجواب من الله الكريم: عَالِمٌ لَا يَشْبَعُ مِنَ الْعِلْمِ، يَجْمَعُ عِلْمَ النَّاسِ إِلَى عِلْمِهِ.

وانظرالإجابة: عَالِمٌ لَا يَشْبَعُ مِنَ الْعِلْمِ، يَجْمَعُ عِلْمَ النَّاسِ إِلَى عِلْمِهِ.

وانطلاقًا من هذا الجواب من الملك الوهاب نعيش مع العلم والعلماء في الصفحات التالية:

العلم لغة:

مصدر قولهم: علم يعلم علمًا، وهو مأخوذ من مادّة: (ع ل م) الّتي تدلّ على أثر بالشّيء يتميّز به عن غيره. قال الرّاغب: وعلّمته وأعلمته في الأصل واحد، إلّا أنّ الإعلام اختصّ بما كان بإخبار صحيح، والتّعليم اختصّ بما

يكون بتكرير وتكثير حتّى يحدث منه أثر في نفس المتعلّم، وقول الله تعالى ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]، ف﴿عَلِيمٌ﴾ يصحّ أن يكون إشارة إلى الإنسان العالم الّذي يكون فوق آخر، ويكون تخصيص لفظ العليم الّذي هو للمبالغة تنبيهًا إلى أنّه بالإضافة إلى الأوّل عليم وإن لم يكن بالإضافة إلى من فوقه كذلك، ويجوز أن يكون قوله: ﴿عَلِيمٌ﴾ عبارة عن الله تعالى، وقول الله تعالى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧] فيه إشارة إلى أنّ لله تعالى علمًا يخصّ به أولياءه. والعالم في وصف الله تعالى: هو الّذي لا يخفى عليه شيء(١).

وقال ابن منظور: العلم نقيض الجهل، وعلمت الشّيء أعلمه علمًا: عرفته. قال ابن برّيّ: وتقول: علم وفقه: أي: تعلّم وتفقّه، وعلم وفقه (بالضّمّ) أي: ساد العلماء والفقهاء، والعلّام والعلّامة: النّسّابة وهو من العلم. قال ابن جنّي: رجل علّامة، وامرأة علّامة، وفي حديث ابن مسعود: إنّك غليّم معلّم، أي: ملهم للصّواب والخير، وعلم بالشّيء: شعر. يقال: ما علمت بخبر قدومه: أي: ما شعرت. وعلم الأمر وتعلّمه: أتقنه. وعلم الرّجل: خبره، وأحبّ أن يعلمه أي: يخبره(٢).

واصطلاحًا:

قال الجرجانيّ: العلم هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع(٣).

وقال الفيروز اباديّ: العلم ضربان:

---

(١) المقاييس (٤/ ١٠٩)، والمفردات (٣٤٤).

(٢) لسان العرب (٥/ ٣٠٨٣- ٣٠٨٤)، وانظر: الصحاح للجوهري (٥/ ١٩٩٠- ١٩٩١).

(٣) التعريفات للجرجاني (١٩١).

الأوّل: إدراك ذات الشّيء.

والثّاني: الحكم على الشّيء بوجود شيء هو موجود له، أو نفي شيء هو منفيّ عنه، فالأوّل يتعدّى إلى مفعول واحد، والآخر يتعدّى إلى مفعولين، والعلم من وجه آخر ضربان: نظريّ وعمليّ، ومن وجه ثالث: عقليّ وسمعيّ[١].

وقال الكفويّ: المعنى الحقيقيّ للفظ العلم: هو: الإدراك، ولهذا المعنى متعلّق هو المعلوم، وله تابع في الحصول يكون وسيلة إليه في البقاء وهو الملكة، وقد أطلق لفظ العلم على كلّ منها إمّا حقيقة عرفيّة، أو اصطلاحيّة، أو مجازًا مشهورًا[٢]. وقال في موضع آخر: العلم يقال لحصول صورة الشّيء عند العقل وللاعتقاد الجازم الثّابت والإدراك الكلّيّ والإدراك المركّب[٣].

وقال المناويّ: العلم: هو صفة توجب تمييزًا لا يحتمل النّقيض، أو هو حصول صورة الشّيء في العقل[٤].

قال ابن العربيّ: العلم أبين من أن يبيّن، وأنكر على من تصدّى لتعريف العلم[٥].

وقال أبو حامد الغزاليّ - رحمه الله تعالى: العلم هو معرفة الشّيء على ما

(١) انظر تفاصيل ذلك في: بصائر ذوي التمييز (٨٨) وما بعدها، والمفردات للراغب (٣٤٣).
(٢) الكليات للكفوي (٦١١).
(٣) المرجع السابق (٦٨٦).
(٤) التوقيف (٢٤٦) وفيه تفصيلات عديدة ليس هنا محل ذكرها.
(٥) الفتح (١/ ١٤١).

هو به[١].

الفرق بين العلم والمعرفة:

المعرفة: تقال للإدراك المسبوق بالعدم، ولثاني الإدراكين إذا تخلّلهما عدم. والإدراك الجزئيّ. والإدراك البسيط.

والعلم: يقال لحصول صورة الشّيء عند العقل، وللاعتقاد الجازم المطابق الثّابت ولإدراك الكلّيّ، ولإدراك المركّب.

والمعرفة قد تقال فيما تدرك آثاره، وإن لم تدرك ذاته.

والعلم لا يقال إلّا فيما أدرك ذاته.

والمعرفة تقال فيما لا يعرف إلّا كونه موجودًا فقط.

والعلم أصله أن يقال فيما يعرف وجوده وجنسه وكيفيّته وعلّته.

والمعرفة تقال فيما يتوصّل إليه بتفكّر وتدبّر.

والعلم قد يقال في ذلك وفي غيره[٢].

وأيضًا يستعمل العلم في المحلّ الّذي يحصّل العلم فيه لا بواسطة الكسب؛ ولهذا يقال: (الله عالم) ولا يقال: (عارف)، كما لا يقال: (عاقل) فكذا الدّراية فإنّها لا تطلق على الله لما فيها من معنى الحيلة.

وفي «النّجاة»: كلّ معرفة وعلم فإمّا تصوّر وإمّا تصديق[٣].

---

(١) الإحياء (٢٩٨).

(٢) الكليات (٨٦٨).

(٣) المرجع السابق (٦١١).

أقسام العلم:

قال ابن الجوزيّ رحمه الله تعالى في بيان العلم الّذي هو فريضة على كلّ مسلم: اختلفت عبارات النّاس في بيان العلم المفروض، والصّحيح أن يقال: هو علم معاملة العبد لربّه؛ وهو يدخل في باب الاعتقاد والأفعال. **وهذا العلم المفروض ينقسم إلى قسمين:**

فرض عين: وهو ما يتعيّن وجوبه على الشّخص من توحيد الله ومعرفة أوامره وحدوده في العبادات والمعاملات الّتي يحتاج إليها.

وفرض كفاية: وهو كلّ علم لا يستغنى عنه في قوام الدّنيا؛ كالطّبّ والحساب وأصول الصّناعات؛ كالفلاحة والحياكة والحجامة. فلو خلا البلد عمّن يقوم بهذه العلوم والصّناعات أَثِمَ أهل البلد جميعًا.

وإذا قام بها واحد - فقط - وكفاهم سقط الإثم عن الباقين، والتّعمّق في مثل هذه العلوم يعدّ فضلة؛ لأنّه يستغنى عنه.

ومن العلوم ما يكون مباحًا؛ كالعلم بالأشعار الّتي لا سخف فيها، ومنها ما يكون مذمومًا؛ كعلم السّحر والطّلسمات والتّلبيسات. وأمّا العلوم الشّرعيّة فكلّها محمودة، وتنقسم إلى أصول وفروع ومقدّمات ومتمّمات[(١)].

فضل العلم:

قال ابن القيّم: العلم هادٍ.

وهو تركة الأنبياء وتراثهم.

وأهله: عصبتهم وورّاثهم؛ وهو حياة القلوب، ونور البصائر، وشفاء

(١) مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة (بتصرف شديد واختصار ١٥- ١٧).

الصّدور، ورياض العقول، ولذّة الأرواح، وأُنْس المستوحشين، ودليل المتحيّرين، وهو الميزان الّذي به توزن الأقوال والأعمال والأحوال.

وهو الحاكم المفرّق بين الشّكّ واليقين، والغيّ والرّشاد، والهدى والضّلال. به يُعْرف الله ويعبد، ويذكر ويوحّد، ويحمد ويمجّد، وبه اهتدى إليه السّالكون.

ومن طريقه وصل إليه الواصلون.

ومنه دخل عليه القاصدون.

وبه تعرف الشّرائع والأحكام، ويتميّز الحلال والحرام.

وبه توصل الأرحام، وبه تعرف مراضي الحبيب، وبمعرفتها ومتابعتها يوصل إليه من قريب.

وهو إمام، والعمل مأموم.

وهو قائد، والعمل تابع.

وهو الصّاحب في الغربة، والمحدّث في الخلوة، والأنيس في الوحشة، والكاشف عن الشّبهة، والغِنَى الّذي لا فقر على من ظفر بكنزه.

والكنف الّذي لا ضيعة على من أوى إلى حرزه.

مذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد.

وطلبه قربة.

وبذله صدقة.

ومدارسته تعدل بالصّيام والقيام.

والحاجة إليه أعظم منها إلى الشّراب والطّعام(١).

العلم النافع:

قال ابن رجب الحنبليّ- رحمه الله تعالى-: قد ذكر الله تعالى في كتابه العلم تارة في مقام المدح، وهو العلم النّافع، وذكر العلم تارة في مقام الذّمّ، وهو العلم الّذي لا ينفع؛ فأمّا الأوّل فمثل قوله - تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وقوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]، وقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، وقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]. وغير ذلك من الآيات.

هذا وقد يكون العلم في نفسه نافعًا لكن صاحبه لم ينتفع به، كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥]، وقال سبحانه: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ...﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦]، وقال أيضًا: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣](٢).

ضابط العلم النافع:

والعلم النّافع هو ما كان ضبط نصوص الكتاب والسّنّة، وفهم معانيها والتّقيّد في ذلك بالمأثور عن الصّحابة والتّابعين وتابعيهم في معاني القرآن والحديث وفيما ورد عنهم من الكلام من مسائل الحلال والحرام والزّهد والرّقائق والمعارف وغير ذلك.

والاجتهاد على تمييز صحيحه من سقيمه أوّلًا، ثمّ الاجتهاد على معرفة

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٦٩- ٤٧٠).

(٢) فضل علم السلف على الخلف (١٢٥- ١٢٦) بتصرف واختصار.

معانيه وتفهّمه ثانيًا.

وهذا العلم النّافع يدلّ على أمرين:

أحدهما: معرفة الله وما يستحقّه من الأسماء الحسنى والصّفات العلا والأفعال الباهرة، وذلك يستلزم إجلاله وإعظامه، وخشيته ومهابته، ومحبّته ورجاءه، والتّوكّل عليه والرّضا بقضائه والصّبر على بلائه.

والأمر الثّاني: المعرفة بما يحبّه ويرضاه، وما يكرهه ويسخطه من الاعتقادات، والأعمال الظّاهرة والباطنة والأقوال[1].

فضل العلم والعلماء[2]:

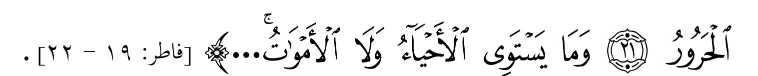
القرآن الكريم أعظم كتاب أشاد بالعلم وأهله، ورفع قدر «أولي العلم» و«العالمين»، ونوه بمكانة «الذين أوتوا العلم»، كما بين أنه أنزل كتابه وفصّل آياته (لقوم يعلمون)، كما بثّ آياته في الآفاق وفي الأنفس لهؤلاء الذين يعلمون.

يقول تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ [آل عمران: ١٨]، فانظر كيف بدأ الله تعالى بنفسه، وثنى بملائكته، وثلّث بأولي العلم، واستشهد بهم على أعظم قضايا الوجود، وهي قضية الوحدانية.

وقال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ [الزمر: ٩]، وهو استفهام إنكاري معناه: نفي التسوية بين أهل العلم وأهل الجهل، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا

(١) فضل علم السلف على الخلف لابن رجب (١٥٠، ١٥١) باختصار.

(٢) انظر: الحياة الربانية والعلم (١٣٣) ومابعدها.


ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ...﴾ [فاطر: ١٩ - ٢٢].

منزلة العلم في حياة الأنبياء:

من قرأ قصص الأنبياء في القرآن وجد أن للعلم مكانًا في كل منها، وأن العلم كان وراء كل خير أو فضل أحرزه واحد منهم.

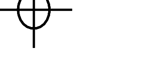
فآدم عليه السلام - **أبو البشر** - إنما فضله الله على الملائكة، وأظهر تفوقه عليهم، وأنه المرشح الصالح للخلافة في الأرض؛ بسبب «العلم» الذي علمه الله إياه، ولم يعلمه للملائكة؛ ولهذا لما سألهم عن أسماء الأشياء - والسؤال عن الاسم يتضمن السؤال عن المسمى وخواصه - قالوا: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ﴾ [البقرة: ٣٢، ٣٣].

وكذلك استطاع آدم أن يتطهر من ذنبه - حين أكل من الشجرة المنهي عنها - بما تعلمه من الكلمات التي تلقاها من ربه: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: ٣٧].

ونوح - شيخ المرسلين - نجد أثر العلم في حسن دعوته لقومه، وجداله لهم حتى أفحمهم. وقالوا كما حكى القرآن: ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [هود: ٣٢ - ٣٤].

وإبراهيم - خليل الرحمن - آتاه الله الحجة، فحاج نمروذًا فأسكته، وحاج قومه فغلبهم، وقال لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾ [مريم: ٤٣].

وقال تعالى في شأنه: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ



مَّن نَّشَآءُ...﴾ [الأنعام: ٨٣].

ويوسف لما بلغ أشده آتاه الله حكمًا وعلمًا، وعلمه من تأويل الأحاديث تعبير الرؤى، وكان هذا العلم سببًا في إخراجه من السجن، وكذلك كان العلم مؤهلًا لتوليه خزائن الأرض: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف: ٥٥]؛ فالحفظ يمثل العنصر الأخلاقي، والعلم يمثل العنصر المعرفي، وكلاهما يكمل الآخر، وكلاهما ضروري لكل من يتولى منصبًا قياديًّا.

ولقد برز يوسف في علم التخطيط الزراعي والاقتصادي في أيام الأزمات والمجاعات، ووضع خطة لخمسة عشر عامًا، وتولى هو الإشراف على تنفيذها بنفسه، فأنقذ الله به مصر وما حولها من محنة كادت تودي بها.

وقال الله في شأن موسى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [القصص: ١٤].

ولما أعلم الله موسى أن هناك رجلًا عنده من العلم ما ليس عنده، سافر إليه سفرًا طويلًا لقي فيه النَّصَب والعناء، وطلب منه أن يصحبه، بل أن يتبعه ليتعلم منه مما علمه الله؛ وهو موسى الذي اصطفاه الله برسالاته وبكلامه، فاشترط عليه أن يصبر على ما يراه منه، ولا يبادره بالسؤال حتى يبين هو له، وقبل موسى هذا الشرط: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾ [الكهف: ٦٦ - ٧٠].

وفي قصة داود وسليمان قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ

لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ...﴾ [النمل: ١٥، ١٦].

فالجهل بمثابة العمى، والعلم بمثابة البصر، والجهل كالظُّلْمة، والعلم كالنور، والجهل حرارة قاتلة، والعلم ظل ظليل، والجهل موت، والعلم حياة، ولا يمكن أن يستوي الضدان في هذا كله.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، أي: لا يخشى الله إلا العلماء الذين يعرفون مقامه، ويقدرونه حق قدره، والعلم الحقيقي هو الذي يورث الخشية.

وقد جاءت هذه الآية - أو هذا الجزء من الآية - بعد أن ذكر الله - سبحانه - بعض آياته في خلقه: في السماء والماء والنبات والجبال، ومن الناس والدواب والأنعام، مما يوحي بأن العلماء المذكورين هم علماء الطبيعة والكون والأرض والنبات والإنسان والحيوان. اقرأ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الروم: ٢٢].

والأوفق بـ «العالمين» هنا: أنهم العلماء بالظواهر الكونية في الفلك وفي الأرض، والعلماء باختلاف الألسنة والألوان، أي: علماء الكون، وعلماء الإنسان.

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ

فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [الأنعام: ٩٧].

فالأقرب أن القوم الذين يعلمون هنا: هم علماء الفلك والطبيعة الجوية، فهم أقدر الناس على معرفة أسرار الله تعالى واكتشاف سننه في جعل النجوم للاهتداء.

ومن هنا نرى أن العلم الذي أشاد به القرآن ليس مقصورًا على علم الدين وحده، وإن كان علم الدين له الصدارة والأولوية؛ لأنه العلم الذي يتعلق بالمقاصد والغايات، وعلوم الدنيا تتعلق بالوسائل والآلات؛ ولكنها مهمة أيضًا لنماء الحياة وبقائها كما يريد الله تعالى.

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

ونجد علم سليمان يتجلى في فهم كلام النملة مع النمل، وفي كلام الهدهد الذي أدل عليه بالعلم، وقال له: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ [النمل: ٢٢].

وفي قصة سليمان مع ملكة سبأ، نجد أن الذي أحضر عرشها من اليمن إلى الشام قبل أن يرتد إليه طرفه إنما هو: ﴿ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [النمل: ٤٠].

كما امتنَ الله على داود بتعليمه صناعة الدروع: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

وفي قصة طالوت بين الله تعالى أنه اختاره لزعامة القوم وقيادتهم بسبب مؤهلاته العلمية والمادية: ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

وقال عن المسيح عيسى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [آل عمران: ٤٨].

وقال عن خاتم رسله محمد ﷺ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾ [النساء: ١١٣].



السنة والعلم:

جاءت الأحاديث النبوية فأكدت ما جاء في القرآن من فضل العلم، ومنزلة العلماء؛ ومن ذلك ما رواه معاوية قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»[١].

- وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ**»[٢].

- وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»[٣].

فمن خصائص العلم: أن نفعه مستمر، وأن أجره دائم، وأنه باقٍ للإنسان حتى بعد موته.

قَالَ الْحَافِظ المنذري: «وناسخ الْعلم النافع لَهُ أجره وأجر من قَرَأَهُ أَو نسخه أَو عمل بِهِ من بعده مَا بَقِي خطه وَالْعَمَل بِهِ لهَذَا الحَدِيث وَأَمْثَاله، وناسخ غير النافع مِمَّا يُوجب الْإِثْم عَلَيْهِ وزره ووزر من قَرَأَهُ أَو نسخه أَو عمل بِهِ من بعده مَا بَقِي خطه وَالْعَمَل بِهِ لما تقدم من الْأَحَادِيث: من سنّ سنة حَسَنَة أَو سَيِّئَة وَالله أعلم[٤].

(١) صحيح البخاري (٧١).
(٢) سنن الترمذي (٤/ ٣٢٥). وانظر: صحيح الجامع (٦٢٩٨).
(٣) صحيح مسلم (٣/ ١٢٥٥).
(٤) الترغيب والترهيب للمنذري (١/ ٦٢).

- عَنْ كَثِيرِ بْنِ قَيْسٍ، قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا مَعَ أَبِي الدَّرْدَاءِ - فِي مَسْجِدِ دِمَشْقَ فَجَاءَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ: إِنِّي جِئْتُكَ مِنْ مَدِينَةِ الرَّسُولِ ﷺ لِحَدِيثٍ بَلَغَنِي أَنَّكَ تُحَدِّثُهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، مَا جِئْتُ لِحَاجَةٍ، قَالَ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا، وَلَا دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**»(١).

قال المناوي: واعلم أنه كما لا رتبة فوق رتبة النبوة؛ فلا شرف فوق شرف وارث تلك الرتبة(٢).

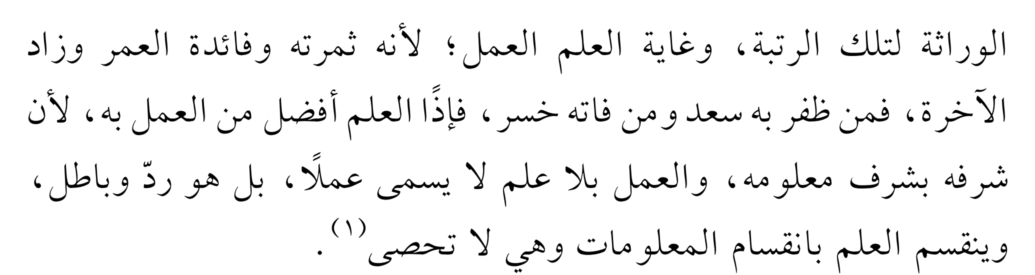
قال الإمام الغزالي: وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا رُتْبَةَ فَوْقَ النُّبُوَّةِ وَلَا شَرَفَ فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة!(٣).

ويعلق على استغفار من في السموات ومن في الأرض للعالم فيقول: «وأي منصب يزيد على منصب من تشتغل ملائكة السموات والأرض بالاستغفار له(٤)؟!

فهو مشغول بنفسه (أي بعلمه)، وهم مشغولون بالاستغفار له!».

وقال القسطلاني: وإذا كان لا رتبة فوق النبوّة، فلا شرف فوق شرف

(١) سنن أبي داود (٣/ ٣١٧).
(٢) فيض القدير (٤/ ٣٨٤).
(٣) إحياء علوم الدين (١/ ٥).
(٤) المصدر السابق.



الوراثة لتلك الرتبة، وغاية العلم العمل؛ لأنه ثمرته وفائدة العمر وزاد الآخرة، فمن ظفر به سعد ومن فاته خسر، فإذًا العلم أفضل من العمل به، لأن شرفه بشرف معلومه، والعمل بلا علم لا يسمى عملاً، بل هو ردّ وباطل، وينقسم العلم بانقسام المعلومات وهي لا تحصى[(١)].

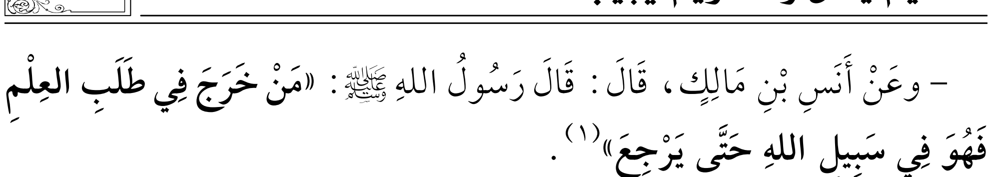
- وعَنْ زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ، قَالَ: أَتَيْتُ صَفْوَانَ بْنَ عَسَّالٍ الْمُرَادِيَّ، فَقَالَ: مَا جَاءَ بِكَ؟ قُلْتُ: أُنْبِطُ الْعِلْمَ[(٢)]. قَالَ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَا مِنْ خَارِجٍ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ، إِلَّا وَضَعَتْ لَهُ الْمَلَائِكَةُ أَجْنِحَتَهَا؛ رِضًا بِمَا يَصْنَعُ**»[(٣)].

- وعن أَبي هُرَيْرَةَ، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا ذِكْرُ اللهِ وَمَا وَالَاهُ وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ**»[(٤)].

والمراد بلعن الدنيا: ذمها، وهي ليست مذمومة لذاتها؛ فإنها مزرعة الآخرة، وهي دار الإيمان والعبادة والجهاد في سبيل الله، وإنما تذم من حيث إنها دار للكفر والشر وعبادة الطاغوت، ومن حيث إنها تشغل عن الله تعالى وعن الدار الآخرة؛ ولهذا استثنى الحديث من الذم كل ما يذكّر الإنسان بربه، ويصله بحبله، من ذكر الله، وما يحبه ويرضاه، من العلم النافع والعمل الصالح، والمقصود بالعالم والمتعلم: من يجمع بين العلم والعمل، فيخرج الجهلاء الذين لا يعلمون، والذين يعلمون ولا يعملون[(٥)].

---

(١) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (١/ ١٥٣).
(٢) أطلبه وأستخرجه.
(٣) سنن ابن ماجه (١/ ١٥٣). وانظر: صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢٥٧٠).
(٤) سنن الترمذي (٢٣٢٢). وانظر: صحيح الجامع الصغير وزيادته (١٦٠٩).
(٥) الحياة الربانية والعلم (ص: ١٣٩).



- وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ خَرَجَ فِي طَلَبِ العِلْمِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ حَتَّى يَرْجِعَ**»(١).

والمراد بسبيل الله: هو الجهاد.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ جَاءَ مَسْجِدِي هَذَا، لَمْ يَأْتِهِ إِلَّا لِخَيْرٍ يَتَعَلَّمُهُ أَوْ يُعَلِّمُهُ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**(٢)، **وَمَنْ جَاءَ لِغَيْرِ ذَلِكَ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الرَّجُلِ يَنْظُرُ إِلَى مَتَاعِ غَيْرِهِ**»(٣).

كما حثت الأحاديث النبوية على إكرام أهل العلم وإعطائهم حقهم من الإجلال والتوقير، وحذرت من إضاعتهم وعدم المبالاة بهم.

- فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَجْمَعُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ مِنْ قَتْلَى أُحُدٍ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ يَقُولُ: «**أَيُّهُمْ أَكْثَرُ أَخْذًا لِلْقُرْآنِ**»، فَإِذَا أُشِيرَ لَهُ إِلَى أَحَدِهِمَا قَدَّمَهُ فِي اللَّحْدِ، وَقَالَ: «**أَنَا شَهِيدٌ عَلَى هَؤُلَاءِ يَوْمَ القِيَامَةِ**»، وَأَمَرَ بِدَفْنِهِمْ فِي دِمَائِهِمْ، وَلَمْ يُغَسَّلُوا، وَلَمْ يُصَلَّ عَلَيْهِمْ(٤).

- وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبِيرَنَا، وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفْ لِعَالِمِنَا حَقَّهُ**»(٥).

مكانة العلم لدى سلف الأمة:

- قال المسيح عليه السلام: من تعلّم وعلم وعمل فذاك يُدْعَى عظيمًا في ملكوت

(١) سنن الترمذي (٢٦٤٧). وانظر: ضعيف الجامع الصغير وزيادته (٥٥٧٠).
(٢) لأن كلًّا من المتعلم والمجاهد يعمل لتكون كلمة الله هي العليا، هذا بقلمه، وهذا بسيفه.
(٣) سنن ابن ماجه (٢٢٧). وانظر: صحيح الجامع الصغير وزيادته (٦١٨٤).
(٤) صحيح البخاري (١٣٤٣).
(٥) مسند أحمد ط الرسالة (٢٢٧٥٥). ومكارم الأخلاق للطبراني (ص: ٣٦٧). وانظر: صحيح الجامع الصغير وزيادته (٥٤٤٣).

السّماء[١].

- وقال أيضًا عليه السلام: لا تمنع العلم من أهله فتأثم، ولا تنشره عند غير أهله فتجهل، وكن طبيبًا رفيقًا يضع دواءه حيث يعلم أنّه ينفع[٢].

- قال لقمان لابنه: يا بنيّ لا تعلّم[٣] العلم لتباهي به العلماء أو لتماري به السّفهاء، أو ترائي به في المجالس، ولا تترك العلم زهدًا فيه ورغبة في الجهالة. يا بنيّ، اختر المجالس على عينك، وإذا رأيت قومًا يذكرون الله فاجلس معهم، فإنّك إن تكن عالمًا ينفعك علمك، وإن تكن جاهلًا يعلّموك، ولعلّ الله أن يطّلع عليهم برحمة فيصيبك بها معهم، وإذا رأيت قومًا لا يذكرون الله فلا تجلس معهم، فإنّك إن تكن عالمًا لا ينفعك علمك، وإن تكن جاهلا زادوك غيًّا أو عيًّا[٤]، ولعلّ الله يطّلع عليهم بعذاب فيصيبك معهم[٥].

- قال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه: تعلّموا العلم، وعلّموه النّاس وتعلّموا له الوقار والسّكينة، وتواضعوا لمن تعلّمتم منه ولمن علّمتموه، ولا تكونوا جبابرة العلماء فلا يقوم جهلكم بعلمكم[٦].

- قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه لرجل من أصحابه: يا كميل: العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم حاكم والمال محكوم

(١) العلم لزهير بن حرب (٧).
(٢) الدارمي (١/ ١١٧) برقم (٣٧٩).
(٣) لا تعلّم: أي: لا تتعلم، فحذفت إحدى التاءين تخفيفًا.
(٤) الغي: الضلال، والعي: العجز.
(٥) الدارمي (١/ ١١٧) برقم (٣٧٧).
(٦) جامع بيان العلم وفضله (١/ ١٣٥).



عليه، والمال تنقصه النّفقة، والعلم يزكو بالإنفاق[١].

- وقال رضي الله عنه: لا يؤخذ على الجاهل عهد بطلب العلم حتّى أخذ على العلماء عهد ببذل العلم للجهّال؛ لأنّ العلم كان قبل الجهل به[٢].

- وقال أيضًا رضي الله عنه: العالم أفضل من الصّائم القائم المجاهد، وإذا مات العالم ثلم من الإسلام ثلمة لا يسدّها إلّا خلف منه[٣].

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ما من أصحاب النّبيّ ﷺ أحد أكثر حديثًا عنه منّي، إلّا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنّه كان يكتب ولا أكتب[٤].

- قال سلمان رضي الله عنه: علم لا يقال به، ككنز لا ينفق منه[٥].

- قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: اغد عالمًا أو متعلّمًا، ولا تغد بين ذلك[٦].

- وقال أيضًا رضي الله عنه: يا أيّها النّاس تعلّموا، فمن علم فليعمل[٧].

- وقال أيضًا رضي الله عنه: إنّ من العلم أن يقول الّذي لا يعلم: الله أعلم[٨].

- وقال رضي الله عنه: إنّ أحدًا لا يولد عالمًا، والعلم بالتّعلّم[٩].

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (١/ ١٧، ١٨).

(٢) جامع بيان العلم وفضله (١/ ١٢٣).

(٣) فهارس لسان العرب (١/ ٣٢٠).

(٤) البخاري - الفتح ١ (١١٣).

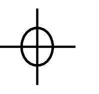
(٥) العلم لزهير بن حرب (٨).

(٦) كتاب العلم لأبي خيثمة زهير بن حرب (٦).

(٧) المصدر السابق (٧).

(٨) المصدر نفسه (١٥).

(٩) كتاب العلم لأبي خيثمة زهير بن حرب (٢٨).



- وقال أيضًا: إنّي لأحسب الرّجل ينسى العلم كان يعلمه بالخطيئة يعملها(١).

- وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجل فقال: تركت في المسجد رجلًا يفسّر القرآن برأيه، يفسّر هذه الآية: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ١٠﴾ [الدخان: ١٠] قال: يأتي النّاس يوم القيامة دخان فيأخذ بأنفاسهم. حتّى يأخذهم منه كهيئة الزّكام. فقال عبد الله: من علم علمًا فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، فإنّ من فقه الرّجل أن يقول لما لا علم له به: الله أعلم. إنّما كان هذا؛ أنّ قريشًا لمّا استعصت على النّبيّ ﷺ، دعا عليهم بسنين كسني يوسف. فأصابهم قحط وجهد، حتّى جعل الرّجل ينظر إلى السّماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدّخان من الجهد. وحتّى أكلوا العظام.

فأتى النّبيَّ ﷺ رجلٌ فقال: يا رسول الله، استغفر الله لمضر، فإنّهم قد هلكوا. فقال: «**لمضر؟! إنّك لجريء**» قال: فدعا الله لهم. فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ﴾ [الدخان: ١٥].

قال: فمطروا. فلمّا أصابتهم الرّفاهية، قال: عادوا إلى ما كانوا عليه. قال فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١﴾ [الدخان: ١٠، ١١]، ﴿يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ١٦﴾ [الدخان: ١٦](٢) قال: يعني يوم بدر.

- وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا يزال النّاس بخير ما أتاهم العلم من أصحاب رسول الله ﷺ ومن أكابرهم، فإذا جاء العلم من قبل أصاغرهم فذلك حين هلكوا(٣).

---

(١) المصدر السابق (٣١).

(٢) البخاري- الفتح ٨ (٤٧٧٤)، ومسلم (٢٧٩٨) واللفظ له.

(٣) جامع بيان العلم وفضله (١/ ١٥٩).

- قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: تعلّموا العلم فإنّ تعلّمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة؛ لأنّه معالم الحلال والحرام، والأنيس في الوحشة، والصّاحب في الخلوة، والدّليل على السّرّاء والضّرّاء، والزّين عند الأخلاق، والقرب عند الغرباء.

يرفع الله به أقوامًا فيجعلهم في الخلق قادة يقتدى بهم، وأئمّة في الخلق تقتفى آثارهم، وينتهى إلى رأيهم، وترغب الملائكة في حبّهم بأجنحتها تمسحهم، حتّى كلّ رطب ويابس لهم مستغفر. حتّى حيتان البحر وهوامّه وسباع البرّ وأنعامه والسّماء ونجومها؛ لأنّ العلم حياة القلوب من العمى، ونور الأبصار من الظّلم، وقوّة الأبدان من الضّعف.

يبلغ به العبد منازل الأحرار، ومجالسة الملوك، والدّرجات العلى في الدّنيا والآخرة، والفكر به يعدل بالصّيام، ومدارسته بالقيام، به يطاع الله عز وجل وبه يعبد الله عز وجل، وبه توصل الأرحام وبه يعرف الحلال من الحرام، إمام العمل والعمل تابعه، يلهمه السّعداء، ويحرمه الأشقياء[(١)].

- وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه لمّا حضرته الوفاة: «إنّ العلم والإيمان مكانهما، من التمسهما وجدهما - قال ذلك ثلاث مرّات - والتمسوا العلم عند أربعة رهط: عند عويمر أبي الدّرداء، وعند سلمان الفارسيّ، وعند عبد الله بن مسعود، وعند عبد الله بن سلام، فإنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**إنّه عاشر عشرة في الجنّة**»[(٢)].

---

(١) أخلاق العلماء، للآجري (٣٤، ٣٥).

(٢) الحاكم (١/ ٩٨) وقال: صحيح على شرط الشيخين وأقره الذهبي. ورد هذا الأثر شرحًا لحديث النبي صلى الله عليه وسلم: «**إنه عاشر عشرة في الجنة**».

- قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: أتدرون ما ذَهاب العلم من الأرض؟ قال: قلنا: لا، قال: أن يذهب العلماء[١].

- قال عبد الله بن الشّخّير رضي الله عنه: فضل العلم أحبّ إليّ من فضل العبادة، وخير دينكم الورع[٢].

- قال أبو الدّرداء رضي الله عنه: إنّما أخشى من ربّي يوم القيامة أن يدعوني على رؤوس الخلائق، فيقول لي: يا عويمر، فأقول: لبّيك ربّي، فيقول لي: ما عملت فيما علمت؟[٣].

- وقال رضي الله عنه: العلم بالتّعلّم، والحلم بالتّحلّم، ومن يتحرّ الخير يعطه، ومن يتوقّ الشّرّ يوقه[٤].

- وقال أيضًا: العالم والمتعلّم في الأجر سواء، وسائر النّاس همج لا خير فيهم[٥].

- قال أبو الدّرداء رضي الله عنه: «مثل العلماء في النّاس كمثل النّجوم في السّماء يهتدى بها[٦].

- قال الحسن البصريّ رحمه الله تعالى: لقد طلب أقوام العلم ما أرادوا به الله ولا ما عنده. قال: فما زال بهم العلم حتّى أرادوا به الله وما عنده[٧].

---

(١) العلم لزهير بن حرب (١٦).
(٢) المصدر السابق (٩).
(٣) شعب الإيمان للبيهقي (٢/ ٢٩٩) برقم (١٨٥٢).
(٤) العلم لزهير بن حرب (٢٨).
(٥) أخلاق العلماء للآجري (٤٢).
(٦) أخلاق العلماء (٢٩).
(٧) سنن الدارمي (١/ ١١٤).

- وعنه رحمه الله تعالى، قال: قد كان الرّجل يطلب العلم فلا يلبث أن يرى ذلك في تخشّعه، وهديه، ولسانه، وبصره، ويديه[١].

- وقال: أفضل العلم الورع والتّفكّر[٢].

- وقال: الفقيه: العالم في دينه، الزّاهد في دنياه، الدّائم على عبادة ربّه[٣].

- وقال أيضًا: العامل على غير علم كالسّالك على غير طريق، والعامل على غير علم يفسد أكثر ممّا يصلح، فاطلبوا العلم طلبًا لا تضرّوا بالعبادة، واطلبوا العبادة طلبًا لا تضرّوا بالعلم، فإنّ قومًا طلبوا العبادة وتركوا العلم حتّى خرجوا بأسيافهم على أمّة محمّد ﷺ، ولو طلبوا العلم لم يدلّهم على ما فعلوا[٤].

- قال مجاهد بن جبر رحمه الله تعالى: لا يتعلّم العلم مستحٍ ولا مستكبر[٥].

- قال عطاء بن يسار رحمه الله تعالى: ما أوتي شيء إلى شيء أزين من حلم إلى علم[٦].

- قال مسروق رحمه الله تعالى: بحسب الرّجل من العلم أن يخشى الله

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي (٨/ ٤٢٧) وقال مخرجه: رجاله ثقات. والآداب الشرعية (٢/ ٤٥).

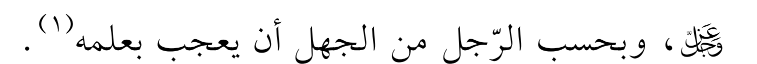
(٢) العلم لزهير بن حرب (٢٩).

(٣) الشعب للبيهقي (٧/ ٤٣٨).

(٤) جامع بيان العلم لابن عبد البر (١/ ١٣٦).

(٥) الفتح (١/ ٢٢٨).

(٦) العلم لزهير بن حرب (٢١).


ﷻ ، وبحسب الرّجل من الجهل أن يعجب بعلمه[١] .

- قال عبد الله بن عون رحمه الله تعالى : ثلاث أحبّهنّ لنفسي ولإخواني : هذه السّنّة أن يتعلّموها ويسألوا عنها ، والقرآن أن يتفهّموه ويسألوا النّاس عنه ، ويدعوا النّاس إلّا من خير[٢] .

- وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله كثيرًا ما يتمثّل بهذه الأبيات :

يرى مستكينًا وهو للهو ماقت[٣] ... به عن حديث القوم ما هو شاغله

وأزعجه علم عن الجهل كلّه ... وما عالم شيئًا كمن هو جاهله

عبوس عن الجهّال حين يراهم ... فليس له منهم خدين[٤] يهازله

يذكّر ما يبقى من العيش آجلا ... فيشغله عن عاجل العيش آجله»[٥]

- قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى في كتابه إلى أبي بكر بن حزم : انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه ، فإنّي خفت دروس العلم[٦] وذَهاب العلماء . ولا تقبل إلّا حديث النّبيّ ﷺ . ولتفشوا العلم ، ولتجلسوا حتّى يعلم من لا يعلم ؛ فإنّ العلم لا يهلك حتّى يكون سرًّا[٧] .

- قال عون بن عبد الله : قلت لعمر بن عبد العزيز : يقال : إن استطعت أن تكون عالمًا فكن عالمًا ، فإن لم تستطع فكن متعلّمًا ، فإن لم تكن متعلّمًا

(١) المرجع السابق (٩) .

(٢) البخاري- الفتح (١/ ٢٤٨) .

(٣) للهو ماقت : اللهو ما يلهي المرء عن الشيء النافع . ماقت : كاره . أزعجه علم . . . إلخ : أبعده عنه بشدة .

(٤) الخدين : الجليس والصاحب . يهازله : يشاركه في الهزل .

(٥) جامع بيان العلم وفضله (١/ ١٣٧) .

(٦) دروس العلم : فناؤه وذهابه .

(٧) فتح الباري (١/ ١٩٤) .

فأحبّهم، فإن لم تحبّهم فلا تبغضهم. فقال عمر: سبحان الله!! لقد جعل الله ﷻ له مخرجًا[١].

- قال مالك رحمه الله تعالى: المراء في العلم يقسّي القلب، ويورث الضّغن[٢].

- وقال أيضًا رحمه الله تعالى: إذا علمت علمًا فلير عليك أثره وسمته[٣] وسكينته ووقاره وحلمه، وقال: إنّ العلماء لم يكونوا يهذرون الكلام هكذا، ومن النّاس من يتكلّم كلام شهر في ساعة واحدة[٤].

- قال فضيل بن غزوان رحمه الله تعالى: كنّا نجلس أنا وابن شبرمة والحارث العكليّ والمغيرة والقعقاع بن يزيد باللّيل نتذاكر الفقه، فربّما لم نقم حتّى نسمع النّداء لصلاة الفجر[٥].

- قال الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى: «من أوتي علمًا لا يزداد فيه خوفًا وحزنًا وبكاء - خليق بألا يكون أوتي علمًا، ثمّ قرأ: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [النجم: ٥٩، ٦٠][٦].

- وقال: عالم عامل معلّم يُدْعَى كبيرًا في ملكوت السّماوات[٧].

- قال ابن وهب: كنت بين يدي مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فوضعت ألواحي وقمت

(١) العلم، لزهير بن حرب (٦، ٧).
(٢) فضل علم السلف على الخلف، لابن رجب الحنبلي (١٤٢).
(٣) السّمت: الهيئة.
(٤) المدخل، لابن الحاج (٢/ ١٢٤).
(٥) العلم، لزهير بن حرب (٢٧).
(٦) الشعب (٨/ ٤٢٧) وقال مخرجه: إسناده جيد.
(٧) الترمذي (٥/ ٤٩).

أصلّي. فقال: ما الّذي قمت إليه بأفضل ممّا قمت عنه- يعني: قام لصلاة النّافلة[١].

- قال يحيى بن خالد البرمكيّ منشدًا:

تفنّن وخذ من كلّ علم فإنّما يفوق امرؤ في كلّ فنّ له علم
فأنت عدوّ للّذي أنت جاهل به ولِعِلم أنت تتقنه سلم[٢]

- قال الأوزاعيّ رحمه الله تعالى: كان هذا العلم كريمًا يتلاقاه الرّجال، فلمّا دخل في الكتب؛ دخل فيه غير أهله[٣].

- قال الإمام الشّافعيّ رحمه الله تعالى: طلب العلم أفضل من صلاة النّافلة[٤].

- عن عبد الله بن المبارك في شأن حمّاد بن زيد:

أيّها الطّالب علمًا إيت حمّاد بن زيد
تقتبس حلمًا وعلمًا ثمّ قيّده بقيد[٥]

- قال محمّد بن الفضل السّمرقنديّ الواعظ رحمه الله تعالى: كم من جاهل أدركه العلم فأنقذه؟! وكم من ناسك عمل عمل الجاهليّة فأوبقه؟! احضر العلم وإن لم تحضرك النّيّة، فإنّما تطلب بالعلم النّيّة، وإنّ أوّل ما يظهر من العبد لسانه، وأوّل ما يظهر من عقله حلمه[٦].

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٧).
(٢) أدب الدنيا والدين (٤٧).
(٣) سير أعلام النبلاء، للذهبي (٧/ ١١٤).
(٤) مدارج السالكين (٢/ ٤٧٠).
(٥) سير أعلام النبلاء (٧/ ٤٥٩).
(٦) الشعب (٧/ ٤٥١).

- قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: النّاس إلى العلم أحوج منهم إلى الطّعام والشّراب؛ لأنّ الرّجل يحتاج إلى الطّعام والشّراب في اليوم مرّة أو مرّتين، وحاجته إلى العلم بعدد أنفاسه[١].

- قال ذو النّون المصريّ: كان الرّجل من أهل العلم يزداد بعلمه بغضًا للدّنيا وتركًا لها، فاليوم يزداد الرّجل بعلمه للدّنيا حبًّا وطلبًا. وكان الرّجل ينفق ماله على العلم، واليوم يكتسب الرّجل بعلمه مالًا. وكان يُرى على طالب العلم زيادة صلاح في باطنه وظاهره فاليوم يرى على كثير من أهل العلم فساد الباطن والظّاهر[٢].

- قال عمرو بن الحارث رحمه الله تعالى: إنّ رجلًا كتب إلى أخ له: اعلم أنّ الحلم لباس العلم فلا تعرينّ منه[٣].

- قال أحمد بن سعيد الدّارميّ: سمعت من عليّ بن المدينيّ كلمة أعجبتني قرأ علينا حديث الغار، ثمّ قال: إنّما نقل إلينا هذه الأحاديث لنستعملها لا لنتعجّب منها[٤].

- قال أبو بكر البصريّ: دخلت على سهل بن عبد الله ومعي المحبرة فقال لي: تكتب؟ قلت: نعم. قال: اكتب؛ فإن استطعت أن تلقى الله ﷻ ومعك المحبرة فافعل[٥].

- قال عمرو بن عثمان المكّيّ: العلم قائد، والخوف سائق، والنّفس

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٧٠).
(٢) المدخل لابن الحاج (٢/ ١٢٦).
(٣) الشعب (٧/ ٤٤٧).
(٤) الشعب (٧/ ٤٥٤).
(٥) المصدر السابق (٧/ ٤٥٧).

حرون بين ذلك جموح خدّاعة روّاغة. فاحذرها وراعها بسياسة العلم، وسقها بتهديد الخوف يتمّ لك ما تريد[١].

- قال أبو بكر الآجرّيّ رحمه الله تعالى: العلماء في كلّ حال لهم فضل عظيم في خروجهم لطلب العلم، وفي مجالستهم لهم فيه فضل، وفي مذاكرة بعضهم لبعض لهم فيه فضل. وفيمن تعلّموا العلم لهم فيه فضل، وفيمن علّموه العلم لهم فيه فضل. فقد جمع الله للعلماء الخير من جهات كثيرة نفعنا الله وإيّاهم بالعلم[٢].

- وقال أيضًا: لا يكون ناصحًا لله تعالى ولرسوله ولأئمّة المسلمين وعامّتهم إلّا من بدأ بالنّصيحة لنفسه، واجتهد في طلب العلم والفقه ليعرف به ما يجب عليه، ويعلم عداوة الشّيطان له وكيف الحذر منه، ويعلم قبيح ما تميل إليه النّفس حتّى يخالفها بعلم[٣].

- قال عليّ بن عبد العزيز القاضي الجرجانيّ رحمه الله تعالى:

يقولون لي فيك انقباض وإنّما ... رأوا رجلًا عن موقف الذّل أحجما

أرى النّاس من داناهم هان عندهم ... ومن أكرمته عزّة النّفس أكرما

ولم أقض حقّ العلم إن كان كلّما ... بدا طمع صيّرته لي سلّما

وما كلّ برق لاح لي يستفزّني ... ولا كلّ من لاقيت أرضاه منعما

إذا قيل هذا منهل قلت قد أرى ... ولكنّ نفس الحرّ تحتمل الظّما

أنهنهها عن بعض ما لا يشينها ... مخافة أقوال العدا فيم أو لما

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٦٦)، العقد الثمين في أخبار البلد الأمين (٦/ ٤١٢). سير أعلام النبلاء (١٤/ ٥٨).

(٢) أخلاق العلماء، للآجري (٤١).

(٣) بصائر ذوي التمييز، للفيروزآبادي (٥/ ٦٧).

ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي لأخدم من لاقيت لكن لأخدما
أأشقى به غرسًا وأجنيه ذلّة إذا فاتّباع الجهل قد كان أحزما
ولو أنّ أهل العلم صانوه صانهم ولو عظّموه في النّفوس لَعُظّما
ولكن أهانوه فهان ودنّسوا محيّاه بالأطماع حتّى تَجَهَّما[١]

- قال أبو سعيد الخرّاز رحمه الله تعالى: العلم ما استعملك واليقين ما حملك[٢].

- قال أبو بكر بن دريد رحمه الله تعالى:

العالم العاقل ابن نفسه أغناه جنس علمه عن جنسه
كن ابن من شئت وكن مؤدّبًا فإنّما المرء بفضل كيسه
وليس مَنْ تكرمه لغيره مثل الّذي تكرمه لنفسه[٣].

- قال ابن القيّم رحمه الله تعالى: استشهد الله ﷻ بأهل العلم على أجلّ مشهود به وهو التّوحيد، وقرن شهادتهم وشهادة ملائكته. وفي ضمن ذلك تعديلهم فإنّه تعالى لا يستشهد بمجروح[٤].

- قال بعضهم: من طلب العلم لوجه الله لم يزل معانًا، ومن طلبه لغير الله لم يزل مهانًا[٥].

- وقال بعضهم: الجاهل صغير وإن كان شيخًا، والعالم كبير وإن كان حدثًا. واستشهدوا بقول القائل:

---

(١) أدب الدنيا والدين للماوردي (٩٢).
(٢) الشعب (٧/ ٤٥٥).
(٣) أدب الدنيا والدين للماوردي (٥٤).
(٤) مدارج السالكين (٢/ ٤٧٠).
(٥) المدخل لابن الحاج (٢/ ١٢٣).

تعلّم فليس المرء يولد عالمًا   وليس أخو علم كمن هو جاهل

وإنّ كبير القوم لا علم عنده   صغير إذا التفّت إليه المحافل(١)

العلم والإيمان في رحاب الإسلام(٢):

إن أول آيات أنزلها الله من كتابه على رسوله أشادت بالعلم والتعليم، وأداة التعلم «القلم»؛ لأنها أمرت بالقراءة، والقراءة مِفْتاح العلم، يقول تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ - ٥].

هكذا كان أول أمر من الله في الإسلام: ﴿ٱقْرَأْ﴾، وقد كرره مرتين في هذه الآيات تأكيدًا لأهميته، ولكنها ليست مجرد قراءة، ولكن قراءة: «باسم الرب الخالق»، ومعنى أنها باسمه: أنها بإذنه وأمره ومباركته، فهي قراءة إيمانية. وهي تشير إلى أن العلم في الإسلام لا بد أن يكون في حضانة الإيمان بالله، وبهذا يكون العلم أداة خير لا معول هدم، يكون للتعمير لا للتدمير.

ولهذا رأينا سليمان عليه السلام حين جاءه عرش بلقيس ملكة سبأ من اليمن إلى الشام في لمح البصر أو هو أقرب، جاء به (الذي عنده علم من الكتاب)، كان موقفه موقف المؤمن الذي يعتبر العلم وثمراته نعمة من الله يجب أن تقابل بالشكر، يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

وكذلك كان موقف ذي القرنين حين بنى سده العظيم، ليحجز شر يأجوج ومأجوج المفسدين في الأرض، ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ

---

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١/ ١٥٩).

(٢) الحياة الربانية والعلم (ص: ١٤٦).

وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾ [الكهف: ٩٨].



العلم يهدي إلى الإيمان[1]:

فالعلم والإيمان في الإسلام يسيران جنبًا إلى جنب، ولذا جمع القرآن بينهما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الروم: ٥٦]، ومثل ذلك قوله: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

بل يرتب القرآن الإيمان على العلم، فالمرء يعلم فيؤمن، ومقتضاه أنه لا إيمان قبل العلم. يقول تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الحج: ٥٤].

وهكذا عطف القرآن هذه الثلاثة «العلم.. الإيمان.. الإخبات» بالفاء، التي تفيد الترتيب والتعقيب كما يقول علماء العربية، فإذا كان الإخبات ثمرة الإيمان، فإن الإيمان ثمرة العلم.

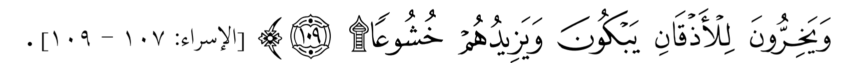
الإيمان ثمرة العلم[2]:

وفي هذا يقول القرآن أيضًا: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾ [سبأ: ٦].

وينوه القرآن بالذين «أوتوا العلم» بأنهم هم الذين يعرفون قيمة القرآن ويؤمنون به، ويتأثرون بما فيه: ﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾

(١) الحياة الربانية والعلم (ص: ١٤٨).

(٢) المصدر السابق (ص: ١٤٩).

 [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].

ويقول عن القرآن أيضًا: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

العلم إمام العمل[١]:

ومن فضائل العلم: أنه يسبق العمل، ويدل عليه، ويرشد إليه، وهذا ما ذكره الإمام البخاري في كتاب العلم من «صحيحه»، واستدل عليه بالقرآن من مثل قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ﴾ [محمد: ١٩]، فبدأت الآية بالعلم بالتوحيد، وثنت بالاستغفار وهو عمل.

وفي حديث معاذ المشهور في فضل العلم الذي ذكره ابن عبد البر وغيره: «تعلموا العلم، فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة».

وفيه قال: «وهو إمام، والعمل تابعه».

ومعنى هذا: أن العلم إمام العمل وقائد له، والعمل تابع له ومؤتم به، فكل عمل لا يكون خلف العلم مقتديًا به، فهو غير نافع لصاحبه، بل مضرة عليه، كما قال بعض السلف: من عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح.

والأعمال إنما تتفاوت في القبول والرد بحسب موافقتها للعلم ومخالفتها له، فالعمل الموافق للعلم هو المقبول، والمخالف له هو المردود، فالعلم هو الميزان وهو المحك.

---

(١) الحياة الربانية والعلم (ص: ١٥١).

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ [الملك: ٢].

قال الفضيل بن عياض في تفسير «أحسن العمل» قال: هو أخلص العمل وأصوبه، قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، فالخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة، وقد قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

فهذا هو العمل المقبول الذي لا يقبل الله من الأعمال سواه، وهو أن يكون موافقًا لسنة رسول الله ﷺ، مرادًا به وجه الله، ولا يتمكن العامل من الإتيان بعمل يجمع هذين الوصفين إلا بالعلم، فإنه إن لم يعلم ما جاء به الرسول لم يمكنه قصده، وإن لم يعرف معبوده لم يمكنه إرادته وحده، فلولا العلم لما كان عمله مقبولًا، فالعلم هو الدليل على الإخلاص، وهو الدليل على المتابعة. وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، وأحسن ما قيل في تفسير الآية: أنه إنما يتقبل الله عمل من اتقاه في ذلك العمل. وتقواه فيه: أن يكون لوجهه على موافقة أمره، وهذا إنما يحصل بالعلم، وإذا كان هذا منزلة العلم وموقعه، علم أنه أشرف شيء وأجله وأفضله.. والله أعلم.

ولهذا قال المحققون: إن العامل بلا علم كالسائر بلا دليل.. ومعلوم أن عطب مثل هذا أقرب من سلامته، وإن قدر سلامته اتفاقًا نادرًا فهو غير محمود، بل مذموم عند العقلاء.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: «من فارق الدليل ضل السبيل، ولا

دليل إلا بما جاء به الرسول».

قال الحسن البصري: العامل على غير علم كالسالك على غير طريق، والعامل على غير علم ما يفسد أكثر مما يصلح، فاطلبوا العلم طلبًا لا تضروا بالعبادة، واطلبوا العبادة طلبًا لا تضروا بالعلم، فإن قومًا طلبوا العبادة وتركوا العلم، حتى خرجوا بأسيافهم على أمة محمد ﷺ، ولو طلبوا العلم لم يدلهم على ما فعلوا.

فمرتبة العلم من وجه: مرتبة المطاع المتبوع المقتدى به المتبع حكمه المطاع أمره، ومرتبته من وجه آخر مرتبة الدليل المرشد إلى المطلوب الموصل إلى الغاية.

فضل العلم على العبادة:

ومن فضائل العلم ما ثبت في الأحاديث: أنه أفضل من العبادة، وأن العالم مقدم على العابد.

ففي حديث أبي الدرداء المشهور: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ طَالِبَ الْعِلْمِ يَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ حَتَّى الْحِيتَانِ فِي الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، إِنَّ الْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**»(١).

وكذلك جاء في حديث معاذ بن جبل. وفي حديث أبي أمامة: «**فَضْلُ**

(١) سنن ابن ماجه ت الأرنؤوط (١/ ١٥٠). وانظر: صحيح الجامع الصغير وزيادته (٦٢٩٧).

الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أُمَّتِي»[١].

وفي حديث حذيفة وسعد: «**فَضْلُ العِلْمِ خَيْرٌ مِنْ فَضْلِ الْعِبَادَةِ، وَخَيْرُ دِينِكُمُ الْوَرَعُ**»[٢].

وذلك لأن العلم يسبق العمل ويدل عليه ويرشد إليه، فهو دليل له من ناحية، وشرط لقبوله من ناحية أخرى، فلا عمل بلا علم، وقد يوجد علم بلا عمل، والمعنى: أنه كلما وجد العمل لزم وجود العلم، بخلاف عكسه، ولهذا قيل: العلم بدون عمل جنون، والعمل بدون علم لا يكون.

ومن ناحية أخرى فضل العلم على العبادة؛ لأن نفع العلم متعدٍّ، ونفع العبادة قاصر، فالعبادة إنما تنفع صاحبها، والعلم ينفع الكافة.

ثم إن نفع العبادة - غالبًا - ينتهي بالفراغ منها؛ ولكن نفع العلم يبقى إلى ما شاء الله، ولهذا عد في الأمور الباقية للإنسان بعد موته، فإذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من أشياء معروفة منها: علم ينتفع به من بعده.

وعلى قدر المنتفعين بعلمه يكون أجره، فكلما اهتدى به مهتدٍ إلى طريق الخير، واسترشد به مسترشد في معرفة الحلال من الحرام والهدى من الضلال؛ كان له أجره، كما جاء في الحديث: «**من دل على خير فله مثل أجر فاعله**».

ولأن العلم إما فرض عين، وإما فرض كفاية، وكلاهما أفضل من الاشتغال بالنوافل.

---

(١) ترتيب الأمالي الخميسية للشجري (١/ ٧١). وانظر: ضعيف الجامع الصغير وزيادته (ص: ٥٧٨).

(٢) المعجم الأوسط (٤/ ١٩٧). وانظر: صحيح الجامع الصغير وزيادته (٤٢١٤).

ولأن العلم من صفات الله تعالى، والعمل من صفات المخلوقين، فهو هنا يتخلق بخلق من أخلاق الله تعالى - إن صح التعبير - أو يتصف بصفة من صفاته، واسم من أسمائه الحسنى.

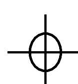
ولأن العلم هو الذي يكشف الغوامض من المسائل، ويفصل في دقائق الأمور، كما رأينا في حديث الذي قتل تسعة وتسعين نفسا، فسأل رجلا عابدا هو أعبد أهل الأرض في زمنه: هل له من توبة؟ فقال له: لا توبة لك، فقتله، وأكمل به المائة، ثم سأل رجلًا عالمًا، هو أعلم أهل الأرض في زمنه: هل له من توبة؟ فقال له: نعم، وأمره أن ينتقل من القرية الظالمة الفاسدة إلى قرية أخرى صالحة.

ولأن العلم هو الذي يبين الحق من الباطل في الاعتقادات، والصواب من الخطأ في المقولات، والمسنون من المبتدع في العبادات، والحلال من الحرام في التصرفات، والصحيح من الفاسد في المعاملات، والفضيلة من الرذيلة في السلوكيات، والمقبول من المردود في المعايير، والراجح من المرجوح في الأقوال والأعمال.

وبدون العلم يمكن أن يعتقد المرء الباطل وهو يحسبه حقًّا، ويرتكب البدعة وهو يظنها سنة، ويتورط في الحرام وهو يتوهمه حلالًا، ويسقط في حمأة الرذيلة وهو يتصورها فضيلة.

ولهذا كان من الأدعية المأثورة: «اللهم أرنا الحق حقًّا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه». حتى لا يكون المرء ممن زين له سوء عمله فرآه حسنًا.

وقد حذرت الأحاديث الصحاح من فئة من الناس «**يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ**



صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»[١]، ومعنى قوله: «**لا يجاوز حناجرهم**»: أن القرآن لا تفقهه عقولهم وقلوبهم؛ لأنه مجرد ألفاظ وأصوات تخرج من حناجرهم، فآفتهم ليست في ضمائرهم ونياتهم، بل في عقولهم وأفهامهم! ولهذا وصفوا بأنهم: «**يدعون أهل الأوثان، ويقتلون أهل الإسلام!**»، وهؤلاء هم الخوارج الذين حاربهم علي بن أبي طالب والصحابة معه. ولهذا جاء في حديث معاذ المشهور في فضل العلم: إنه إمام والعمل تابعه.

وذكر الإمام البخاري في كتاب العلم من «صحيحه»: أن العلم يسبق العمل، واستدل لذلك بالقرآن والحديث[٢].

وقال الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز: مَنْ عَمِلَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ مَا يُفْسِدُ أَكْثَرَ مِمَّا يُصْلِحُ![٣].

ومن المعروف: أن كثيرًا من الأئمة صرحوا بأن أفضل الأعمال بعد الفرائض طلب العلم.

فقال الشافعي: لَيْسَ شَيْء بعد الْفَرَائِض أفضل من طلب الْعلم، وَهَذَا الَّذِي ذكر أصحابه عَنهُ أنه مذْهبه[٤].

وكذلك قال سفيان الثوري، حكاه الحنفية عن أبي حنيفة.

وأما الإمام أحمد، فحكي عنه ثلاث روايات، إحداهن: أنه العلم.

---

(١) صحيح مسلم (٢/ ٧٤٤).
(٢) صحيح البخاري (١/ ٢٤).
(٣) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٢٤٤).
(٤) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ١١٩).

فإنه قيل له: أي شيء أحب إليك: أجْلِس بِاللَّيْلِ أنسخ أوْ أصلي تَطَوّعًا؟ قال: نسخك تعلم به أمور دينك، فهو أحب إلي.. وذكر الخلال عنه في كتاب «العلم» نصوصًا كثيرة في تفضيل العلم، ومن كلامه فيه: الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب(١).

والرواية الثانية: أن أفضل الأعمال بعد الفرائض صلاة التطوع، واحتج لهذه الرواية بقوله ﷺ: «**واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة**»، وبقوله في حديث أبي ذر وقد سأله عن الصلاة، فقال: «**خَيْرُ مَوْضُوعٍ**»(٢)، وبأنه أوصى من سأله مرافقته في الجنة بكثرة السجود وهو الصلاة، وكذلك قوله في الحديث الآخر: «**عَلَيْكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ لِلَّهِ، فَإِنَّكَ لَا تَسْجُدُ لِلَّهِ سَجْدَةً، إِلَّا رَفَعَكَ اللهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْكَ بِهَا خَطِيئَةً**»(٣)، وبالأحاديث الدالة على تفضيل الصلاة.

والرواية الثالثة: أنه الجهاد، فإنه قال: «**لا أعدل بالجهاد شيئًا، ومن ذا يطيقه؟!**».

ولا ريب أن أكثر الأحاديث في الصلاة والجهاد.

وأما مالك .. فقال ابن القاسم: سمعت مالكًا يقول: إن أَقْوامًا ابْتَغوا الْعِبَادَة وأضاعوا الْعلم فَخَرجُوا على أمة مُحَمَّد بِأَسْيَافِهِم، وَلَو ابْتَغوا العلم لحجزهم عَن ذَلِك(٤).

---

(١) المصدر السابق.

(٢) مسند أحمد مخرجا (٣٥/ ٤٣٧). وانظرصحيح الجامع الصغير وزيادته (٣٨٧٠).

(٣) صحيح مسلم (١/ ٣٥٣).

(٤) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ١١٩).

قال مالك: وَكتب أبو مُوسَى الأشعري إلى عمر بن الْخطاب أنه قرأ الْقُرْآن عندنَا عدد كذا وَكَذَا، فَكتب إليه عمر أن افْرِضْ لَهُم من بَيت المَال.

فَلَمَّا كَانَ فِي الْعَام الثَّانِي كتب إليه: إنه قد قرأ الْقُرْآن عندنَا عدد كثير لأكْثر من ذَلِك. فَكتب إليه عمر: أن امحهم من الدِّيوَان؛ فَإنِي أخاف من أن يسْرع النَّاس فِي الْقُرْآن أن يتفقهوا فِي الدّين فيتأولوه على غير تَأْوِيله![1].

وقال ابن وهب: كنت بين يدي مالك بن أنس، فوضعت ألواحي، وقمت إلى الصلاة (يعني: النافلة كما يدل السياق) فقال: ما الذي قمت إليه بأفضل من الذي تركته[2].

وهذه الأمور الثلاثة التي فضل كل واحد من الأئمة على بعضها، وهي: الصلاة، والعلم، والجهاد، هي التي قال فيها عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لولا ثلاث في الدنيا لما أحببت البقاء فيها: لولا أن أحمل أو أجهز جيشًا في سبيل الله، ولولا مكابدة هذا الليل، ولولا مجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما يُنتقى أطايب التمر؛ لما أحببت البقاء[3].

فالأول: الجهاد.

والثاني: قيام الليل.

والثالث: مذاكرة العلم.

فاجتمعت في الصحابة بكمالها، وتفرقت فيمن بعدهم.

وقد حكى ابن القيم ما ذكره أبو نعيم وغيره، عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ١١٩).

(٢) المصدر السابق.

(٣) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ١٢٠).

أنه قال: «**فضل العلم خير من نفل الْعَمَل، وخير دينكم الورع**». وقد رُوي هذا مرفوعًا من حديث عائشة رضي الله عنها. وفي رفعه نظر.

قال: «وهذا الكلام هو فصل الخطاب في هذه المسألة، فإنه إذا كان كل من العلم والعمل فرضًا فلا بد منهما كالصوم والصلاة، فإذا كانا فضلين - وهما النفلان المتطوع بهما - ففضل العلم ونفله خير من فضل العبادة ونفلها؛ لأن العلم يعم نفعه صاحبه والناس معه، والعبادة يختص نفعها بصاحبها، ولأن العلم تبقى فائدته وعلمه بعد موته، والعبادة تنقطع عنه»[١].

ومن وجوه فضل العلم على العبادة التي ذكرها العلامة ابن القيم في «المفتاح»: أنه يدل صاحبه على العمل الأفضل عند الله، وإن كان أقل من غيره مشقة، فصاحب العلم أقل تعبًا ومعاناة، وهو أكثر مثوبة وأجرًا! قال: واعتبر هذا بالشاهد، فإن الصناع والأجراء يعانون الأعمال الشاقة بأنفسهم، والأستاذ المعلم يجلس يأمرهم وينهاهم، ويريهم كيفية العمل، ويأخذ أضعاف ما يأخذونه.

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى حيث قال: «**أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ: إِيمَانٌ بِاللهِ، وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِ اللهِ**»[٢]، فالجهاد بذل النفس وغاية المشقة، والإيمان علم القلب وعمله وتصديقه، وهو أفضل الأعمال، مع أن مشقة الجهاد فوق مشقته بأضعاف مضاعفة، وهذا لأن العلم يعرف مقادير الأعمال ومراتبها، وفاضلها من مفضولها، وراجحها من مرجوحها، فصاحبه لا يختار لنفسه إلا أفضل الأعمال. والعامل بلا علم يظن أن الفضيلة في كثرة المشقة، فهو يتحمل المشاق وإن كان ما يعانيه مفضولًا ورب عمل فاضل والمفضول أكثر

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ١٢٠).
(٢) المعجم الكبير للطبراني (٢٤/ ٣١٥).

مشقة منه.

واعتبر هذا بحال الصديق أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فإنه أفضل الأمة، ومعلوم أن فيهم من هو أكثر عملًا وحجًّا وصومًا وصلاة وقراءة منه، قال أبو بكر بن عياش: ما سبقكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة، ولكن بشيء وقر في قلبه! وهذا موضوع المثل المشهور:

من لي بمثل سيرك المدلل تمشي رويدًا وتجيء في الأول[١]

العلم دليل السلوك:

وليس العلم مطلوبًا لمعرفة الأحكام الظاهرة في الفقه فقط، كما قد يظن الكثيرون، بل هو مطلوب لسلوك الطريق إلى الله أيضًا، بل ربما كان طلبه هنا أشد وألزم، لدخول الأوهام والأهواء والتلبيسات على الإنسان في هذا الجانب أكثر من غيره.

نرى الإمام الغزالي في مقدمة كتاب الإخلاص من «الإحياء» بعد أن بَيَّنَ ضرورة تصحيح النية وإخلاص العبادة لله ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥] يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «وليت شعري كيف يصحح نيته من لا يعرف حقيقة النية؟! أو كيف يخلص من صحح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص؟! أو كيف تطالب المخلص نفسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه؟! فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى: أن يتعلم النية أولًا لتحصل المعرفة، ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص اللذين هما وسيلتا العبد إلى النجاة والخلاص»[٢].

(١) الحياة الربانية والعلم (ص: ١٥٨-١٦٠).

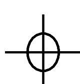
(٢) إحياء علوم الدين (٤/ ٣٦٢).

ثم نرى الغزالي يعود فيتحدث عن أثر النية في أقسام الأعمال من طاعات ومعاصٍ ومباحات، ويبدأ بعلاقتها بقسم المعاصي فيقول: «اعلم أن الأعمال وإن انقسمت أقسامًا كثيرة من فعل وقول، وحركة وسكون، وجلب ودفع، وفكر وذكر. وغير ذلك مما لا يتصور إحصاؤه واستقصاؤه. فهي ثلاثة أقسام: معاص وطاعات ومباحات.

«**القسم الأول**» **المعاصي**: وهي لا تتغير عن موضعها بالنية، فلا ينبغي أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله عليه الصلاة والسلام: «**إنما الأعمال بالنيات**». فيظن أن المعصية تنقلب طاعة بالنية؛ كالذي يغتاب إنسانًا مراعاة لقلب، أو يطعم فقيرًا من مال غيره، أو يبني مدرسة أو مسجدًا أو رباطًا بمال حرام وقصده الخير، فهذا كله جهل، والنية لا تؤثر في إخراجه عن كونه ظلمًا وعدوانًا ومعصية، بل قصده الخير والشر – على خلاف مقتضى الشرع – شر آخر، فإن عرفه فهو معاند للشرع، وإن جهله فهو عاصٍ بجهله؛ إذ طلب العلم فريضة على كل مسلم، والخيرات إنما يعرف كونها خيرات بالشرع، فكيف يمكن أن يكون الشر خيرًا؟ هيهات! بل المروج لذلك على القلب خفي الشهوة وباطن الهوى، فإن القلب إذا كان مائلًا إلى طلب الجاه واستمالة قلوب الناس وسائر حظوظ النفس، توسل الشيطان به إلى التلبيس على الجاهل.

ولذلك قال سهل رحمه الله تعالى: ما عصي الله تعالى بمعصية أعظم من الجهل! قيل: يا أبا محمد، هل تعرف شيئًا أشد من الجهل؟ قال: نعم، الجهل بالجهل، وهو كما قال، لأن الجهل بالجهل يسد بالكلية باب التعلم، فمن يظن بنفسه أنه عالم فكيف يتعلم؟!

وكذلك أفضل ما أطيع الله تعالى به: العلم! ورأس العلم: العلم بالعلم،



كما أن رأس الجهل: الجهل بالجهل.

فإن مَنْ لا يعلم العلم النافع من العلم الضار؛ اشتغل بما أكب الناس عليه من العلوم المزخرفة التي هي وسائلهم إلى الدنيا، وذلك هو مادة الجهل ومنبع فساد العالم، والمقصود أن من قصد الخير بمعصية عن جهل فهو غير معذور، إلا إذا كان قريب العهد بالإسلام، ولم يجد بعد مهلة للتعلم، وقد قال الله سبحانه: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، وقال النبي ﷺ: **«لَا يَنْبَغِي لِلْعَالَمِ أَنْ يَسْكُتَ عَلَى عِلْمِهِ، وَلَا يَنْبَغِي لِلْجَاهِلِ أَنْ يَسْكُتَ عَلَى جَهْلِهِ»**(١).

- ومن العلماء السوء مَنْ يقوم بتعليم العلم للسفهاء والأشرار، المشغولين بالفسق والفجور، القاصرين هممهم على مباراة العلماء ومباراة السفهاء، واستمالة وجوه الناس، وجمع حطام الدنيا، وأخذ أموال السلاطين واليتامى والمساكين، فإن هؤلاء إذا تعلموا كانوا قطاع طريق الله تعالى! وانتهض كل واحد منهم في بلدته نائبًا عن الدجال! يتكالب على الدنيا، ويتبع الهوى، ويتباعد عن التقوى، ويستجرئ الناس بسبب مشاهدته على معاصي الله تعالى.

ثم قد ينتشر ذلك العلم إلى مثله وأمثاله، ويتخذونه أيضًا آلة ووسيلة في الشر واتباع الهوى، ويتسلسل ذلك، ووبال جميعه يرجع إلى المعلم الذي علمه العلم مع علمه بفساد نيته وقصده ومشاهدته أنواع المعاصي من أقواله وأفعاله، ومن مطعمه وملبسه ومسكنه، فيموت هذا العالم وتبقى آثار شره منتشرة في العالم ألف سنة مثلا وألفي سنة، وطوبى لمن إذا مات ماتت معه

(١) المعجم الأوسط (٥/ ٢٩٨). وقال الهيثمى: رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي «الْأَوْسَطِ»، وَفِيهِ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي حُمَيْدٍ، وَقَدْ أَجْمَعُوا عَلَى ضَعْفِهِ. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (١/ ١٦٥).

ذنوبه! ثم العجب من جهله حيث يقول: «**إنما الأعمال بالنيات**».

وقد قصدت بذلك نشر علم الدين، فإن استعمله هو في الفساد فالمعصية منه لا مني، وما قصدت به إلا أن يستعين به على الخير، وإنما حب الرياسة والاستتباع والتفاخر بعلو العلم يحسن ذلك في قلبه، والشيطان بواسطة حب الرياسة يلبس عليه: وليت شعري ما جوابه عمن وهب سيفا من قاطع طريق!! وأعد له خيلًا وأسبابًا يستعين بها على مقصوده، ويقول: إنما أردت البذل والسخاء والتخلق بأخلاق الله الجميلة، وقصدت به أن يغزو بهذا السيف والفرس في سبيل الله تعالى، فإن إعداد الخيل والرباط والقوة للغزاة من أفضل القربات، فإن هو صرفه إلى قطع الطريق فهو العاصي!!

وقد أجمع الفقهاء على أن ذلك حرام، مع أن السخاء هو أحب الأخلاق إلى الله تعالى»(١).

العلم والمال:

لقد بين حديث النبي ﷺ - الذي رواه أحمد والترمذي عن أبي كبشة الأنماري - أن للعلم أثره في سلوك صاحبه، وقد قسم الناس إلى أصناف أربعة بالنظر إلى موقعهم من العلم والمال.

يقول الحديث: «**إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ: عَبْدٌ رَزَقَهُ اللهُ مَالًا وَعِلْمًا، فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقَّهُ**»، قَالَ: «**فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ**» قَالَ: «**وَعَبْدٌ رَزَقَهُ اللهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا؟**» قَالَ: «**فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ كَانَ لِي مَالٌ عَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ**» قَالَ: «**فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ**»، قَالَ: «**وَعَبْدٌ رَزَقَهُ اللهُ مَالًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا، فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ،**

(١) نقلًا عن الحياة الربانية والعلم (ص:١٦٨) وما بعدها. بتصرف.

وَلَا يَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقَّهُ، فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ» قَالَ: **«وَعَبْدٌ لَمْ يَرْزُقْهُ اللهُ مَالًا، وَلَا عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ كَانَ لِي مَالٌ لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ، قَالَ: هِيَ نِيَّتُهُ، فَوِزْرُهُمَا فِيهِ سَوَاءٌ»**[١].

قسم الحديث الناس وحظوظهم في الدنيا إلى أربعة أصناف:

الصنف الأول - وهو أفضلهم - من أوتي علمًا ومالًا، والمقصود بالعلم هنا: نور البصيرة، وحسن الإدراك، والمعرفة الراسخة، التي تضيء لصاحبها الطريق وتبين له العواقب؛ فنفعه العلم بأن دله على أن المال وسيلة لا غاية، وأنه مستخلف فيه، وأن لله فيه حقًّا ثابتا، فاتقى فيه ربه، ووصل فيه رحمه، فأحسن بذلك إلى نفسه، وأحسن إلى الناس بعلمه وماله، فهو كما قال الحديث: «**بأفضل المنازل**».

والصنف الثاني: يلي الأول في المرتبة وهو: من أوتي علمًا، ولم يؤت مالًا، فهو لم ينفق ولم يتصدق ولم يصل الرحم بالفعل، وإنما فعل ذلك بالنية التي علم الله صدقها منه. والنية ليست مجرد خاطرة طائرة تمر بالبال، كشرارة لامعة ثم تنطفئ، بل هي خط نفسي عميق، يجعل صاحبه يعيش بهذا الأمر، حالمًا به، راغبًا فيه، حريصًا عليه، فالنية هي عقد القلب على العمل، لهذا استوى في الأجر مع صاحب العمل - كما صرح الحديث: «**فهما في الأجر سواء**»، وإنما سبب ذلك هو علمه ومعرفته، مما يدل على أهمية المعرفة في السلوك الأخلاقي، فلا فضيلة بلا معرفة، كما لا عبادة بلا علم.

والصنف الثالث: من أوتي مالًا ولم يؤت علمًا، أي: لم يؤت العلم النافع

---

(١) مسند أحمد ط الرسالة (٢٩/ ٥٦٢)، سنن الترمذي (٢٣٢٥). وانظر: صحيح الجامع: (٣٠٢٤).

الذي يورث الخشية، وينير البصائر، ويحرك العزائم لفعل الخير، وإن كان صاحبه يحمل أرقى الشهادات، فهذا أسوأ الناس منزلة، كما جاء في نص الحديث: «**فهذا بأخبث المنازل**»، وإنما نزل به إلى هذا الدرك جهله وحرمانه من العلم، فلم يعلم الله في ماله حقًّا، ولم يصل فيه رحمه، ولم يحسن به إلى غيره، ولم يتق فيه ربه، فكان ماله وغناه طريقًا إلى هلاكه، فلو عدمه لكان خيرًا له، ولكنه - للأسف - أعطي ما يتزود به للجنة، فكان زاده إلى النار.

والصنف الرابع والأخير: من لم يؤت مالًا ولا علمًا، ولكنه لجهله وعمى قلبه عاش وفي نيته أن لو كان له مال لأنفقه في الشهوات والمعاصي، مثل ذلك الغني الجاهل، فهو يليه في الرتبة، ويساويه في الوزر بنيته الجازمة: «**فوزرهما سواء**»، وهذا هو الأحمق حقًّا، فقد خسر الآخرة، ولم يكسب الدنيا، بخبث نيته وسوء قصده. وأشقى الناس: من اجتمع عليه فقر الدنيا وعذاب الآخرة.

قال ابن القيم معقبًا على الحديث: «فقسم السعداء قسمين، وجعل العلم والعمل بموجبه سبب سعادتهما، وقسم الأشقياء قسمين، وجعل الجهل وما يترتب عليه سبب شقاوتهما، فعادت السعادة بجملتها إلى العلم وموجبه. والشقاوة بجملتها إلى الجهل وثمرته».

العلم يثمر اليقين والمحبة:

ومن فضل العلم: أنه يثمر اليقين، الذي به حياة القلب وطمأنينته، وبه مدح الله المتقين المهتدين بكتابه، حيث قال: ﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤]، وهم الذين فصل الله لهم الآيات، سواء أكانت آيات تنزيلية مسطورة، أم آيات تكوينية منظورة، يقول تعالى: ﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧] ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢]،

﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ [الجاثية: ٤].

أثنى الله على خليله إبراهيم بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنعام: ٧٥].

وذم من لا يقين عنده بقوله: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢].

ولقد جعل القرآن اليقين أحد عنصرين يرتقي الإنسان بهما إلى الإمامة في الدين، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

والإنسان إذا كان إيمانه ويقينه مزعزعًا، ناوشته الشبهات من كل جانب، وعرضت له الشكوك عن يمين وشمال، وذلك لضعف علمه، وقلة بصيرته، فيغدو كالريشة في مهب الريح، لا تستقر على حال.

أما صاحب اليقين، فهو - لرسوخه في علمه، وقوة إيمانه - كالطود الراسي، لا يتزعزع ولا يتزلزل، ولا تؤثر فيه رياح الشكوك والشبهات، بل هو لو وردت عليه من الشبه بعدد أمواج البحر - كما قال ابن القيم - ما أزالت يقينه، ولا قدحت فيه شكًّا؛ لأنه قد رسخ في العلم، فلا تستفزه الشبهات، بل إذا وردت عليه ردها حرس العلم وجيشه مغلولة مغلوبة.

وإنما سميت الشبهة شبهة؛ لاشتباه الحق بالباطل فيها، فإنها تلبس ثوب الحق على جسم الباطل، وأكثر الناس أصحاب حسن ظاهر، فينظر الناظر فيما ألبسته من اللباس، فيعتقد صحتها، وأما صاحب العلم واليقين فإنه لا يغتر بذلك، بل يجاوز نظره إلى باطنها وما تحت لباسها، فينكشف له حقيقتها.

ومثال هذا: الدرهم الزائف، فإنه يغتر به الجاهل بالنقد، نظرًا إلى ما عليه من لباس الفضة، والناقد البصير يجاوز نظره إلى ما وراء ذلك، فيطلع على

زيفه، فاللفظ الحسن الفصيح هو للشبهة بمنزلة اللباس من الفضية على الدرهم الزائف، والمعنى كالنحاس الذي تحته.

وإذا تأمل العاقل الفطن هذا القدر وتدبره، رأى أكثر الناس يقبل المذهب والمقالة بلفظ، ويردها بعينها بلفظ آخر.. وكم رد من الحق بتشنيعه بلباس من اللفظ قبيح.

إن صاحب العلم واليقين، الذي رزقه الله البصيرة النافذة والنور الكاشف؛ لا يلتبس عليه الحق بالباطل، ولا تروج عنده الشبهات، كما لا تغريه الشهوات، فهو مزود بسلاحين قويين يرد بهما جيوش الباطل، فهو يرد جيش الشهوات بسلاح الصبر، وجيش الشبهات بسلاح اليقين، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

قال ابن القيم: «وَالْيَقِين والمحبة هما ركنا الإيمان، وعليهما ينبني، وبهما قوامه، وهما يمدان سائر الأعمال القلبية والبدنية، وعنهما تصدر، وبضعفهما يكون ضعف الأعمال، وبقوتهما قوتها، وجميع منازل السائرين ومقامات العارفين، إنما تفتح بهما، وهما يثمران كل عمل صالح، وعلم نافع، وهدى مستقيم[(١)].

وَقَالَ الْجُنَيْدُ: الْيَقِينُ هُوَ اسْتِقْرَارُ الْعِلْمِ الَّذِي لَا يَنْقَلِبُ وَلَا يُحَوَّلُ، وَلَا يَتَغَيَّرُ فِي الْقَلْبِ[(٢)].

وقال سهل: حرام على قلب أن يشم رائحة اليقين وفيه سكون إلى غير

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ١٥٤).
(٢) مدارج السالكين (٢/ ٣٧٥).

الله[١].

وقيل: من علاماته النَّظَرُ إِلَى اللَّهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَالرُّجُوعُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ أَمْرٍ، وَالاسْتِعَانَةُ بِهِ فِي كُلِّ حَالٍ[٢].

وقيل: إذا اسْتكْمل العَبْد حَقِيقَة اليَقِين صَار الْبلَاء عِنْده نعْمَة والمحنة منحة، فالعلم أول دَرَجَات الْيَقِين؛ وَلِهَذَا قيل: العلم يستعملك وَالْيَقِين يحملك، فاليقين أفضل مواهب الرب لعَبْدِهِ، وَلَا تثبت قدم الرضاء إلا على دَرَجَة الْيَقِين»[٣].

واليقين إنما هو علم راسخ في القلب لا يعتريه شك ولا وهم، وهو قابل للزيادة والترقي في علم اليقين، إلى عين اليقين، ثم إلى حق اليقين.

فأنت إذا أخبرك جماعة من الثقات بأن صديقك رجع من سفره وهو قادم إليك، فخبرهم هذا يورث عندك علم يقين بقدومه. فإذا كلمك بالهاتف (التليفون) وقال: أنا قادم إليك، فقد أصبح عندك عين اليقين، فإذا قدم عليك بالفعل، وتلاقت الوجوه وتصافحت الأيدي، فهذا هو حق اليقين.

ومن هنا وجدنا خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام يسأل ربه أن يريه كيف يحيي الموتى، لينتقل من علم اليقين إلى عين اليقين، أو إلى حق اليقين: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص: ٤٣٩).

(٢) مدارج السالكين بين منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» (٢/ ٣٧٥).

(٣) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ١٥٥).

ولقد أسرى الله بعبده محمد ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم عرج به إلى السموات العلا ليريه من آياته، ويشهده من ملكوته ما آمن به يقينًا من طريق الوحي، فيزداد يقينًا مع يقين، كما قال تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: ١].

﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَـٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [النجم: ١١ - ١٨].

يؤكد ما ذكرناه: أن الله ﷻ خلق الخلق لعبادته الجامعة لمحبته، وإيثار مرضاته، المستلزمة لمعرفته، ونصب للعباد علمًا لا كمال لهم إلا به، وهو أن تكون حركاتهم كلها موافقة مرضاته ومحبته. ولذلك أرسل رسله، وأنزل كتبه، وشرع شرائعه، فكمال العبد - الذي لا كمال له إلا به - أن تكون حركاته موافقة لما يحبه الله منه ويرضاه له. ولهذا جعل اتباع رسوله دليلًا على محبته. قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١].

فالمحب الصادق يرى خيانة منه لمحبوبه: أن يتحرك بحركة اختيارية في غير مرضاته، وإذا فعل فعلًا مما أبيح له بموجب طبيعته وشهوته تاب منه، كما يتوب من الذنب، ولا يزال هذا الأمر يقوى عنده حتى تنقلب مباحاته كلها طاعات، فيحتسب نومه وفطره وراحته، كما يحتسب قومته وصومه واجتهاده.

وهو دائمًا بين سراء يشكر الله عليها وضراء يصبر عليها، فهو سائر إلى الله دائمًا في نومه ويقظته.

قال بعض العلماء: الأكياس عاداتهم عبادات الحمقى، والحمقى عباداتهم عادات[١].

وقال بعض السلف: حبذا نوم الأكياس وفطرهم، يغبنون به سهر الحمقى وصومهم، فالمحب الصادق إن نطق نطق لله وبالله، وإن سكت سكت لله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فسكونه استعانة على مرضاة الله، فهو لله وبالله ومع الله[٢].

ومعلوم أن صاحب هذا المقام أحوج خلق الله إلى العلم، فإنه لا تتميز له الحركة المحبوبة لله من غيرها، ولا السكون المحبب له من غيره، إلا بالعلم، فليست حاجته إلى العلم كحاجة من طلب العلم ذاته، ولأنه في نفسه صفة كمال، بل حاجته إليه كحاجته إلى ما به قوام نفسه وذاته.

ولهذا اشتدت وصاة شيوخ العارفين لمريديهم بالعلم وطلبه، وأنه من لم يطلب العلم لم يفلح، حتى كانوا يعدون من لا علم له من السفلة.

قال ذو النون، وقد سئل: من السفلة؟ فقال: من لا يعرف الطريق إلى الله تعالى ولا يتعرفه[٣].

وقال أبو يزيد: لو نظرتم إلى الرجل وقد أعطي من الكرامات حتى يتربع في الهواء؛ فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود ومعرفة الشريعة[٤].

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ١٦٠).

(٢) المصدر السابق.

(٣) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ١٦٠).

(٤) المصدر السابق.

وقال أبو حمزة البزاز: من علم طريق الحق سهل عليه سلوكه، ولا دليل على الطريق إلا متابعة الرسول في أقواله وأفعاله وأحواله[١].

وقال محمد بن الفضل الصوفي الزاهد: ذَهاب الإسلام على أيدي أربعة أصناف من الناس: صنف لا يعملون بما يعلمون، وصنف يعملون بما لا يعلمون، وصنف لا يعملون ولا يعلمون، وصنف يمنعون الناس من التعلم[٢].

قلت (القائل ابن القيم):

الصنف الأول: من له علم بلا عمل، فهو أضر شيء على العامة، فإنه حجة لهم في كل نقيصة ومنحسة.

والصنف الثاني: العابد الجاهل، فإن الناس يحسنون الظن به لعبادته وصلاحه، فيقتدون به على جهله. وهذان الصنفان هما اللذان ذكرهما بعض السلف في قوله: «احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل؛ فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون»، فإن الناس إنما يقتدون بعلمائهم وعبادهم، فإذا كان العلماء فجرة والعباد جهلة؛ عمت المصيبة بهما، وعظمت الفتنة على الخاصة والعامة.

والصنف الثالث: الذين لا علم لهم ولا عمل، وإنما هم كالأنعام السائمة.

والصنف الرابع: نواب إبليس في الأرض، وهم الذين يثبطون الناس عن طلب العلم والتفقه في الدين، فهؤلاء أضر عليهم من شياطين الجن، فإنهم يحولون بين القلوب وبين هدى الله وطريقه[٣].

---

(١)(٢) المصدر السابق.

(٣) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ١٦٠).

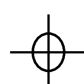
فهؤلاء الأربعة أصناف هم الذين ذكرهم هذا العارف رحمة الله عليه، وهؤلاء كلهم على شفا جرف هارٍ، وعلى سبيل الهلكة، وما يلقى العالم الداعي إلى الله ورسوله ما يلقاه من الأذى والمحاربة إلا على أيديهم، والله يستعمل من يشاء في سخطه، كما يستعمل من يحب في مرضاته؛ إنه بعباده خبير بصير. ولا ينكشف سر هذه الطوائف وطريقتهم إلا بالعلم، فعاد الخير بحذافيره إلى العلم بموجبه، والشر بحذافيره إلى الجهل بموجبه»[(١)].

وبعد أن تكلمنا عن العلم وفضله لا يفوتنا أن نقف مع أمر اهتم به السلف الصالح، فمنهم من كتب فيه مستقلًّا كالإمام الآجري لمّا كتب أخلاق العلماء، وابن عبد البر له كتاب «جامع بيان العلم وفضله»، والخطيب البغدادي له كتاب «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع».

ومنهم من صدّر به بعض كتبه كما فعل الإمام النووي في مقدمة المجموع، فإذا كانت هذه عنايةَ أهل العلم بآداب طالب العلم؛ فلا يجوز لنا ونحن نتكلم عن العلم أن نغفل هذا الجانب الخطير وهو أخلاق وآداب طالب العلم؛ لنذكر أنفسنا أولًا ثم نذكر إخواننا طلبة العلم.

❊ ❊ ❊

(١) الحياة الربانية والعلم (ص: ١٧٧).



من آداب طالب العلم

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من حق العالم عليك إذا أتيته أن تسلّم عليه خاصَّة، وعلى القوم عامة، وتجلس قُدامه، ولا تشر بيديك، ولا تغمز بعينيك، ولا تقل: «قال فلان خلاف قولك»، ولا تأخذ بثوبه، ولا تُلح عليه في السؤال، فإنه بمنزلة النخلة المُرطبة التي لا يزال يسقط عليك منها شيء[(١)].

وعن سعيد بن المسيب، أن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «إن من حق العالم ألا تكثر عليه بالسؤال، ولا تُعَنّته في الجواب، وألا تُلحَّ عليه إذا كسل، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض، ولا تفضين له سرًّا، ولا تغتابن عنده أحدًا، ولا تطلبن عثرته، وإن زَلَّ قبلت معذرته، وعليك أن تُوَقِّره وتعظمه لله ما دام يحفظ أمر الله، ولا تجلس أمامه، وإن كانت له حاجة سبقتَ القوم إلى خدمته»[(٢)].

وقال الخطيب البغدادي رحمه الله تعالى: «يجب على طالب الحديث أن يتجنب اللعب والعبث والتبذل في المجالس بالسخف والضحك والقهقهة وكثرة التنادر، وإدمان المزاح والإكثار منه، فإنما يُستجاز من المزاح بيسيره ونادره وطريفه، والذي لا يخرج عن حد الأدب وطريقة العلم. فأما متصله وفاحشه وسخيفه وما أوغر منه الصدور وجلب الشر، فإنه مذموم، وكثرة المزاح والضحك يضع من القدر، ويُزيل المروءة». اهـ[(٣)].

---

(١) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٥٨٠) رقم (٩٩٢)، و«الجامع» للخطيب (١/ ١٩٩).
(٢) «إرشاد الطالب» (ص ٧٨ - ٧٩).
(٣) «الجامع» للخطيب (١/ ١٥٦).

ومن أدبه: أن يحضر درس الشيخ على أحسن الهيئات، وأكمل الطهارات، «وكان الشيخ أبو عمر يقطع من حضر من الفقهاء الدرس محففًا بغير عمامة، أو مفكك أزرار الفرجية»[١].

وعن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «أحبُّ إلي أن أنظر القارئ أبيض الثياب»[٢]؛ يعني ليعظم في نفوس الناس، فيعظم في نفوسهم ما لديه من الحق.

وقال ابن جماعة في آداب المتعلم مع زملائه: «أن يتأدب مع حاضري مجلس الشيخ، فإنه أدب معه، واحترام لمجلسه، وهم رفقاؤه، فيوقر أصحابه ويحترم كبراءه وأقرانه، لا يجلس وسط الحلقة، ولا قدام أحد إلا لضرورة -كما في مجالس التحديث- ولا يفرق بين رفيقين، ولا بين متصاحبين إلا بإذنهما معًا»[٣].

وعلى طالب العلم أن ينظر شيخه بعين الإجلال، فإن ذلك أقرب إلى نفعه به، وكان بعض السلف إذا ذهب إلى شيخه تصدَّق بشيء وقال: «اللهم استر عيب شيخي عني، ولا تُذهب بركة علمه مني».

توقير العالم وهيبته:

قال طاوس بن كيسان: «إن من السنة أن تُوَقِّر العالم»[٤].

وعن الحسن قال: رُئيَ ابن عباس يأخذ برِكاب أبيّ بن كعب، فقيل له:

(١) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص ٢٣٥).
(٢) «الإحكام» للقرافي (ص ٢٧١).
(٣) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص ١٥٢ - ١٥٣).
(٤) «جامع بيان العلم» (١/ ٤٥٩).

«أنت ابنُ عَمِّ رسول الله ﷺ تأخذ بركاب رجل من الأنصار؟!»، فقال: «إنه ينبغي للحَبْر أن يُعَظَّمَ ويُشَرَّفَ»(١).

وعن الشعبي قال: صلَّى زيد بن ثابت على جنازة، ثم قربت له بغلة ليركبها، فجاء ابن عباس فأخذ بركابه، فقال له زيد: «خَلِّ عنك يا بن عم رسول الله»، فقال ابن عباس: «هكذا يُفعل بالعلماء والكبراء».

وفي رواية عنه قال: أمسك ابن عباس بركاب زيد بن ثابت، فقال: «أتمسك لي وأنت ابنُ عم رسول الله ﷺ؟!» قال: «إنا هكذا نصنع بالعلماء»(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مكثت سنتين أريد أن أسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن حديث ما منعني منه إلا هيبتُه، حتى تخلَّف في حجة أو عمرة في الأراك الذي ببطن «مر الظهران» لحاجته، فلما جاء وخلوتُ به؛ قلت: «يا أمير المؤمنين! أريد أن أسألك عن حديث منذ سنتين، ما منعني إلا هيبة لك»، قال: «فلا تفعل، إذا أردت أن تسألني فسلني، فإن كان عندي منه أخبرتك، وإلا قلتُ: لا أعلم، فسألتَ من يعلم»، قلت: «من المرأتان اللتان ذكرهما الله تعالى أنهما تظاهرتا على رسول الله ﷺ؟ «قال: «عائشة وحفصة...» الحديث(٣).

وعن الليث قال: «كان سعيد بن المسيب يركع ركعتين ثم يجلس، فيجتمع إليه أبناء أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار، لا يجترئ أحد منهم أن يسأله عن شيء إلا أن يبتدئهم بحديث، أو يجيئه سائل فيسأل،

(١) «الجامع» للخطيب (١/ ١٨٨).
(٢) المصدر السابق.
(٣) «جامع بيان العلم» (١/ ٤٥٦).

فيسمعون»[١].

وعن عبد الرحمن بن حرملة الأسلمي قال: «ما كان إنسان يجترئ على سعيد بن المسيب يسأله عن شيء حتى يستأذنه كما يُستأذَنُ الأمير»[٢].

وعن محمد بن سيرين قال: «رأيت عبد الرحمن بن أبي ليلى وأصحابه يعظمونه، ويُسَوِّدونه، ويُشَرِّفونه مثل الأمير»[٣].

وقال الأعمش رَحِمَهُ اللهُ: «كنا نهاب إبراهيم كما يُهاب الأمير»[٤].

وعن أبي عبد الله المُعَيطي قال: رأيت أبا بكر بن عياش بمكة، فأتاه سفيان ابن عيينة، فبرك بين يديه، فجعل أبو بكر يقول له: «يا سفيان كيف أنت؟ يا سفيان كيف عيال أبيك؟»، قال: فجاء رجل يسأل سفيان عن حديث، فقال سفيان: «لا تسألني ما دام هذا الشيخ قاعدًا»[٥].

وعن الحسن بن علي الخلال قال: كنا عند مُعْتَمر بن سليمان يحدثنا، إذ أقبل ابن المبارك، فقطع معتمر حديثه، فقيل له: «حَدثنا»، فقال: «إنا لا نتكلم عند كُبَرائنا»[٦].

أما مجالسهم فقد قال أحمد بن سنان: «كان عبد الرحمن (ابن مهدي) لا يتحَدَّث في مجلسه، ولا يُبْرَى قلمٌ، ولا يقوم أحد كأنما على رؤوسهم الطير،

(١) «الجامع» للخطيب (١/ ٤٠٠).
(٢) المصدر السابق (١/ ١٨٤).
(٣) «الجامع» للخطيب (١/ ١٨٢).
(٤) «تذكرة الحفاظ» (١/ ٧٤).
(٥) «الجامع» للخطيب (١/ ٣٢٠).
(٦) المصدر السابق (١/ ٣٢١).

أو كأنهم في صلاة»[١].

وعن أبي عاصم قال: «كنا عند ابن عون - وهو يحدِّث - فمَرَّ بنا إبراهيم بن عبد الله بن حسن في موكبه - وهو إذ ذاك يُدْعَى إمامًا بعد قتل أخيه محمد - فما جسر أحد أن يلتفت فينظر إليه، فضلًا عن أن يقوم، هيبةً لابن عَوْن»[٢].

وأنشد الأزدي[٣]:

وقِّر مشائخَ أهلِ العلمِ قاطبةً ... حتى تُوَقَّرَ إن أفضى بك الكِبَرُ
واخدم أكابرهم حتى تنال به ... مِثلًا بمثلٍ إذا ما شارف العُمُرُ

عن حرملة قال: سمعت الشافعي يقول - وذُكر له أصحاب الحديث، وأنهم لا يستعملون الأدب - فقال: «ما أعلم أني أخذت شيئًا من الحديث ولا القرآن أو النحو أو غير ذلك من الأشياء مما كنت أستفيد؛ إلا استعملتُ فيه الأدب، وكان ذلك طبعي إلى أن قدمت المدينة، فرأيت من مالك ما رأيت من هيبته وإجلاله العلم، فازددتُ من ذلك، حتى ربما كنت أكون في مجلسه، فأصفِّح الورقة تصفحًا رفيقًا هيبةً له لئلا يسمع وقعها»[٤].

وعن الربيع بن سليمان قال: «والله ما اجترأتُ أن أشرب الماء والشافعي ينظر إليَّ هيبةً له»[٥].

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: «لزمت هُشَيْمًا أربع سنين ما سألته عن شيء إلا

(١) «تذكرة الحفاظ» (١/ ٣٣١).
(٢) «الجامع» للخطيب (١/ ١٨٥).
(٣) «أدب الإملاء والاستملاء» للسمعاني (ص ١٣٦).
(٤) «توالي التأسيس بمعالي ابن إدريس» (ص ١٥٣).
(٥) «مناقب الشافعي» للبيهقي (٢/ ١٤٥).

مرتين هيبة له»[١].

قال عبدوس: «رآني أبو عبد الله يومًا وأنا أضحك، فأنا أستحييه إلى اليوم».

وفي ترجمة إبراهيم بن أبي طالب، قال الإمام أحمد بن إسحاق الفقيه: «ما رأيت في المحدثين أهيب من إبراهيم بن أبي طالب، كنا نجلس كأن على رؤوسنا الطير، لقد عطس أبو زكريا العنبري فأخفى عُطاسَه، فقلت له سِرًّا: «لا تخف! فلست بين يدي الله»[٢].

قال أبو زكريا العنبري: «شهدت جنازة حسين القباني سنة (٢٨٩) فصلى عليه أبو عبد الله - يعني البوشنجي[٣] - فلما انصرف قدمت دابته، فأخذ أبو عمرو الخفاف بلجامه، وابن خزيمة -إمام الأئمة- بركابه، والجارودي، وإبراهيم بن أبي طالب يسويان عليه ثيابه، فمضى، ولم يكلم واحدًا منهم»[٤].

وعن الإمام أبي حازم الأعرج رحمه الله تعالى قال: «لقد رأيتنا في مجلس زيد بن أسلم أربعين فقيهًا، أدنى خَصْلة فينا التواسي بما في أيدينا، وما رأيت في مجلسه متماريين، ولا متنازعين في حديث لا ينفعنا»[٥].

وقال إسحاق الشهيد: كنت أرى يحيى القطان يصلي العصر، ثم يستند إلى أصل منارة مسجد، فيقف بين يديه علي بن المديني، والشاذكوني، وعمرو

(١) «تذكرة الحفاظ» (١/ ٢٤٩).
(٢) المصدر السابق (٢/ ٦٣٨).
(٣) محمد بن إبراهيم بن سعيد، شيخ أهل الحديث في عصره.
(٤) «تهذيب التهذيب» (٩/ ٩).
(٥) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٣١٦).

ابن علي، وأحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وغيرهم، يستمعون الحديث، وهم قيام على أرجلهم، إلى أن تحين صلاة المغرب لا يقول لأحد منهم: «اجلس»، ولا يجلسون هيبة وإعظامًا[1].

وقال البخاري: «ما رأيت أحدًا أوقر للمحدثين من يحيى بن معين».

وقال عبد الرحمن بن واقد: «رأيت باب مالك بالمدينة كأنه باب الأمير»[2].

عن أبي عبد الله يحيى بن عبد الملك الموصلي قال: «رأيت مالك بن أنس غير مرة، وكان بأصحابه من الإعظام له والتوقير له . . . وإذا رفع أحد صوته صاحوا به»[3].

قال أبو مصعب: كانوا يزدحمون على باب مالك حتى يقتتلوا من الزِّحام، وكنا إذا كنا عنده لا يلتفت ذا إلى ذا، قائلون برؤوسهم هكذا، وكانت السلاطين تهابه، وكان يقول: «لا»، و«نعم»، ولا يقال له: «من أين قلت ذا؟»[4].

قال ابن الخياط يمدح مالك بن أنس[5]:

يَدَعُ الجوابَ فلا يُراجَعُ هيبةً والسائلون نواكِسُ الأذقانِ
نورُ الوقار وعِزُّ سلطان التقى فهو المهيبُ وليس ذا سلطانِ

---

(١) «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (ص ٨٣).
(٢) «تذكرة الحفاظ» (١/ ٢٠٨).
(٣) «الجامع» للخطيب (١/ ١٨٢).
(٤) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ١١١).
(٥) «الجامع» للخطيب (١/ ١٨٥).

تواضع الطالب لشيخه:

لا يُنال العلم إلا بالتواضع وإلقاء السمع، وتواضع الطالب لشيخه رفعة، وذُلُّه له عِزٌّ، وخضوعه له فخر، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ذَللتُ طالبًا، فعززتُ مطلوبًا»(١).

وعن أبي بكر محمد بن الأدموني النحوي قال: إذا تعلم الإنسان من العالم واستفاد منه الفوائد؛ فهو له عبد، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾، وهو يوشع بن نون، ولم يكن مملوكًا له، وإن كان متلمذًا له، متبعًا له، فجعله الله فتاه لذلك(٢).

وقال عبد الله بن المعتز: «المتواضع في طُلاب العلم أكثرهم علمًا، كما أن المكان المنخفض أكثرُ البقاع ماء»(٣).

تواضع إذا ما طلبت العلوم ... تكن أكثر الناس علمًا ونفعا
وكل مكان أشد انخفاضًا ... يُرى أكثر الأرض ماءً ومرعى(٤)

وعن حرملة قال: سمعت الشافعي يقول: «لا يطلب أحد هذا العلم بالملك وعز النفس فيفلح، ولكن من طلبه بذل النفس وضيق العيش وخدمة العلماء؛ أفلح»(٥).

العلم حرب للفتى المتعالي ... كالسيل حرب للمكان العالي

وعوتب الشافعي على تواضعه للعلماء فقال:

---

(١) «جامع بيان العلم» (١/ ٥٠٧).
(٢) «الفقيه والمتفقه» (٢/ ٩٩).
(٣) «الجامع» للخطيب (١/ ١٩٨).
(٤) «أدب الإملاء والاستملاء» (ص ١٤٤).
(٥) «الفقيه والمتفقه» (٢/ ٩٣).

أهين لهم نفسي فهم يكرمونها ولن تكرم النفس التي لا تهينها

وكان عمرو بن قيس الملائي إذا بلغه الحديث عن الرجل، فأراد أن يسمعه، أتاه حتى يجلس بين يديه ويخفض جناحه، ويقول: «عَلِّمني رحمك الله مما علَّمك الله»(١).

وقال شعبة: «كنت إذا سمعت من الرجل الحديث، كنت له عبدًا ما يحيا»(٢).

وعن إدريس بن عبد الكريم قال: قال لي سلمة بن عاصم النحوي: «أريد أن أسمع كتاب العدد من خلف»، فقلت لخلف، فقال: «فليجئ»، فلما دخل رفعه لأن يجلس في الصدر، فأبى، فقال: «لا أجلس إلا بين يديك»، وقال: «هذا حق التعليم»، فقال له خلف: جاءني أحمد بن حنبل ليسمع حديث أبي عوانة، فاجتهدت أن أرفعه، فأبى، وقال: «لا أجلس إلا بين يديك، أُمِرنا أن نتواضع لمن نتعلم منه»(٣).

وكان «ربيع القطان» من الفقهاء المعدودين والعُبَّاد المجتهدين، وكان أبوه رَحِمَهُ اللَّهُ من أهل العبادة، قال أخوه أحمد: كنا إذا جلسنا مع والدي وخطر في باله شيء من العلم، قام من مكانه يبحث بين يدي ربيع ابنه، فيقوم ربيع إليه، ويقول: لم فعلت هذا؟ فيقول: «أردت أن أسألك عن شيء من العلم»، فيقول: «وهلا وأنت في مكانك؟»، فيقول: «أردت أن أعطي العلم حقه»(٤).

وعن مالك بن أنس رَحِمَهُ اللَّهُ قال: وجَّه إليَّ هارونُ الرشيد يسألني أن أحدثه،

(١) «الجامع» للخطيب (١/ ٢١٠).
(٢) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص ٩٠).
(٣) «تاريخ بغداد» (٩/ ١٣٤).
(٤) «ترتيب المدارك» (٢/ ٣٣٢).

فقلت: «يا أمير المؤمنين! إن العلم يُؤتَى ولا يأتي»، قال: فصار إلى منزلي فاستند معي إلى الجدار، فقلت: «يا أمير المؤمنين، إن من إجلال الله إجلالَ ذي الشيبة المسلم»، قال: «فجلس بين يديَّ»(١).

وحكى بعضهم أن الخليفة هارون الرشيد بعث ابنه إلى الأصمعي، ليعلِّمه العلم والأدب، فرآه يومًا يتوضأ ويغسل رجله، وابن الخليفة يصب الماء على رجله، فعاتب الأصمعيَّ في ذلك، فقال: «إنما بعثتُه إليك لتعلِّمَه وتؤدبه، فلماذا لم تأمره بأن يصب الماء بإحدى يديه، ويغسل بالأخرى رجلك؟!».

وقال أحمد بن حمدون: «دخل هارون بن زياد مؤدِّب الواثق إليه، فأكرمه إلى الغاية، فقيل له: من هذا يا أمير المؤمنين الذي فعلت به هذا الفعل؟، فقال: «هذا أوّل من فَتَقَ لساني بذكر الله، وأدناني من رحمة الله».

وعن أبي معاوية الضرير قال: «صب عليَّ بعد الأكل شخص لا أعرفه، فقال الرشيد: تدري من يَصُبُّ عليك؟ قلت: لا، قال. أنا، إجلالًا للعلم»(٢).

وقال قتيبة بن سعيد: قدمت بغداد، وما كانت لي همة إلا أن ألقى أحمد بن حنبل، فإذا هو جاءني مع يحيى بن معين، فتذاكرنا، فقام أحمد بن حنبل وجلس بين يدي، وقال: «أملِ عليَّ هذا»، ثم تذاكرنا، فقام أيضًا، وجلس بين يديَّ، فقلت: «يا أبا عبد الله، اجلس مكانك»، فقال: «لا تشتغل بي، إنما أريد أن آخذ العلم على وجهه».

---

(١) «الحث على طلب العلم» للعسكري (ص ٨٤).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٩/ ٢٨٨).

وعن عمرو الناقد قال: «كنا عند وكيع، وجاء أحمد بن حنبل فقعد، وجعل يصف من تواضعه بين يديه، قال عمرو: فقلت: يا أبا عبد الله، إن الشيخ يكرمك فما لك لا تتكلم؟ قال: وإن كان يكرمني، فينبغي لي أن أُجِلَّه»[١].

ولما بلغ الثوريَّ مقدم الأوزاعي، خرج حتى لقيه بذي طوى، فحل سفيان رأس البعير عن القطار ووضعه على رقبته، وكان إذا مر بجماعة قال: «الطريقَ للشيخ»[٢].

وقال محمد بن حمدون بن رستم: سمعت مسلم بن الحجاج وجاء إلى البخاري، فقال: «دعني أقبل رجليك يا أستاذ الأستاذين، وسيد المحدثين، وطبيب الحديث في علله»[٣].

وعن عاصم بن أبي النَّجود قال: «ما قدمت على أبي وائل من سفر إلا قبَّل كفي»[٤].

وقال إبراهيم بن الأشعث: «رأيت سفيان بن عيينة يقبّل يد الفضيل مرتين»[٥].

وكان الشيخ شمس الدين الديروطي - صاحب البرج بدمياط - إذا مَر على فقيه، ينزل عن دابته ويسوقها أمامه ويقبل يده، ثم لا يركب حتى يبعد عنه جدًّا، ويتوارى عنه بجدار أو نحوه، مع أنه بلغ في العلم الغاية وشرح «المنهاج» وغيره.

---

(١) «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (ص ٨٢).
(٢) «تهذيب الأسماء واللغات» (١/ ٣٠٠).
(٣) «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٤٣٢).
(٤) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٢٥٧).
(٥) «السابق» (٨/ ٤٣٨).

وكان المأمون قد وكل الفراء يُلَقِّن ابنيه النحو، فلما كان يومًا أراد الفراء أن ينهض إلى بعض حوائجه، فابتدرا إلى نعل الفراء يقدِّمانه له، فتنازعا أيهما يقدمه، فاصطلحا على أن يقدم كلُّ واحدٍ منهما فردًا، فقدَّماها، وكان المأمون له على كل شيء صاحبُ خَبَر، فرفع ذلك الخبر إليه، فوجَّه إلى الفراء، فاستدعاه، فلما دخل عليه قال: «من أعزُّ الناس؟»، قال: «ما أعرف أعز من أمير المؤمنين»، قال: «بل من إذا نهض؛ تقاتل على تقديم نعليه وليَّا عهد المسلمين، حتى رضي كل واحد أن يقَدِّم له فردًا».

إلى أن قال المأمون: «وما وضع ما فعلاه من شرفهما، بل رَفَع من قدرهما... فليس يكبر الرجل - وإن كان كبيرًا - عن ثلاث: عن تواضعه لسلطانه، ووالده، ومعلِّمه العلمَ».

وقال أبو زرعة الرازي: سمعنا أحمد بن حنبل - وذُكر عنده إبراهيم بن طَهْمان- وكان أحمد متكئًا من علة - فاستوى جالسًا، وقال: «لا ينبغي أن يُذكر الصالحون فنتكئ»، وذكر أبو الوفاء بن عقيل في «الفنون» أنه كان مستندًا، فأزال ظهره، وقال: «لا ينبغي أن يجري ذكر الصالحين ونحن مستندون».

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم   إن التشبه بالكرام فلاحُ

✍أدب الطالب عند مخاطبة شيخه:

ينبغي لطالب العلم أن يراعي الأدب في مخاطبة شيخه: فلا يناديه باسمه مجردًا، أو مع لقبه كقوله: «يا شيخ فلان»، بل يقول: «يا شيخي» أو: «يا شيخنا»، فلا يسميه لأنه أرفع في الأدب، ولا يخاطبه بتاء الخطاب، ولا يناديه من بُعْدٍ من غير اضطرار، وانظر ما يذكره الله تعالى من الدلالة على الأدب مع معلمٍ الناس الخير ﷺ في قوله: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ

﴿بَعْضِكُم بَعْضًاۚ...﴾ الآية [النور: ٦٣] وكما لا يليق أن تقول لوالدك ذي الأبوة الطينية: «يا فلان» أو: «يا والدي فلان»، فلا يجمل بك مع شيخك[١].

وذكر الخطيب البغدادي رَحِمَهُ اللَّهُ أن من أدب الطالب مع شيخه أن ينبله في الخطاب، ويبجله في الألفاظ، ولا تكون مخاطبته له كمخاطبته أهل السوق، وأفناء[٢] العوام، فقد قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًاۚ﴾، وهذا أصل في أن يُميز ذو المنزلة بمنزلته، ويُفرق بينه وبين من لم يلحق بطبقته[٣]. اهـ.

وقال أيضًا: إذا خاطب الطالبُ المحدثَ عظَّمه في خطابه، بنسبته إياه إلى العلم، مثل أن يقول له: «أيها العالم»، أو «أيها الحافظ»، ونحو ذلك[٤]. اهـ.

قال المروذي: دخلتُ على ذي النون السجن ونحن بالعسكر، فقال: «أيُّ شيء حال سيدنا؟»، يعني: أحمد بن حنبل[٥].

وقال ابن المديني: «أمرني سيدي أحمد بن حنبل ألا أحَدِّث إلا من كتاب»[٦].

وعن جعفر الطَّستي: أنه سمع أبا مسلم الكَجِّي يقول - وذُكِر عنده صالح جَزَرة - فقال: «ما أهونه عليكم! ألا تقولون: سيد المسلمين؟!»[٧].

(١) «حلية طالب العلم» (ص ٢٥) بتصرف.
(٢) الأفناء: الأخلاط، مفردها: فِنو.
(٣) «الفقيه والمتفقه» (٢/ ١٧٩).
(٤) «الجامع» للخطيب (١/ ١٨٣).
(٥) «نزهة الفضلاء» (٢/ ٨١٣).
(٦) «السابق» (١١/ ٢٠٠).
(٧) «السابق» (١٤/ ٢٧).

وقال أبو محمد التميمي: «يقبح بكم أن تستفيدوا منا، ثم تذكرونا ولا تترحموا علينا»[١].

وحكي أن فتوى وردت من السلطان إلى أبي جعفر محمد بن جرير الطبري لم يكتب له الدعاء فيها[٢]، فكتب الجواب في أسفلها: «لا يجوز»، أو كتب: «يجوز»، ولم يزد على ذلك، فلما عادت الرقعة إلى السلطان ووقف عليها؛ علم أن ذلك كان من أبي جعفر الطبري للتقصير في الخطاب الذي خوطب به، فاعتذر إليه[٣].

ولما دخل ربيعة على الوليد بن يزيد - وهو خليفة - قال: «يا ربيعة! حدِّثنا»، قال: «ما أحدِّث شيئًا»، قال: فلما خرج من عنده قال: «ألا تعجبون من هذا الذي يقترح عليَّ كما يقترح على المُغَنِّية: حدثنا يا ربيعة»[٤].

وقال جعفر بن أبي عثمان: كنا عند يحيى بن معين، فجاءه رجل مُستعجل فقال: «يا أبا زكريا، حدثني بشيء أذكُرْكَ به»، فقال يحيى: «اذكرني أنك سألتني أن أحدثك فلم أفعل»[٥].

وجاء فتى إلى سفيان بن عيينة من خلفه فجذبه، وقال: «يا سفيان! حَدّثني!»، فالتفت سفيانُ إليه، وقال: «يا بُنيَّ! من جهل أقدار الرجال فهو بنفسه أجهل»[٦].

---

(١) «رسالة المسترشدين» (ص ٤).

(٢) فإن من أدب المستفتي أن يدعو بقوله: «ما تقول رضي الله عنك؟»، أو: «رحمك الله»، أو: «وفقك الله» أو: «رحمك الله، ورحم والديك؟».

(٣) «الفقيه والمتفقه» (٢/ ١٨١).

(٤) «الجامع» للخطيب البغدادي (١/ ٣٣٦).

(٥) «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٨٧).

(٦) «آداب العشرة» لأبي البركات الغزي (ص ٥٥).

زجر الطالب الذي حاد عن الأدب:

ما أكثر المواقف التربوية التي مارس فيها العلماء بصفتهم مربين ومرشدين حق النصح والتأديب والزجر مع بعض المتعلمين الذين قصَّروا في الأدب؛ إرشادًا لهم وتقويمًا وتهذيبًا. **وهاك طرفًا من هذه الوقائع**:

فعن أبي بكر الأثرم قال: سمعت أبا عبد اللّٰه -يعني أحمد بن حنبل- فسئل عن إسحاق بن إسماعيل الذي كان يحدث في مدينة أبي جعفر، فقال: «ما أعلم إلا خيرًا، إلا أنه» - ثم حمل عليه بكلمة ذكرها- وقال: «بلغني أنه يذكر عبد الرحمن بن مهدي وفلانًا، وما أعجب هذا!»، ثم قال وهو مغتاظ: «ما لك أنت ويلك؟! - ونحو هذا - ولذكر الأئمة»(١).

وعن حمدان بن الأصبهاني، قال: كنت عند شريك، فأتاه بعض ولد المهدي، فاستند، فسأله عن حديث فلم يلتفت إليه، وأقبل علينا، ثم أعاد، فعاد بمثل ذلك، فقال: «كأنك تستخف بأولاد الخليفة؟»، قال: «لا، ولكن العلم أزينُ عند أهله من أن تصيِّعوه»، قال: فجثا على ركبتيه، ثم سأله، فقال شريك: «هكذا يطلب العلم»(٢).

وعن سعيد بن بشير: كان مالك إذا سئل عن مسألة يظن أن صاحبها غير متعلم وأنه يريد المغالطة، زجره بهذه الآية: ﴿وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩].

وقال عبد الرزاق: بينا نحن في المسجد الحرام؛ فقيل لنا: «هذا مالك»، فلقيناه داخلًا من باب بني هاشم وعليه رداء وقميص صنعاني، فطاف بالبيت،

---

(١) «تاريخ بغداد» (٦/ ٣٣٥).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٢٠٧).

وخرج ناحية الصفا، فصلى ركعتين، ثم احتبى، فلما فرغ؛ احتوشناه كما يصنع أصحاب الحديث، فلما جلسنا قام من بيننا كالمغضب، فجئنا مشائخنا، فقالوا: «أي شيء كتبتم عن مالك؟»، فأخبرناهم بالذي فعل، فقالوا: «الذي فعلتم لا يحتمله مالك»، فلما كان من الغد جئنا واحدًا واحدًا، وعلينا السكون، فحدَّثَنا، وقال: «الذي فعلتم أمسِ فعلُ السفهاء»[١].

وعن معاذ بن سعيد قال: كنا عند عطاء بن أبي رباح، فتحدث رجل بحديث فاعترض له آخر في حديثه، فقال عطاء: «سبحان الله! ما هذه الأخلاق؟! ما هذه الأخلاق؟! إني لأسمع الحديث من الرجل وأنا أعلم به، فأريه أني لا أحسن منه شيئًا»[٢].

وتراه يصغي للحديث بسمعه   وبقلبه ولعله أدرى به

ورأى الفضيل قومًا من أصحاب الحديث يمرحون ويضحكون، فناداهم: «مَهْلًا يا ورثة الأنبياء، مهلًا - ثلاثًا - إنكم أئمة يقتدى بكم»[٣].

وعن عبد الرحمن بن عمر قال: ضحك رجل في مجلس عبد الرحمن بن مهدي، فقال: «من ضحك؟»، فأشاروا إلى رجل، فقال: «تطلب العلم وأنت تضحك؟! لا حدثتكم شهرًا»[٤].

وعن عبد الرحمن بن مهدي قال: ضحك رجل عند هشام الدستوائي، فقال

(١) «ترتيب المدارك» (١/ ١٥٧).

(٢) ونظير هذا الخلق ما قال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن الرجل ليحدثني بالحديث قد سمعته أنا قبل أن تلده أمه، فيحملني حسنُ الأدب أن أسمعه منه» كما في «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٨٦).

(٣) سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٣٥).

(٤) «الجامع» للخطيب البغدادي (١/ ١٩٣).

له هشام: «يا فتى تطلب العلم وتضحك!»، قال: فقال: «أليس الله أضحك وأبكى؟!»، فقال هشام: «فابكِ إذَنْ»[(١)].

وعن أحمد بن سنان القطان قال: كان عبد الرحمن بن مهدي لا يُتَحَدثُ في مجلسه، ولا يُبْرَى فيه قلم، ولا يبتسم أحد، فإن تحدث أو بَرَى قلمًا صاح، ولبس نعليه، ودخل، وكذا يفعل ابن نمَيْر، وكان من أشد الناس في هذا. وكان وكيع أيضًا في مجلسه كأنهم في صلاة، فإن أنكر من أمرهم شيئًا انتعل ودخل، وكان ابن نمير يغضب ويصيح، وكان إذا رأى من يبري قلمًا تغيَّر وجهه[(٢)].

قال الإمام الخطيب البغدادي رَحِمَهُ اللهُ: «ويجب على الطالب ألا يقرأ حتى يأذن له المحدث»، ثم ساق بسنده إلى محمد بن عبد الله بن المطلب الشيباني، قال: تقدمت إلى أبي بكر بن مجاهد لأقرأ عليه، فتقدم إليه رجل وافر اللحية كبير الهامة، فابتدأ ليقرأ، فقال: ترفَّق يا خليلي، سمعت محمد بن الجهم السِّمَّري يقول: سمعت الفراء يقول: «أدب النفس، ثم أدب الدرس»[(٣)].

- وهذا محدث أعنفوا عليه في دق الباب؛ فلم يحدثهم[(٤)].

ودخل الحافظ ابن وارة الرازي (ت ٢٧٠ هـ) - وكان فيه زَهْو وخيلاء - على الإمام الشاذَكوني - وهو أحد أئمة الحديث - فقعد يَتَقَعَّرُ في كلامه، قال الشاذكوني: فقلت له: «من أي بلد أنت؟»، قال: «من أهل الري، ألم يأتك

(١) السابق (١/ ١٥٧).
(٢) «الجامع» للخطيب البغدادي (١/ ١٩٣).
(٣) المصدر السابق (١/ ٣٠٣).
(٤) «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم (١/ ٢٦٧).

خبري؟ ألم تسمع بنبئي؟! أنا ذو الرحلتين».

قلت: من روى عن النبي ﷺ: «**إن من الشعر حكمة**»؟ فقال: «حدثني بعض أصحابنا»، قلت: «من؟» قال: «أبو نُعيم، وقَبيصة»[(١)]، قلت: «يا غلام، ائتني بالدِّرَّة»[(٢)] فأتاني بها، فأمرته، فضربه بها خمسين، وقلت: «أنت تخرج من عندي، وما آمن أن تقول: حدثني بعض غلماننا»[(٣)].

وإنما أنكر الإمام الشاذكوني رحمه الله تعالى على الحافظ ابن وارة قوله: «حدثني بعض أصحابنا» وكان ينبغي أن يقول: «حدثني بعض شيوخنا»، أو نحو ذلك.

وقال الحافظ الذهبي:

قال زكريا الساجي: جاء ابن وارة إلى أبي كُريب - وكان في ابن وارة بَأْوٌ أي: كبْر وتِيه- فقال لأبي كريب: «ألم يبلغك خبري؟! ألم يأتك نبئي؟! أنا ذو الرحلتين، أنا محمد بن مسلم بن وارة»، فقال: «وارة؟! وما وارة؟! وما أدراك ما وارة؟! قم، فوالله لا حدثتُك، ولا حدثت قومًا أنت فيهم»[(٤)].

وذكر البرهان البقاعي أنه سأله بعض العجم أن يقرأ عليه، فأذن له، فجلس متربعًا، فامتنع من إقرائه، وقال له: «أنت أحوج إلى الأدب منك إلى العلم الذي جئت تطلبه»[(٥)].

---

(١) هما الإمامان الجليلان.
(٢) أي: العصا.
(٣) «نزهة الفضلاء» (٩٣٦/ ٢).
(٤) المصدر السابق (٢/ ٩٣٦).
(٥) «فيض القدير» (١/ ٢٢٥).

وحُكي عن الشمس الجوهري أنه لما شرع في الاشتغال بالعلم طاف على أكابر علماء بلده، فلم يعجبه منهم أحد لحدَّة فهمه، حتى إذا جاء إلى شيخ الإسلام يحيى المناوي، فجلس بين يديه -وفي ظنه أنه يلحقه بمن تقدم- فشرع في القراءة، فتأمل الشيخ، فوجد إصبعًا من أصابع رجله مكشوفة، فانتهره، وقال له: «بحال أنت قليل الأدب، لا يجيء منك في الطلب، غطِّ إصبعك، واستعمل الأدب!»[1] فحُمَّ لوقته، وزال عنه ما كان يجده من الاستخفاف بالناس، ولزم دروسه حتى صار رأسًا عظيمًا في العلم[2].

وعن أبي عبد الرحمن الحَوْضي قال: سأل رجل عفان بن مسلم عن حديث، فحدَّثه، فقال: «زدني في السماع، فإن في سمعي ثقلًا»، فقال له عفان: «الثِّقلُ في كل شيء منك، ليس هو في سمعك بَسْ»[3].

ذم التعالم والتحذير من القول على الله بغير علم:

قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤]، وقال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من صدور العلماء، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، فإذا لم يُبقِ عالمًا اتخذ الناس رؤساء جُهَّالًا فسئلوا فأفتوا بغير علم؛**

---

(١) وقد ذكر بعض المصنفين ضمن آداب المتعلم: أنه يجلس بين يدي أستاذه متأدبًا بسكون، وإطراق رأس، وخضوع، وتواضع، وخشوع، وجلوس الافتراش أو التورك. ويحسن هنا الإقعاء المستحب على بطونها، ويتعاهد تغطية أقدامه، وإرخاء ثيابه، ولا يستند بحضرة الشيخ إلى حائط أو مخدة، ولا يعطي الشيخ جنبه، ولا ظهره. انتهى من. من «العميد في أدب المفيد والمستفيد» (ص ١٣٧)، وانظر أيضًا: «تذكرة السامع والمتكلم» لابن جماعة (ص ٩٧، ٩٨).

(٢) «فيض القدير» (١/ ٢٢٥).

(٣) «الجامع» للخطيب (١/ ١٩٦).

فضلوا وأضلوا»[١].

إن التعالم الكاذب هو عتبة الدخول على جريمة القول على الله بغير علم، المحرمة لذاتها تحريمًا أبديًّا في جميع الشرائع، وهذا مما علم من الدين بالضرورة، وهو مما حَذَّرَناه رسول الله ﷺ أشد التحذير.

فعن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يظهر الإسلام حتى تختلف التجار في البحر، وحتى تخوض الخيل في سبيل الله، ثم يظهر قوم يقرأون القرآن، يقولون: «من أقرأ منا؟! من أعلم منا؟! من أفقه منا؟!»**، ثم قال ﷺ لأصحابه: «**هل في أولئك من خير؟**»، قالوا: «الله ورسوله أعلم»، قال: «**أولئك منكم من هذه الأمة، وأولئك هم وقود النار**»[٢].

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ، أنه قام ليلة بمكة من الليل، فقال: «**اللهم هل بَلَّغت؟**» ثلاث مرات، فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكان أَوَّاهًا[٣] - فقال: اللهم نعم، وحَرَّضتَ، وجَهَدْتَ، ونصحتَ. فقال ﷺ: «**لَيَظهرنَّ الإيمان حتى يُرَدَّ الكفر إلى مواطنه، ولَتُخَاضَنَّ البحار بالإسلام، ولَيأتين على الناس زمان يتعلمون فيه القرآن، يتعلمونه ويقرؤونه، ثم يقولون: قد قرأنا وعلمنا، فمن ذا الذي هو خير منا؟! فهل في أولئك من خير؟!**» قالوا: يا رسول الله، من أولئك؟ قال: «**أولئك منكم، وأولئك هم وقود النار**»[٤].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) قال المنذري: (رواه الطبراني في «الأوسط»، والبزار بإسناد لا بأس به) كما في «الترغيب» (١/ ١٢٩ - ١٣٠)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (١/ ٥٨).

(٣) الأواه: المتأوه المتضرع، وقيل: الكثير البكاء، وقيل: الكثير الدعاء.

(٤) قال المنذري: (رواه الطبراني في «الكبير» وإسناده حسن إن شاء الله تعالى). اهـ. (١/ ١٣٠)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (١/ ٥٨).

وعن عبد الله وأبي موسى رضي الله عنهما قالا: قال ﷺ: «**إن بين يدي الساعة لأيامًا ينزل فيها الجهل، ويُرْفَع فيها العلم، ويكثر فيها الهرج...**» الحديث[١].

وعن أنس رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «**من أشراط الساعة أن يقل العلم ويظهر الجهل**»[٢].

قال بعض الفضلاء: «وجدت جميع العلوم في ازدياد إلا علم الدين، فعلمت أنه المقصود في الحديث». وصدق رحمه الله؛ فها هو العلم في زماننا قد استدبر. وها هو البغاث بأرضنا قد استنسر[٣].

قد أعْوَزَ الماءُ الطهُور وما بقي غيرُ التيممِ لو يَطيب صعيدُ

ذكر أبو عمر عن مالك قال: أخبرني رجل أنه دخل على ربيعة فوجده يبكي، فقال: «ما يبكيك؟ أمصيبة دخلت عليك؟»، وارتاع لبكائه، فقال: «لا، ولكن استُفتِي من لا علم له، وظهر في الإسلام أمر عظيم»، قال ربيعة: «ولَبعض من يفتي ها هنا أحق بالحبس من السُّرَّاق»[٤].

وأفضح ما يكون للمرء: دعواه بما لا يقوم به، وقد عاب العلماء ذلك قديمًا وحديثًا:

قال الإمام ابن حزم رحمه الله: «لا آفة على العلوم وأهلها أضرّ من الدُّخَلاء فيها وهم من غير أهلها، فإنهم يجهلون ويظنون أنهم يعلمون، ويُفسدون ويقدرون أنهم يُصلحون».

---

(١) رواه البخاري (١٣/ ١٣).

(٢) رواه البخاري (١/ ١٧٨).

(٣) البُغاث: طائر أغبر. واستنسر: صار عزيزًا كالنسر بعد أن كان من ضعاف الطير.

(٤) تقدم.

وقال الإمام ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «يلزم ولي الأمر منعهم - أي: من الفتيا - كما فعل بنو أمية. . .» إلى أن قال: «وإذا تعيَّن على ولي الأمر منعُ من لم يُحسن التطبيب ومداواة المرضى، فكيف بمن لم يعرف الكتاب والسنة، ولم يتفقه في الدين؟!»[(١)].

وقال الخطيب البغدادي رَحِمَهُ اللهُ: «ينبغي للإمام أن يتصفح أحوال المفتين، فمن صلح للفتيا أقرَّه، ومن لا يصلح منعه ونهاه أن يعود، وتواعده بالعقوبة إن عاد»[(٢)].

وقال الإمام المحقق ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ اللهُ: «من أقرهم من ولاة الأمور؛ فهو آثم»[(٣)].

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ يرى أنه ينبغي أن يكون على المفتين محتسب، وقال: «يكون على الخبازين والطباخين محتسب، ولا يكون على الفتوى محتسب؟!»[(٤)].

وقال الإمام الماوردي رَحِمَهُ اللهُ: «وإذا وجد - المحتسب - من يتصدى لعلم الشرع وليس من أهله من فقيه أو واعظ، ولم يأمن اغترار الناس به في سوء تأويل أو تحريف، أنكر عليه التصدي لما هو ليس من أهله، وأظهر أمره لئلا يُغترَّ به»[(٥)]. اهـ.

فينبغي لمن تصدى للتعليم والإفتاء أن يكون أهلًا لذلك، وإلا فهو خائن

(١) «إعلام الموقعين» (٤/ ٢٧٦).
(٢) «المجموع شرح المهذب» (١/ ٧٣).
(٣) «إعلام الموقعين» (٤/ ٢٧٦).
(٤) السابق (٤/ ٢٧٧).
(٥) «الأحكام السلطانية» (ص ٢٤٨).

للأمانة، ينطبق عليه قول رسول الله ﷺ: «**إذا ضيِّعت الأمانة، فانتظر الساعة**»، قيل: «كيف إضاعتها؟» قال: «**إِذا أُسند الأمر إِلى غير أهله فانتظر الساعة**»[١].

قال ابن الحاج رحمه الله في كتابه «المدخل» بعد أن حكى من حال بعض المنتسبين إلى العلم ما لا يليق بهم: ولهذا المعنى كان سيدي أبو محمد - بنُ أبي جمرة رحمه الله إذا ذُكِر له واحد من علماء وقته ممن يُنسَب إلى طَرَف مما ذُكِر ويُثْنَى عليه إذ ذاك بفضيلة العلم، يقول: «ناقل، ناقل»؛ خوفًا منه رحمه الله على منصب العلم أن يُنسب إلى غير أهله، وخوفًا من أن يكون ذلك كذبًا أيضًا؛ لأن الناقل ليس بعالم في الحقيقة، وإنما هو صانع من الصناع؛ كالخياط والحداد والقصار . . .[٢]. اهـ.

وعن معاوية بن عمرو بن المهلب الأزدي قال: كان زائدة لا يحدِّث أحدًا حتى يمتحنه، فإن كان غريبًا قال له: «من أين أنت؟»، فإن كان من أهل البلد، قال: «أين مصلاك؟»، ويسأل كما يسألُ القاضي عن البينة. فإذا قال له، سأل عنه، فإن كان صاحب بدعة، قال: «لا تعودنَّ إلى هذا المجلس»، فإن بلغه عنه خير أدناه وحدثه، فقيل له: «يا أبا الصلت، لم تفعل هذا؟» قال: «أكره أن يكون العلم عنده، فيصيروا أئمة يُحتاج إليهم، فيبدِّلوا كيف شاؤوا»[٣].

وقال مغيرة: «إني لأحتسب في منعي الحديث، كما يحتسبون في بذله».

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه - البخاري رقم (٦٤٩٦) (١١/ ٣٣٣ - فتح)، وغيره.
(٢) «المدخل» (١/ ١٧).
(٣) «المحدث الفاصل» للرامهرمزي (ص ٨٠٣).

من العالم؟

العالم هو: من يخشى الله ﷻ، ويعمل بمقتضى علمه.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «ليس العلم عن كثرة الحديث، إنما العلم خشية الله»[(١)]، وعنه رضي الله عنه قال: «كونوا للعلم رُعاةً، ولا تكونوا له رواة؛ فإنه قد يرْعَوي ولا يَروي، وقد يروي ولا يرعوي»[(٢)].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «لا تكون تقيًّا حتى تكون عالمًا، ولا تكون بالعلم جميلًا حتى تكون به عاملًا»[(٣)].

وعن الحسن قال: «العالم: الذي وافق علمَه عملُه، ومن خالف علمَه عملُه فذلك راويةُ حديث، سمع شيئًا فقاله»[(٤)].

وعنه رحمه الله قال: «الذي يفوق الناسَ في العلم جدير أن يفوقهم في العمل»[(٥)]، وعنه في قوله تعالى: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ [الأنعام: ٩١] قال: «عُلِّمتم فعلِمْتُم ولم تعملوا، فوالله ما ذلكم بعلم»[(٦)].

وعن سفيان الثوري قال: «العلم يهتف بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل»[(٧)].

وعنه رحمه الله قال: «العلماء إذا علموا عملوا، فإذا عملوا شُغلوا، فإذا شُغلوا

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (١٨٥)، وأبو داود في «الزهد» رقم (١٨٢)، والطبراني في «الكبير» رقم (٨٥٣٤).

(٢) رواه ابن عبد البر في «الجامع» (١٢٣٨).

(٣) رواه الدارمي في «السنن» (١/ ٨٨).

(٤) رواه ابن عبد البر في «الجامع» رقم (١٢٤١).

(٥) السابق رقم (١٢٧٠).

(٦) السابق رقم (١٢٧٣).

(٧) السابق رقم (١٢٧٤).

فُقدوا، فإذا فُقدوا طلبوا، فإذا طُلبوا هربوا»(١).

وقد ختم الله كثيرًا من الآيات الداعية إلى الفضائل بقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٤]، ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ٤] إشارة إلى أن العلم باعث على العمل بها، ومثله قوله ﷺ: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا**» الحديث(٢).

✍ويُعرف العالم:

- بجده في طلب العلم، واجتهاده في التفقه في الدين، والتلقي عن المشايخ وملازمتهم زمنًا طويلًا معتبرًا. قال إبراهيم بن الأشعث: «إذا وجدتم الرجل معروفًا بشدة الطلب ومجالسة الرجال؛ فاكتبوا عنه»(٣).

- بشيوخه؛ من هم؟ وكيف هم؟ ثم بشهادتهم له أو إجازتهم إياه. قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا ينبغي لرجلٍ يرى نفسه أهلًا لشيء حتى يسأل من كان أعلم منه، وما أفتيت حتى سألت ربيعة ويحيى بن سعيد فأمراني بذلك، ولو نهياني لانتهيت(٤). وقال أيضًا: ليس كل من أحب أن يجلس في المسجد للتحديث والفتيا جلس، حتى يشاور فيه أهل الصلاح والفضل. وأهل الجهة من المسجد، فإن رأوه أهلًا لذلك جلس، وما جلست حتى شهد لي سبعون شيخًا من أهل العلم أني موضع لذلك(٥). اهـ.

- باستقامته على منهج أهل السنة والجماعة، وهدي السلف الصالح،

---

(١) رواه ابن عبد البر في «الجامع» رقم (١٢٤٩).
(٢) رواه البخاري (٨/ ٢١٠ - ٢١١)، ومسلم رقم (٢٣٥٩).
(٣) «الرحلة في طلب الحديث» (ص ٩١).
(٤) انظر: «حلية الأولياء» (٦/ ٣١٦)، و«الفقيه والمتفقه» (٢/ ١٥٤).
(٥) «الديباج المذهَّب في علماء المذهب» لابن فرحون (ص ٢١).

وبراءته من البدع الضالة.

- بآثاره من الإنتاج العلمي والتصنيف، والدروس والفتاوى، وكذا تلاميذه.

- بتميزه بالعبادة والتنسك والتورع والخشوع، والمروءة ومحاسن الأخلاق.

- برسوخ قدمه في مواطن الشبهات حين تضلَّ الأفهام، وتتزلزل الأقدام، قال الإمام المحقق ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى: إن الراسخ في العلم لو وردت عليه من الشبه بعدد أمواج البحر ما أزالت يقينه، ولا قدحت فيه شكًّا؛ لأنه قد رسخ في العلم فلا تستفزه الشبهات، بل إذا وردت عليه ردَّها حرسُ العلم مغلولة مغلوبة[1]. اهـ.

- بمواقفه العلمية والعملية، وثباته في الفتن والابتلاءات، وأخذه بحظ وافر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومعايشته لأحوال مصره، وتفاعله مع أحداث عصره. فهؤلاء العلماء المحتسبون الذين وصفهم الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد بأنهم:

لم يتخلفوا في كهوف «القَعَدة» الذين صرفوا وجوههم عن آلام أمتهم، وقالوا: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢]، وكأنما عناهم - أي: القعدة - شوقي بقوله:

وقد يموت كثير لا تُحِسُّهُم ... كأنهم من هوان الخطب ما وُجدوا

بل نزلوا ميدان الكفاح وساحة التبصير بالدين). اهـ.

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٤٠).

- بأن يوضع له القَبول في الأرض: فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ قال: «**إن الله إذا أحب عبدًا دعا جبريل، فقال: إني أحب فلانًا فأحِبَّه، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء، فيقول: إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبولُ في الأرض...**»(١) الحديث.

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: مَروا بجنازة فأثنوا عليها خيرًا، فقال النبي ﷺ: «**وجبت**»، ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شرًّا، فقال: «**وجبت**»، فقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما وجبت؟ قال: «**هذا أثنيتم عليه خيرًا فوجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شرًّا فوجبت له النار؛ أنتم شهداء الله في الأرض**»(٢)، وفي رواية: «**المؤمنون شهداء الله في الأرض**»(٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: . . . ومن له في الأمة لسانُ صدق عامّ بحيث يُثْنَى عليه ويُحمد في جماهير أجناس الأمة؛ فهؤلاء أئمة الهدى ومصابيح الدجى(٤). اهـ.

✍حتى لا يشتبه العلماء بغيرهم:

لقد أفرز الواقع الأليم الذي أطلَّت فيه الفتن برأسها، وشهَّرت العالمانية سيفها، وغُيِّب فيه كثير من العلماء الربانيين، وحيل بينهم وبين الشباب -

---

(١) رواه البخاري (١٣/ ٤٦١) في التوحيد، ومسلم رقم (٢٦٣٧)، والترمذي رقم (٣١٦٠)، وزاد: «**فذلك قول الله**: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ۝٩٦﴾ [مريم: ٩٦].

(٢) رواه البخاري (٣/ ١٨١)، ومسلم رقم (٩٤٩)، وأحمد (٣/ ١٧٩)، والترمذي رقم (١٠٥٨)، والنسائي (٤/ ٤٩، ٥٠).

(٣) رواه البخاري (٥/ ١٨٥).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٤٣).

ظاهرة جديرة بالحذر؛ وهي بروز طائفة من الشباب المتحمسين للذَّبِّ عن دينهم، ونشر سنة نبيهم ﷺ، وتأدية فرض الكفاية بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحياء الدعوة إلى الله، وتجديد شباب الإسلام.

وقد أثمرت جهودهم بالفعل ثمارًا مباركة لا ينكِرها إلا جاحد، منها:

- التصدي لشبهات الزنادقة والمنافقين وسائر أعداء الدين.

- انتعاش مهمة «البلاغ العام» بدعوة عموم المسلمين من خلال الخطابة والمحاضرات، وغيرها.

- تذكير الفاسقين بالله، وحثهم على التوبة إليه ﷻ، وضمهم إلى صفوف المستقيمين.

- إحياء العلم الشرعي، وازدهار حلق العلم، وتنشيط الحركة العلمية الإسلامية.

- الرد على أهل البدع المنحرفين عن منهج السلف الصالح.

- تناول القضايا الواقعية التي تمسّ واقع الحياة من حولهم بطريقة مباشرة من خلال المنظور الإسلامي.

إن من الظلم البين أن يوصف هؤلاء الدعاة بالتمرد والعقوق لأهل العلم؛ لأنهم سدوا ثغرات كثيرٍ من الفروض الكفائية، ورفعوا كثيرًا من الحرج عن سائر الأمة:

أقلوا عليهم لا أبا لأبيكم من اللوم ... أو سُدّوا المكان الذي سَدُّوا

وكثير منهم نشأ في مواقع نضب فيها العلم وغاب العلماء، لا أنهم وجدوا العلماء فزهدوا في الجثو بين أيديهم، والنَّهَل من علمهم، فلسان حالهم يخاطب العلماء:

لا تظنوا بنا العقوق ولكن أرشدونا إن ضللنا الرشادا

فكان من الطبيعي والمتوقع أن يتلبسوا – خلال الممارسة الدعوية – بأخطاء نتيجة عدم تدرجهم في سُلَّم التعلم والتفقه، بل التأدب بكثير مما مرّ ذكره، فظهرت نتوءات شاذة في فكر وسلوك بعضهم تحتاج إلى أن يعالجها العلماء بالتهذيب والإصلاح، **من أخطرها**:

– انتزاع حقوق ليست لهم في الحقيقة كحق الفُتْيا؛ بل الاستبداد بها في بعض الأحيان، بل محاكمة العلماء والجرأة عليهم كما مرّ ذكره، والاستغناء عن الاستهداء باجتهادهم في قضايا محورية.

وزاد الطين بلة أنهم خُدعوا بالتفاف الجماهير حولهم، فتصرفوا كمراكز قوى تضغط على العلماء، وتستمد مصداقيتها من الواقع المفروض، لا من المؤهلات الشرعية المعتبرة.

وهذا الواقع هو الذي يُحْوِجنا الآن إلى ضبط الأمور وإعادة ترتيبها، وإعطاء كل ذي حقٍّ حقه، وذلك: بدعوة الجميع إلى ضرورة التفريق بين العالم الحقيقي، وبين كل من: طالب العلم، والناقل، والداعية، والواعظ، والعابد، والخطيب، والقارئ، والمثقف، والمفكر، والمجاهد... إلخ.

فلكل وجهة هو موليها، ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]، دون أن يتسوَّر غير العالم على العلم، ودون أن ينازع الأمر أهله، ودون أن يحقر من فُتح عليه في باب من أبواب البر مَن فُتح عليه في غيره، على أن يبقى «العلم» هو الحَكَم، فيكون أسعد المذكورين حظًّا أشدهم التحامًا بالعلم والعلماء، وبذلك نُوفِّي حاجة الأمة إلى تجارب الشيوخ وعلومهم، وطاقة الشباب وجهودهم[١].

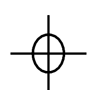
(١) «الإعلام بحرمة أهل العلم والإسلام» (ص: ٤٠٢).

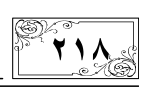
قال الحافظ ابن عبد البَر في «التمهيد»: هذا كتبته من حفظي، وغاب عني أصلي: إن عبد البر العُمري العابد كتب إلى مالك يحضُّه على الانفراد والعمل، فكتب إليه مالك: إن الله قسَّم الأعمالَ كما قسم الأرزاقَ، فرُبَّ رجلٍ فُتح له في الصلاة، ولم يُفتح له في الصوم، وآخَرُ فُتح له في الصدقة ولم يُفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الجهاد، فنشر العلم من أفضل أعمال البر، وقد رضيتُ بما فُتح لي فيه، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خيرٍ وبِرٍّ[١].

من فوائد (العلم):

- به يعرف الله ويعبد ويوحّد.
- هو أساس صحّة الاعتقادات والعبادات.
- طلب العلم عبادة.
- هو طريق الوصول إلى الجنّة.
- يكسب صاحبه الخشية لله.
- يكسب صاحبه التّواضع للخَلْق.
- ينتفع به صاحبه وينتفع به غيره ممّن علّمه.
- يبقى أجره بعد انقطاع أجل صاحبه.
- يَورث صاحبه أعلى المراتب بعد الأنبياء.
- يرفع الوضيع ويعزّ الذّليل ويجبر الكسير.

(١) نقله الذهبي في «السير» (٨/ ١١٤)، نقلًا عن «الإعلام بحرمة أهل العلم والإسلام» (ص: ٤٠٣).

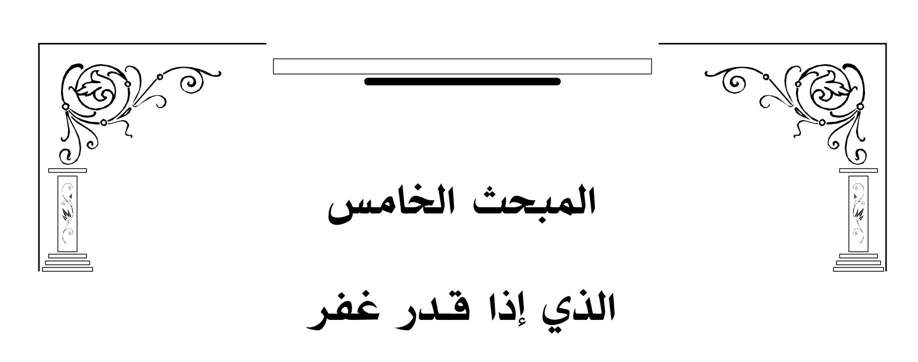




- هو دليل حبّ الخير للآخرين؛ لحرص صاحبه على إخراج النّاس من ظلمات الجهل إلى نور العلم.

- به تُوصل الأرحام وتُؤدّى الحقوق.





المبحث الخامس

الذي إذا قدر غفر

(العفو والصفح والغفران)[1]

السؤال الخامس وهو قول موسى الكليم عليه السلام: فَأَيُّ عِبَادِكَ أَعَزُّ؟ قَالَ ربنا: الَّذِي إِذَا قَدَرَ غَفَرَ

وانطلاقًا من هذا الجواب من الملك الوهاب، هيا بنا لنعيش مع العفو والصفح في الصفحات التالية:

العفو لغةً: مصدر قولهم: عفا يعفو عفوًا، وهو مأخوذ من مادّة (ع ف و) الّتي تدلّ على معنيين أصليّين: الأوّل:

ترك الشّيء، والآخر طلبه[2]، ومن المعنى الأوّل: عفو الله تعالى عن

(١) هذا الموضوع يمكن أن يوسم بأكثر من اسم، فمثلًا: العفو والصفح والحلم والغفران، وجميعها متقاربة، وأنا هنا سأتناولها على هذا الأساس، وهي أنها بمعنى واحد، لا سيما في الاستشهادات والمواقف، ومن تتبع كلام أهل العلم سيجد أن هذا متعارف عليه ومسطور في كتب السابقين.

(٢) ومن هذا المعنى الثاني: العفاة وهم طلاب المعروف، ومن ذلك أيضًا: أعطيته المال عفوًا: أي من غير طلب. انظر هذه المعاني وما أشبهها في المقاييس (٤/ ٦١) وما بعدها.

خلقه، وذلك تركه إيّاهم فلا يعاقبهم فضلًا منه تعالى، قال الخليل: العفو تركك إنسانًا استوجب عقوبة فعفوت عنه، والله سبحانه هو العفوّ الغفور، قال ابن فارس: وقد يكون أن يعفو عن الإنسان بمعنى التّرك، ولا يكون ذلك عن استحقاق، ألا ترى إلى قوله ﷺ: «**عفوت عنكم عن صدقة الخيل**»؛ فليس العفو هاهنا عن استحقاق، ويكون معناه: تركت أن أوجب عليكم الصّدقة (أي: الزّكاة) في الخيل.

وذهب الرّاغب إلى أنّ العفو له معنى واحد هو: القصد لتناول الشّيء، يقال من ذلك: عفاه واعتفاه أي: قصده متناولًا ما عنده. وعفت الرّيح الدّار أي: قصدتها متناولة آثارها، ومن هذا أيضًا العفو بمعنى التّجافي عن الذّنب، وقولهم: عفوت عنه: قصدت إزالة ذنبه صارفًا عنه، فالمفعول في الحقيقة متروك (وهو الذّنب)، وقول الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] أي: ما يسهل قصده وتناوله، وقيل: معناه: تعاطي العفو عن النّاس، وقولهم في الدّعاء: أسألك العفو والعافية أي: ترك العقوبة والسّلامة.

وقال الجوهريّ: يقال: عفوت عن ذنبه: إذا تركته ولم تعاقبه، والعفو على فعول: الكثير العفو، ويقال: عفوته أي: أتيته أطلب معروفه، واعتفيته مثله، وعفو المال: ما يفضل عن الصّدقة، ويقال: أعفني من الخروج معك: أي دعني منه، وهذا راجع إلى معنى التّرك، واستعفاه من الخروج أي: سأله الإعفاء منه، والعافية دفاع الله عن العبد، وهي اسم وضع موضع المصدر: يقال: عافاه الله عافية.

وقال ابن الأثير: أصل العفو: المحو والطّمس، ومنه حديث أمّ سلمة: «قلت لعثمان: لا تعف سبيلًا كان رسول الله ﷺ لَحَبَهَا؛ أي: لا تطمسها، والعفو في حديث أبي بكر رضي الله عنه: «سلوا الله العفو والعافية والمعافاة» معناه:

محو الذّنوب.

وقال ابن منظور: وأمّا العافية فهي أن يعافيه الله تعالى من سقم أو بليّة، وهي: الصّحّة ضدّ المرض، يقال: عافاه الله وأعفاه أي: وهب له العافية من العلل والبلايا، وأمّا المعافاة فأن يعافيك الله من النّاس ويعافيهم منك، أي: يغنيك عنهم ويغنيهم عنك، ويصرف أذاهم عنك ويصرف أذاك عنهم، وقيل: هي مفاعلة من العفو، وهو أن يعفو عن النّاس ويعفوا هم عنه[١].

العفو من أسماء الله تعالى: قال ابن الأثير: من أسماء الله تعالى «العفوّ» هو فعول من العفو، وهو التّجاوز عن الذّنب وترك العقاب عليه، وأصله المحو والطّمس، وهو من أبنية المبالغة[٢].

وقال الغزاليّ: والعفو صفة من صفات الله تعالى، وهو الّذي يمحو السّيّئات ويتجاوز عن المعاصي، وهو قريب من الغفور ولكنّه أبلغ منه، فإنّ الغفران ينبأ عن السّتر، والعفو ينبأ عن المحو، والمحو أبلغ من السّتر. وحظّ العبد من ذلك لا يخفى وهو أن يعفو عن كلّ من ظلمه بل يحسن إليه، كما يرى الله تعالى محسنًا في الدّنيا إلى العصاة والكفرة غير معاجل لهم بالعقوبة. بل ربّما يعفو عنهم بأن يتوب عليهم، وإذا تاب عليهم محا سيّئاتهم؛ إذ التّائب من الذّنب كمن لا ذنب له. وهذا غاية المحو للجناية[٣].

وقال ابن القيّم رحمه الله تعالى: ومن حكمة الله ﷻ تعريفه عبده أنّه لا

---

(١) مقاييس اللغة (٤/ ٥٦)، وكتاب العين للخليل بن أحمد (٢/ ٢٥٨)، والمفردات للراغب (٣٤٠)، والصحاح (٦/ ٢٤٣٣)، والنهاية (٢/ ٢٦٥)، ولسان العرب (٤/ ٣٠٢٠) - ط. دار المعارف.

(٢) النهاية في غريب الحديث (٣/ ٢٦٥).

(٣) المقصد الأسنى (١٤٠).

سبيل له إلى النّجاة إلّا بعفوه ومغفرته- جلّ وعلا- وأنّه رهين بحقّه، فإن لم يتغمّده بعفوه ومغفرته، وإلّا فهو من الهالكين لا محالة، فليس أحد من خلقه إلّا وهو محتاج إلى عفوه ومغفرته كما هو محتاج إلى فضله ورحمته(١).

العفو اصطلاحًا:

قال المناويّ: العفو: القصد لتناول الشّيء والتّجاوز عن الذّنب(٢).

وقال الكفويّ: العفو: كفّ الضّرر مع القدرة عليه، وكلّ من استحقّ عقوبة فتركها فهذا التّرك عفو(٣).

وقال أيضًا: العفو عن الذّنب يصحّ رجوعه إلى ترك ما يستحقّه المذنب من العقوبة، وإلى محو الذّنب، وإلى الإعراض عن المؤاخذة كما يعرض المرء عمّا يسهل على النّفس بذله(٤).

الفرق بين العفو والصفح:

الصّفح والعفو متقاربان في المعنى، فيقال: صفحت عنه: أعرضت عن ذنبه وعن تثريبه، كما يقال: عفوت عنه.

إلّا أنّ الصّفح أبلغ من العفو، فقد يعفو الإنسان ولا يصفح، وصفحت عنه: أوليته صفحة جميلة(٥).

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٣١٣).

(٢) التوقيف (٢٤٣)، وقد ذكر المناوي تعريفًا آخر عن الحرالي ليس مما نحن فيه، وهو أن العفو ما جاء بغير تكلف ولا كره.

(٣) الكليات (٥٣)، وانظر أيضًا (٥٩٨).

(٤) انظر: الكليات للكفوي (٦٣٢).

(٥) بصائر ذوي التمييز (٣/ ٤٢١).

الفرق بين العفو والغفران:

يتمثّل الفرق بين العفو والغفران في أمور عديدة أهمّها:

- أنّ الغفران يقتضي إسقاط العقاب ونيل الثّواب ولا يستحقّه إلّا المؤمن، ولا يكون إلّا في حقّ البارئ - تعالى -.

- أمّا العفو فإنّه يقتضي إسقاط اللّوم والذّمّ ولا يقتضي نيل الثّواب، ويستعمل في العبد أيضًا.

- العفو قد يكون قبل العقوبة أو بعدها. أمّا الغفران؛ فإنّه لا يكون معه عقوبة ألبتّة ولا يوصف بالعفو إلّا القادر عليه.

- في العفو إسقاط للعقاب، وفي المغفرة ستر للذّنب وصون من عذاب الخزي والفضيحة(١).

الآيات الواردة في العفو والصفح

الآيات الواردة في العفو:

العفو بمعنى الصفح:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [البقرة: ٥١، ٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ

(١) الكليات للكفوي (٦٣٢، ٦٦٦) بتصرف يسير.

ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقال تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٣، ١٣٤].

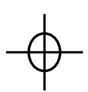
وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

وقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [النور: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشورى: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤].



الآيات الواردة في الصفح[1]:

الصفح عن المذنبين من المسلمين:

قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٢٢﴾ [النور: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤].

الصفح عن أهل الكتاب:

وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّۖ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ١٠٩﴾ [البقرة: ١٠٩].

وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنْهُمْۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣].

الصفح عن المشركين:

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ٨٥﴾ [الحجر: ٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٞ لَّا يُؤْمِنُونَ ٨٨ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٞۚ

(١) المتأمل في الآيات سيجدها متكررة في المعنيين، ولكن فصلنا القول فيها لتعم الفائدة وتستخرج المعاني من كتاب الله المجيد.

فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الزخرف: ٨٨، ٨٩].

وبعد ذكرنا لكلام الرحمن نعيش مع سنة النبي ﷺ:

أحاديث في العفو والصفح:

وَعَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: لَقِيتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِي، فَقُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي التَّوْرَاةِ، فَقَالَ: أَجَلْ، وَاللهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِصِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأحزاب: ٤٥] وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ، وَأَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ، لَسْتَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا سَخَّابٍ[(١)] بِالْأَسْوَاقِ - قَالَ يُونُسُ: وَلَا صَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ - وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ، بِأَنْ يَقُولُوا: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَيَفْتَحَ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا»[(٢)(٣)].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ**[(٤)]**، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا**[(٥)]، ....

---

(١) سخاب: بالسين، وصخاب: بالصاد: وهو رفع الصوت بالخصام.

(٢) غلف: كل شيء في غلاف، سيف أغلف، وقوس غلفاء، ورجل أغلف: إذا لم يكن مختونًا.

(٣) البخاري- الفتح ٤ (٢١٢٥)، (٨/ ٤٨٣٨) هذه الرواية في الجزء الرابع وهي في الثامن بالرقم المبين: «فيفتح بها أعينًا عميًا وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غلفًا».

(٤) «**ما نقصت صدقة من مال**»: ذكروا فيه وجهين: **أحدهما**: معناه: أنه يبارك فيه ويدفع عنه المضرات، فينجبر نقص الصورة بالبركة الخفية. وهذا مدرك بالحس والعادة.

والثاني: أنه وإن نقصت صورته، كان في الثواب المرتب عليه جبر لنقصه وزيادة إلى أضعاف كثيرة.

(٥) و«ما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا»: فيه أيضًا وجهان: **أحدهما**: على ظاهره، ومن عُرف=

وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ»(١)(٢).

وَعَنْ أَبِي إِسْحَاقَ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ الجَدَلِيَّ يَقُولُ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ. فَقَالَتْ: لَمْ يَكُنْ فَاحِشًا وَلَا مُتَفَحِّشًا وَلَا صَخَّابًا فِي الأَسْوَاقِ، وَلَا يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ(٣).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**كَانَ رَجُلٌ يُدَايِنُ النَّاسَ، فَكَانَ يَقُولُ لِفَتَاهُ: إِذَا أَتَيْتَ مُعْسِرًا، فَتَجَاوَزْ عَنْهُ، لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا**». قَالَ: «فَلَقِيَ اللهَ ﷻ **فَتَجَاوَزَ عَنْهُ**»(٤).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مِنْ أَقَالَ مُسْلِمًا؛ أَقَالَ اللَّهُ عَثْرَتَهُ**»(٥).

وَعَنْ هَيَّاجِ بْنِ عِمْرَانَ الْبُرْجُمِيِّ، أَنَّ غُلَامًا لِأَبِيهِ أَبَقَ(٦) فَجَعَلَ لِلَّهِ – تَبَارَكَ

= بالعفو والصفح ساد وعظم في القلوب، وزاد عزه وإكرامه.
والثاني: أن المراد أجره في الآخرة وعزه هناك.

(١) **وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله: فيه أيضًا وجهان: أحدهما**: يرفعه في الدنيا ويثبت له بتواضعه في القلوب منزلة، ويرفعه الله عند الناس ويجل مكانه. **والثاني**: أن المراد ثوابه في الآخرة رفعه فيها بتواضعه في الدنيا. قال العلماء: وهذه الأوجه في الألفاظ الثلاثة موجودة في العادة معروفة. وقد يكون المراد الوجهين معًا في جميعها في الدنيا والآخرة.

(٢) مسلم (٢٥٨٨).

(٣) أحمد (٦/ ١٧٤) وأصله عند البخاري ومسلم. وهذا لفظ الترمذي (٢٠١٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٤) البخاري- الفتح ٦ (٣٤٨٠).

(٥) أبو داود رقم (٣٤٦٠). وابن ماجه رقم (٢١٩٩) واللفظ له. وقال محقق منتقى مكارم الأخلاق (ص ٨٤): إسناده صحيح. وقال الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢/ ٦٦٢): صحيح.

(٦) أبق: أي هرب من غير خوف، من باب (قتل وضرب).

وَتَعَالَى - عَلَيْهِ إِنْ قَدَرَ عَلَيْهِ أَنْ يَقْطَعَ يَدَهُ. قَالَ: فَقَدَرَ عَلَيْهِ. قَالَ: فَبَعَثَنِي إِلَى عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ: فَقَالَ: «أَقْرِئْ أَبَاكَ السَّلَامَ وَأَخْبِرْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَحُثُّ فِي خُطْبَتِهِ عَلَى الصَّدَقَةِ، وَيَنْهَى عَنِ الْمُثْلَةِ[1]؛ فَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ وَيَتَجَاوَزْ عَنْ غُلَامِهِ. قَالَ: وَبَعَثَنِي إِلَى سَمُرَةَ فَقَالَ: أَقْرِئْ أَبَاكَ السَّلَامَ وَأَخْبِرْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَحُثُّ فِي خُطْبَتِهِ عَلَى الصَّدَقَةِ، وَيَنْهَى عَنِ الْمُثْلَةِ، فَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ وَيَتَجَاوَزْ عَنْ غُلَامِهِ[2].

من أقوال العلماء والمفسرين الواردة في العفو والصفح:

- قال يوسف عليه السلام لإخوته لمّا حضرته الوفاة: يا إخوتاه، إنّي لم أنتصف لنفسي من مظلمة ظلمتها في الدّنيا، وإنّي كنت أظهر الحسنة وأدفن السّيّئة. فذلك زادي من الدّنيا، يا إخوتي إنّي شاركت آبائي في صالح أعمالهم، فأشركوني في قبورهم[3].

- قال معاوية: عليكم بالحلم والاحتمال حتّى تمكنكم الفرصة، فإذا أمكنتكم فعليكم بالصّفح والإفضال[4].

- عن صالح بن أحمد بن حنبل قال: «قلت لأبي يومًا: إنّ فضلًا الأنماطيّ جاء إليه رجل، فقال: اجعلني في حلّ، قال: لا جعلت أحدًا في حلّ أبدًا، قال: فتبسّم، فلمّا مضت أيّام، قال: يا بنيّ، مررت بهذه الآية ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠] فنظرت في تفسيرها، فإذا هو: إذا كان يوم القيامة قام منادٍ فنادى: لا يقوم إلّا من كان أجره على الله، فلا يقوم إلّا من عفا

(١) المثلة: العقوبة بقطع طرف من الأطراف.
(٢) مسند أحمد مخرجًا (٣٣/ ٨٠).
(٣) المنتقى من مكارم الأخلاق (٨٤).
(٤) إحياء علوم الدين (٣/ ١٨٤).

فجعلت الميّت في حلّ من ضربه إيّاي، ثمّ جعل يقول: وما على رجل ألّا يعذّب الله بسببه أحدًا[١].

- قال ابن تيميّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ذكر الله تعالى في كتابه الصّبر الجميل والصّفح الجميل والهجر الجميل. الصّبر الجميل هو الّذي لا شكوى فيه ولا معه، والصّفح الجميل هو الّذي لا عتاب معه، والهجر الجميل هو الّذي لا أذى معه[٢].

- عن عليّ بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في قوله- تعالى: ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥] قال: الرّضا بغير عتاب[٣].

- عن مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥] قال: هذا الصّفح الجميل كان قبل القتال[٤].

- قال الطّبريّ عند قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ﴾ [التغابن: ١٤]: وإن تعفوا أيّها المؤمنون عمّا سلف منهم من صدّهم إيّاكم عن الإسلام والهجرة، وتصفحوا لهم عن عقوبتكم إيّاهم على ذلك، وتغفروا لهم غير ذلك من الذّنوب[٥].

- عن أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنّه قال: بلغنا أنّ الله تعالى يأمر مناديًا يوم القيامة فينادي: من كان له عند الله شيء فليقم، فيقوم أهل العفو، فيكافئهم الله بما

(١) إحياء علوم الدين (٨٧).
(٢) مدارج السالكين (٢/ ١٦٧)، بتصرف.
(٣) الدر المنثور (٥/ ٩٤).
(٤) المرجع السابق نفسه، والصفحة نفسها.
(٥) جامع البيان (١٢/ ١١٨).

كان من عفوهم عن النّاس(١).

- خطب أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قام رسول الله ﷺ مقامي هذا عام الأوّل، وبكى أبو بكر، فقال أبو بكر: «سلوا الله المعافاة- أو قال: العافية - فلم يؤتَ أحد قطّ بعد اليقين أفضل من العافية - أو المعافاة - عليكم بالصّدق فإنّه مع البرّ وهما في الجنّة، وإيّاكم والكذب فإنّه مع الفجور وهما في النّار، ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تقاطعوا ولا تدابروا وكونوا كما أمركم الله تعالى(٢).

- قال عمر بن الخطّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كلّ النّاس منّي في حلّ(٣).

- عن عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سبق النّبيّ ﷺ، وصلّى أبو بكر وثلّث عمر، ثمّ خطبتنا أو أصابتنا فتنة، يعفو الله عمّن يشاء(٤).

- عن عائشة أمّ المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: صرخ إبليس يوم أحد في النّاس: يا عباد الله، أخراكم، فرجعت أولاهم على أخراهم حتّى قتلوا اليمان، فقال حذيفة: أبي أبي، فقتلوه. فقال حذيفة: غفر الله لكم، قال: وقد كان انهزم منهم قوم حتّى لحقوا بالطّائف(٥).

- عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنّ رجلًا سأله، قال: فما قولك في عليّ

---

(١) الإحياء: (٣/ ١٩٥). ط. دار الكتب العلمية- بيروت ط. ثانية (١٤١٢ هـ/ ١٩٩٢م).

(٢) أحمد في المسند (١/ ٣) وقال محققه الشيخ أحمد شاكر (١/ ١٥٦): إسناده صحيح. ورواه الترمذي (٣٥٥٨) وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه عن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) الآداب الشرعية (١/ ٧١).

(٤) أحمد (١/ ١١٢) وقال أحمد شاكر (٨٩٥): إسناده صحيح، والحديث في مجمع الزوائد (٩/ ٥٤) ونسبه لأحمد، والطبراني في «الأوسط» وقال: رجال أحمد ثقات.

(٥) البخاري - الفتح ١٢ (٦٨٨٣).

وعثمان؟ قال: أمّا عثمان فكان الله عفا عنه، وأمّا أنتم فكرهتم أن يعفو عنه. وأمّا عليّ فابن عمّ رسول الله ﷺ وختنه[١] وأشار بيده فقال: هذا بيته حيث ترون[٢][٣].

- عن ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَدِمَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْنِ حُذَيْفَةَ فَنَزَلَ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ الحُرِّ بْنِ قَيْسٍ، وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الَّذِينَ يُدْنِيهِمْ عُمَرُ، وَكَانَ القُرَّاءُ أَصْحَابَ مَجَالِسِ عُمَرَ وَمُشَاوَرَتِهِ، كُهُولًا كَانُوا أَوْ شُبَّانًا، فَقَالَ عُيَيْنَةُ لِابْنِ أَخِيهِ: يَا بْنَ أَخِي، هَلْ لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الأَمِيرِ، فَاسْتَأْذِنْ لِي عَلَيْهِ، قَالَ: سَأَسْتَأْذِنُ لَكَ عَلَيْهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «**فَاسْتَأْذَنَ الحُرُّ لِعُيَيْنَةَ فَأَذِنَ لَهُ عُمَرُ**»، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ: هِيَ يَا بْنَ الخَطَّابِ، فَوَاللَّهِ مَا تُعْطِينَا الجَزْلَ[٤] وَلَا تَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالعَدْلِ، فَغَضِبَ عُمَرُ حَتَّى هَمَّ أَنْ يُوقِعَ بِهِ، فَقَالَ لَهُ الحُرُّ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وَإِنَّ هَذَا مِنَ الجَاهِلِينَ، «**وَاللَّهِ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلَاهَا عَلَيْهِ، وَكَانَ وَقَّافًا عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ**»[٥].

- قال مالك بن دينار: أتينا منزل الحكم بن أيّوب ليلًا وهو على البصرة أمير، وجاء الحسن وهو خائف فدخلنا معه عليه، فما كنّا مع الحسن إلّا بمنزلة الفراريج، فذكر الحسن قصّة يوسف عليه السلام وما صنع به إخوته، فقال: باعوا

---

(١) معنى «ختنه»: قال الأصمعي: الأختان من قبل المرأة والأحماء من قبل الزوج، والصهر يجمعهما. وقيل: اشتق الختن مما اشتق منه الختان، وهو التقاء الختانين.

(٢) قوله: (هذا بيته حيث ترون): أي وسط بيوت النبي ﷺ وليس في المسجد غير بيته، كما ذكره ابن حجر في الفتح (٧/ ٩١).

(٣) البخاري- الفتح ٨ (٤٥١٥).

(٤) الجزل: الكريم المعطاء، والعاقل الأصيل الرأي.

(٥) البخاري- الفتح ٨ (٤٦٤٢).

أخاهم وأحزنوا أباهم، وذكر ما لقي من كيد النّساء ومن الحبس، ثمّ قال: أيّها الأمير، ماذا صنع الله به؟

أداله منهم، ورفع ذكره، وأعلى كلمته، وجعله على خزائن الأرض، فماذا صنع يوسف حين أكمل الله له أمره وجمع له أهله؟ ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [يوسف: ٩٢]، يعرّض للحكم بالعفو عن أصحابه، قال الحكم: فأنا أقول: لا تثريب عليكم اليوم، ولو لم أجد إلّا ثوبي هذا لواريتكم تحته(١).

- قال الشّافعيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قالوا سكتّ وقد خوصمت قلت لهم ... إنّ الجواب لباب الشّرّ مفتاح
فالعفو عن جاهل أو أحمق أدب ... نعم وفيه لصون العرض إصلاح
إنّ الأسود لتخشى وهي صامتة ... والكلب يحثى ويرمى وهو نبّاح(٢)

من فوائد العفو والصفح:

- الصّفح أعمق من العفو؛ إذ يزيل الله به أثر الضّغائن.

- أمر الله المؤمنين بالصّفح حتّى عن ألدّ الأعداء؛ كي يذوقوا حلاوة الإيمان، فيدخلوا فيه.

- الصّفح من مستلزمات الإحسان، والإحسان أعلى درجات الإيمان.

- الصّفح يقوّي رابطة التّآخي بين أفراد المجتمع ويجعلهم متحابّين متّحدين.

- الأمّة الّتي يتحلّى معظم أفرادها بالصّفح، تكون أمّة سعيدة في الدّنيا

(١) الإحياء (٣/ ١٨٤).
(٢) دليل الفالحين (٣/ ٩٩).

والآخرة. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

- العفو والصفح من مظاهر حسن الخلق.
- العفو والصفح دليل كمال الإيمان وحسن الإسلام.
- العفو والصفح دليل على سعة الصّدر وحسن الظّنّ.
- العفو والصفح يثمر محبّة الله ﷻ ثمّ محبّة النّاس.
- العفو أمان من الفتن وعاصم من الزّلل.
- العفو دليل على كمال النّفس وشرفها.
- كلّ من العفو والصفح يهيّئ المجتمع والنّشء الصّالح لحياة أفضل.
- العفو والصفح طريق نور وهداية لغير المسلمين.

وقفات مع أهل العفو والصفح

العفو والصفح عند رسول الله ﷺ:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اللهُمَّ إِنِّي أَتَّخِذُ عِنْدَكَ عَهْدًا لَنْ تُخْلِفَنِيهِ، إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، فَأَيُّمَا عَبْدٍ جَلَدْتُهُ، أَوْ شَتَمْتُهُ، أَوْ سَبَبْتُهُ؛ فَاجْعَلْهَا لَهُ صَلَاةً وَقُرْبَةً**»[1].

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: «كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ[2] غَلِيظُ الحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَبَذَهُ[3] بِرِدَائِهِ جَبْذَةً شَدِيدَةً، حَتَّى

(١) مسند أحمد ط الرسالة (٩٠٧٤). وانظرصحيح الجامع: (١٢٧٣).

(٢) نجرانيّ: منسوب إلى نجران: موضع بين الحجاز واليمن.

(٣) فجبذه: جبذ وجذب لغتان مشهورتان.

نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَثَّرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ البُرْدِ مِنْ شِدَّةِ جَبْذَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ ضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ[١].

وَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: «مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ، وَلَا امْرَأَةً، وَلَا خَادِمًا، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ، فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ، إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللهِ، فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ ﷻ»[٢].

وَعَن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما، أَنَّهُ غَزَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قِبَلَ نَجْدٍ، فَلَمَّا قَفَلَ[٣] رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَفَلَ مَعَهُ، فَأَدْرَكَتْهُمُ القَائِلَةُ فِي وَادٍ كَثِيرِ العِضَاهِ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتَفَرَّقَ النَّاسُ يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَحْتَ سَمُرَةٍ وَعَلَّقَ بِهَا سَيْفَهُ، وَنِمْنَا نَوْمَةً، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْعُونَا، وَإِذَا عِنْدَهُ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: «**إِنَّ هَذَا اخْتَرَطَ**[٤] **عَلَيَّ سَيْفِي وَأَنَا نَائِمٌ، فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ فِي يَدِهِ صَلْتًا، فَقَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ فَقُلْتُ: اللَّهُ**» - ثَلَاثًا - وَلَمْ يُعَاقِبْهُ وَجَلَسَ[٥].

وَعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ، ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**»[٦].

---

(١) البخاري- الفتح ١٠ (٦٠٨٨) واللفظ له، ومسلم (١٠٥٧).
(٢) مسلم (٢٣٢٨).
(٣) قفل: أي رجع.
(٤) اخترط: أي سلّ.
(٥) البخاري- الفتح ٦ (٢٩١٠) واللفظ له، ومسلم (٨٤٣).
(٦) البخاري- الفتح ١٢ (٦٩٢٩) واللفظ له، ومسلم (١٧٩٢).

النبي ﷺ يصدر العفو العام عن قريش:

سار رسول الله ﷺ من المدينة لعشر مضين من رمضان، وفي الطريق أفطر وأفطر الناس معه لما لقوا من الجهد والمشقة في سفرهم، وكان عددهم حين خروجهم من المدينة عشرة آلاف، ثم انضم إليهم في الطريق عدد من قبائل العرب، وفي (مر الظهران) عثر حرس رسول الله على أبي سفيان واثنين معه، فأسروهم وجاؤوا بهم إلى النبي ﷺ، فأسلم أبو سفيان، وقال العباس- الذي لقيه الرسول في الطريق مسلمًا مهاجرًا إلى المدينة: إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئًا يفتخر به، فقال: «**من دخل دار أبي سفيان فهو آمن**».

ثم وصل الجيش مكة، فأعلن منادي الرسول: من دخل داره وأغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. واستثنى من ذلك خمسة عشر رجلا عظمت جريرتهم في حق الإسلام ورسوله، ثم دخل رسول الله مكة وهو راكب راحلته، منحن على الرحل، حتى لتكاد جبهته تمس قتب الراحلة شكرًا لله على هذا الفتح الأكبر.

ثم طاف الرسول بالبيت، وأزال ما حولها من أصنام بلغت ثلاثمائة وستين، ثم دخل الكعبة وصلى ركعتين فيها، ثم وقف على بابها وقريش تنظر ما هو فاعل بها، فقال فيما قال ساعتئذٍ: «**يا معشر قريش، ما تظنون أني فاعل بكم؟!**»، قالوا: خيرًا؛ أخ كريم وابن أخ كريم، فقال رسول الله ﷺ: «**اليوم أقول لكم ما قال أخي يوسف من قبل**: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢] «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**»[١].

وإذا رحمت فأنت أمٌّ أو أبٌ ... هذان في الدنيا هما الرحماءُ

(١) السيرة النبوية - دروس وعبر (ص: ١٠٠-١١٠).

وإذا صحبت رأى الوفاء مجسمًا في بردِكَ الأصحاب والخلطاءُ

عفو خبيب بن عدي:

عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَشَرَةَ رَهْطٍ سَرِيَّةً عَيْنًا، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَاصِمَ بْنَ ثَابِتٍ الأَنْصَارِيَّ جَدَّ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ، فَانْطَلَقُوا حَتَّى إِذَا كَانُوا بِالهَدَأَةِ - وَهُوَ بَيْنَ عُسْفَانَ وَمَكَّةَ - ذُكِرُوا لِحَيٍّ مِنْ هُذَيْلٍ، يُقَالُ لَهُمْ: بَنُو لَحْيَانَ، فَنَفَرُوا لَهُمْ قَرِيبًا مِنْ مِائَتَيْ رَجُلٍ كُلُّهُمْ رَامٍ، فَاقْتَصُّوا آثَارَهُمْ حَتَّى وَجَدُوا مَأْكَلَهُمْ تَمْرًا تَزَوَّدُوهُ مِنَ المَدِينَةِ، فَقَالُوا: هَذَا تَمْرُ يَثْرِبَ فَاقْتَصُّوا آثَارَهُمْ.

فَلَمَّا رَآهُمْ عَاصِمٌ وَأَصْحَابُهُ لَجَؤُوا إِلَى فَدْفَدٍ وَأَحَاطَ بِهِمُ القَوْمُ، فَقَالُوا لَهُمْ: انْزِلُوا وَأَعْطُونَا بِأَيْدِيكُمْ، وَلَكُمُ العَهْدُ وَالمِيثَاقُ، وَلَا نَقْتُلُ مِنْكُمْ أَحَدًا، قَالَ عَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ أَمِيرُ السَّرِيَّةِ: أَمَّا أَنَا فَوَاللَّهِ لَا أَنْزِلُ اليَوْمَ فِي ذِمَّةِ كَافِرٍ، اللَّهُمَّ أَخْبِرْ عَنَّا نَبِيَّكَ، فَرَمَوْهُمْ بِالنَّبْلِ فَقَتَلُوا عَاصِمًا فِي سَبْعَةٍ، فَنَزَلَ إِلَيْهِمْ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ بِالعَهْدِ وَالمِيثَاقِ، مِنْهُمْ خُبَيْبٌ الأَنْصَارِيُّ، وَابْنُ دَثِنَةَ، وَرَجُلٌ آخَرُ، فَلَمَّا اسْتَمْكَنُوا مِنْهُمْ أَطْلَقُوا أَوْتَارَ قِسِيِّهِمْ فَأَوْثَقُوهُمْ، فَقَالَ الرَّجُلُ الثَّالِثُ: هَذَا أَوَّلُ الغَدْرِ، وَاللَّهِ لَا أَصْحَبُكُمْ إِنَّ لِي فِي هَؤُلَاءِ لَأُسْوَةً - يُرِيدُ القَتْلَى - فَجَرَّرُوهُ وَعَالَجُوهُ عَلَى أَنْ يَصْحَبَهُمْ فَأَبَى فَقَتَلُوهُ.

فَانْطَلَقُوا بِخُبَيْبٍ وَابْنِ دَثِنَةَ حَتَّى بَاعُوهُمَا بِمَكَّةَ بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ، فَابْتَاعَ خُبَيْبًا بَنُو الحَارِثِ بْنِ عَامِرِ بْنِ نَوْفَلِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، وَكَانَ خُبَيْبٌ هُوَ قَتَلَ الحَارِثَ بْنَ عَامِرٍ يَوْمَ بَدْرٍ، فَلَبِثَ خُبَيْبٌ عِنْدَهُمْ أَسِيرًا.

فَأَخْبَرَنِي عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عِيَاضٍ أَنَّ بِنْتَ الحَارِثِ أَخْبَرَتْهُ: أَنَّهُمْ حِينَ اجْتَمَعُوا اسْتَعَارَ مِنْهَا مُوسَى يَسْتَحِدُّ بِهَا، فَأَعَارَتْهُ، فَأَخَذَ ابْنًا لِي وَأَنَا غَافِلَةٌ حِينَ أَتَاهُ

قَالَتْ: فَوَجَدْتُهُ مُجْلِسَهُ عَلَى فَخِذِهِ وَالمُوسَى بِيَدِهِ، فَفَزِعْتُ فَزْعَةً عَرَفَهَا خُبَيْبٌ فِي وَجْهِي.

فَقَالَ: تَخْشَيْنَ أَنْ أَقْتُلَهُ؟ مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَ ذَلِكَ[1]، وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ أَسِيرًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ خُبَيْبٍ، وَاللَّهِ لَقَدْ وَجَدْتُهُ يَوْمًا يَأْكُلُ مِنْ قِطْفِ عِنَبٍ فِي يَدِهِ، وَإِنَّهُ لَمُوثَقٌ فِي الحَدِيدِ، وَمَا بِمَكَّةَ مِنْ ثَمَرٍ، وَكَانَتْ تَقُولُ: إِنَّهُ لَرِزْقٌ مِنَ اللَّهِ رَزَقَهُ خُبَيْبًا، فَلَمَّا خَرَجُوا مِنَ الحَرَمِ لِيَقْتُلُوهُ فِي الحِلِّ، قَالَ لَهُمْ خُبَيْبٌ: ذَرُونِي أَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ، فَتَرَكُوهُ، فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: لَوْلَا أَنْ تَظُنُّوا أَنَّ مَا بِي جَزَعٌ لَطَوَّلْتُهَا، اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ عَدَدًا:

مَا أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا ... عَلَى أَيِّ شِقٍّ كَانَ لِلَّهِ مَصْرَعِي

وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ ... يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

فَقَتَلَهُ ابْنُ الحَارِثِ، فَكَانَ خُبَيْبٌ هُوَ سَنَّ الرَّكْعَتَيْنِ لِكُلِّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ قُتِلَ صَبْرًا، فَاسْتَجَابَ اللَّهُ لِعَاصِمِ بْنِ ثَابِتٍ يَوْمَ أُصِيبَ، فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ خَبَرَهُمْ، وَمَا أُصِيبُوا، وَبَعَثَ نَاسٌ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ إِلَى عَاصِمٍ حِينَ حُدِّثُوا أَنَّهُ قُتِلَ، لِيُؤْتَوْا بِشَيْءٍ مِنْهُ يُعْرَفُ، وَكَانَ قَدْ قَتَلَ رَجُلًا مِنْ عُظَمَائِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ، فَبُعِثَ عَلَى عَاصِمٍ مِثْلُ الظُّلَّةِ مِنَ الدَّبْرِ، فَحَمَتْهُ مِنْ رَسُولِهِمْ، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى أَنْ يَقْطَعَ مِنْ لَحْمِهِ شَيْئًا[2].

✍ابن هبيرة يعفو عمن ظلمه:

قال ابن الجوزي: كنا نجلس إلى ابن هبيرة فيملي علينا كتابه «الإفصاح» فبينا نحن كذلك إذ قدم علينا رجل ومعه رجل ادعى عليه أنه قتل أخاه، فقال له عون الدّين: أقتلته؟ قال: نعم. جرى بيني وبينه كلام فقتلته، فقال الخصم:

(١) مع أنه محكوم عليه بالإعدام، وهذه فرصة لينتقم لنفسه كما يقول كثير من الناس.

(٢) صحيح البخاري (٣٠٤٥).

سلّمه إلينا حتّى نقتله فقد أقرّ بالقتل، فقال عون الدّين: أطلقوه ولا تقتلوه، قالوا: كيف ذلك، وقد قتل أخانا؟ قال: فتبيعونيه، فاشتراه منهم بستمائة دينار، وسلّم الذهب إليهم وذهبوا، وقال للقاتل: اقعد عندنا لا تبرح. قال: فجلس عندهم وأعطاه الوزير خمسين دينارًا. قال: فقلنا للوزير: لقد أحسنت إلى هذا وعملت معه أمرًا عظيمًا وبالغت في الإحسان إليه.

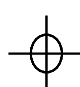
فقال الوزير: منكم أحد يعلم أن عيني اليمنى لا أبصر بها شيئًا؟ فقلنا: معاذ الله، فقال: بلى والله. أتدرون ما سبب ذلك؟ قلنا: لا. قال: هذا الذي خلّصته من القتل جاء إليّ وأنا في الدور ومعي كتاب من الفقه أقرأ فيه ومعه سلّة فاكهة، فقال: احمل هذه السلّة، قلت له: ما هذا شغلي فاطلب غيري، فشاكلني، ولكمني، فقلع عيني ومضى، ولم أره بعد ذلك إلى يومي هذا. فذكرت ما صنع بي فأردت أن أقابل إساءته إليّ بالإحسان مع القدرة[1].

هذا شيء من عدل هذا الرجل وتواضعه رحمه الله تعالى، ولا شك أن هذا شيء لا يبلغه إلا نادر من الناس، القليل والقليل جدًّا، ولا شك أنه أمر صعب، وهذا داخل في قوله تعالى: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٤].

﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ أي: الذين يمتنعون عن الانتقام ممن أساء إليهم، يكظمون الغيظ.

﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ أي: إذهاب ما في الصدر على الشخص. والأول قد يكون واجبًا؛ لكن الثاني لا يكون واجبًا، أي: أنه يجب عليك شرعًا أن تُخرج من صدرك أي ضغينة على مَن ظلمك، لكن لا يجب عليك العفو عنه؛

(١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٦/ ٣٢٣).



لكن لو فعلته فلا شك أن هذا من مقامات الإحسان.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: من مقامات الإحسان ألَّا تجد في نفسك شيئًا عليه. فالرجل بحقٍّ قد وصل إلى هذه المقامات العالية.

ومن أحلم الناس وأعظمهم حلمًا: قيس بن عاصم المنقري، الرسول ﷺ يقول لقيس بن عاصم المنقري: «**أنت سيد أهل الوبر**».

هذا سيد بني تميم وشيخهم، وكان من أحلم الناس بل ضرب في الحلم والصفح أروع الأمثلة، حتى إنه ما كان يغضب أبدًا.

الصفح عند قيس بن عاصم:

قيل للأحنف بن قيس: ممن تعلمت الحلم؟ قال: تعلمت الحلم من قيس ابن عاصم، قالوا: بماذا؟ قال: كنا جلوسًا عنده ذات يوم وكان محتبيًا بثوب وهو جالس القرفصاء، فأتى ولد له فقال: يا أبتاه! قتل أخي قتل أخي! قال: من قتله؟ قال: ابن فلانة -امرأة ربعية سكنت عندهم وحلت ورضعت معهم وكان معها ولد فقتل ولدها ولد قيس بن عاصم، أي: أسقط عليه حجرًا فقتله.

قال الأحنف بن قيس: فوالله ما حل قيس بن عاصم حبوته، ولا تحرك، ولا تغير وجهه، ولا قطع حديثه، قال: فلما انتهى من الحديث قال: جهزوه، وغسلوه، وأتوني به أصلي عليه وأودعه، وخذوا مائة ناقة -لأنه كان غنيًّا ثريًّا- وأعطوها ذاك الولد لئلا يخاف ذاك الولد القاتل، وسلّوا أمه وعزوا أمه؛ لئلا تظن أنا نريد بها شرًّا، وعفا الله عما سلف. قال الأحنف بن قيس: فمن ذلك تعلمت الحلم[1].

(١) بغية الطلب في تاريخ حلب (٣/ ١١٣٨) بتصرف. وانظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (٨/ ١٧٧).

الحلم والصفح عند الأحنف بن قيس:

تولى الأحنف بن قيس بعده ولاية بني تميم، فجلسوا في مجلس يسمرون، فقال رجل منهم: هل رأيتم الأحنف غضب في يوم من الأيام؟ قالوا: والله ما رأيناه قد غضب في يوم من الأيام، فقال: فما لي إن أغضبته؟ فأعطوه شيئًا من المال، فدعا رجلًا سفيهًا من سفهاء بني تميم، وقال: خذ هذه الجائزة - ما أدري كم من الدنانير والدراهم وهي في عيون الأخبار والعقد، وغيرها من كتب الأدب والتاريخ - قال: خذ هذه الجائزة واذهب إلى الأحنف بن قيس ولا تكلمه، وإنما الطمه على وجهه، فإذا قال لك: ما لك؟ فقل: إني سمعت أنك تتعرض لي وتسبني وتغتابني.

فذهب وإذا الأحنف بن قيس جالس في مجلس بني تميم، فتعرض له ذاك السفيه فضربه على وجهه، فقال له الأحنف: ما لك؟ قال: سمعت أنك تعرضت لي وسببتني وشتمتني، قال: من أخبرك؟ قال: أخبرني فلان بن فلان، قال: ماذا قال؟ قال: اذهب إلى سيد بني تميم فلان فاضربه، فقال الأحنف: أنا لست بسيد بني تميم، إن سيد بني تميم جارية بن قدامة - سيد آخر لكنه يغضب من الريح إذا مرت- فذهب إليه وهو في مجلس آخر، فانطلق هذا السفيه، ثم أتى جارية بن قدامة فضربه على وجهه، فقام جارية بن قدامة ومعه سيفه فضرب يد الرجل فأنزلها في الأرض[1].

وهذه مشهورة عن جارية بن قدامة؛ لأنه من أحد الناس، ومن أغضب الناس.

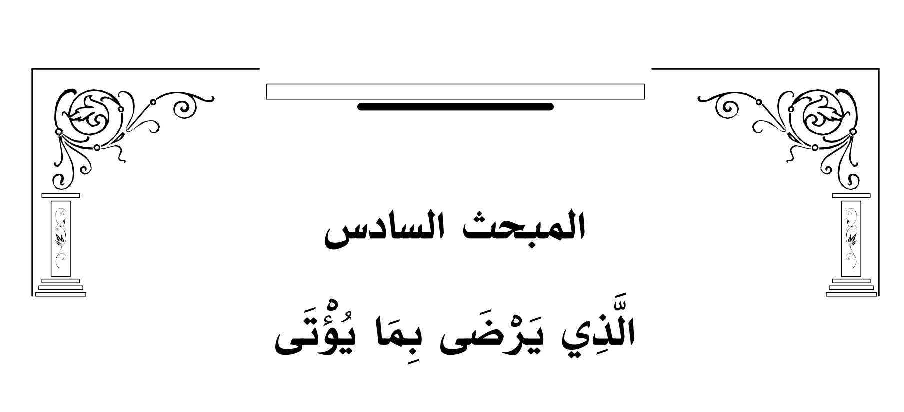
هذا نموذج للحلم أو الصفح الذي تمثل به أهل الجاهلية في جاهليتهم

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٧٢/ ٢١)، بتصرف.

وزاده الإسلام قوة ومتانة، ولذلك أحلم الناس وأعظمهم عفوًا هو رسول الله ﷺ، حتى يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾ [آل عمران:١٥٩].

ونسأل الله أن نكون من أهل الحلم والصفح.





المبحث السادس

الَّذِي يَرْضَى بِمَا يُؤْتَى

(الرضا)

السؤال السادس - وهو قول موسى الكليم عليه السلام: فَأَيُّ عِبَادِكَ أَغْنَى؟ قَالَ: الَّذِي يَرْضَى بِمَا يُؤْتَى

وانطلاقا من هذا الجواب نعيش مع الرضا في الصفحات التالية:

الرضا لغة:

الرّضا مصدر رضي يرضى، وهو مأخوذ من مادّة (ر ض و) الّتي تدلّ على خلاف السّخط.

وفي حديث الدّعاء: «**اللهمّ إنّي أعوذ برضاك من سخطك**».

وتثنية رضا: رضوان ورضيان، والاسم الرّضاء (بالمد) والرّضا (بالقصر)، قال القحيف العقيليّ:

إذا رضيت عليّ بنو قشير لعمر الله أعجبني رضاها
ولا تنبو سيوف بني قشير ولا تمضي الأسنّة في صفاها

عدّاه بـ«على»؛ لأنّه إذا رضيت عنه أحبّته وأقبلت عليه؛ فلذلك استعمل على بمعنى عن.

وقوله ﷻ: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾ [البيّنة: ٨] معناه أنّ الله تعالى رضي عنهم أفعالهم ورضوا عنه ما جازاهم به.

وقال الرّاغب: رضا العبد عن الله ألّا يكره ما يجري به قضاؤه، ورضا الله عن العبد، هو أن يراه مؤتمرًا بأمره ومنتهيًا عن نهيه. وأرضاه: أعطاه ما يرضى به. وترضّاه طلب رضاه، قال:

إذا العجوز غضبت فطلّق ... ولا ترضّاها ولا تملّق

وفي «الصّحاح»: الرّضوان: الرّضا، وكذلك الرّضوان، بالضّمّ، والمرضاة مثله. والمرضاة والرّضوان مصدران، وقيل: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ﴾ [الحاقة: ٢١] أي مرضيّة، أي: ذات رضى. والرّضوان: الرّضا الكثير، ولمّا كان أعظم الرّضا رضا الله – سبحانه – خصّ لفظ الرّضوان في القرآن بما كان من الله ﷻ: قال سبحانه: ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال عزّ من قائل: ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ﴾ [التوبة: ٢١].

ويقال: رضيت به صاحبًا، وأرضيته عنّي ورضّيته، بالتشديد أيضًا، فرضي، وتراضى القوم: أظهر كلّ واحد منهم الرّضا بصاحبه ورضيه[1].

الرضا اصطلاحًا:

هو سرور القلب بمرّ القضاء. وقيل: الرّضا ارتفاع الجزع في أيّ حكم كان، وقيل: الرّضا هو صحّة العلم الواصل إلى القلب. فإذا باشر القلب

(١) لسان العرب لابن منظور (١٤/ ٣٢٤)، والصحاح للجوهري (٢٣٥٣)، ومقاييس اللغة (٢/ ٤٠٢)، ومفردات الراغب (ص ١٩٧).

حقيقة العلم أدّاه إلى الرّضا:

وقيل: استقبال الأحكام بالفرح. وقيل: سكون القلب تحت مجاري الأحكام. وقيل: نظر القلب إلى قديم اختيار الله للعبد، فإنّه اختار له الأفضل. وهو ترك السّخط(١).

وقال المناويّ: الرّضا طيب نفسيّ للإنسان بما يصيبه أو يفوته مع عدم التّغيّر، وقول الفقهاء يشهد على رضاها أي إذنها جعلوا الإذن رضا؛ لدلالته عليه.

أنواع الرضا:

قال شيخ الإسلام ابن تيميّة رَحِمَهُ اللَّهُ: من لزم ما يرضي الله من امتثال أوامره واجتناب نواهيه لا سيّما إذا قام بواجبها ومستحبّها، فإنّ الله يرضى عنه، كما أنّ من لزم محبوبات الحقّ أحبّه الله. كما قال في الحديث الصّحيح الّذي في البخاريّ: «**مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المُؤْمِنِ، يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ**»(٢).

وذلك أنّ الرّضا نوعان:

(١) التعريفات للجرجاني (ص ١١١)، مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ١٨٥)، والتوقيف على مهمات التعاريف للمناوى (ص ١٧٨).

(٢) صحيح البخاري (٦٥٠٢).

أحدهما: الرّضا بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه. ويتناول ما أباحه الله من غير تعدٍّ لمحظور.

﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩]. وهذا الرّضا واجب.

ولهذا ذمّ من تركه بقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝٥٨ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩﴾ [التوبة: ٥٨، ٥٩].

والنّوع الثّاني: الرضا بالمصائب: كالفقر والمرض والذّلّ. فهذا رضا مستحبّ في أحد قولي العلماء، وليس بواجب، وقد قيل: إنّه واجب، والصّحيح أنّ الواجب هو الصّبر. كما قال الحسن: الرّضا غريزة، ولكنّ الصّبر معوّل المؤمن. وقد روي في حديث ابن عبّاس أنّ النّبيّ ﷺ قال: «**إن استطعت أن تعمّ بالرّضا مع اليقين فافعل، فإن لم تستطع؛ فإنّ في الصّبر على ما تكره خيرًا كثيرًا**».

وأمّا الرّضا بالكفر والفسوق والعصيان: فالّذي عليه أئمّة الدين أنّه لا يرضى بذلك، فإنّ الله لا يرضاه، كما قال: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦][1].

قال ابن القيّم رحمه الله بعد أن ساق حديثين: **الأوّل**: قوله ﷺ: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربّا وبالإسلام دينا وبمحمّد رسولًا**».

---

(١) الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٠/ ٦٨١ - ٦٨٣).

والثّاني: قوله: «**من قال حين يسمع النّداء: رضيت بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمّد رسولًا؛ غفرت له ذنوبه**».

قال رَحِمَهُ اللهُ: هذان الحديثان عليهما مدار مقامات الدّين، وإليهما ينتهي. وقد تضمّنا الرّضا بربوبيّته سبحانه وألوهيّته. والرّضا برسوله، والانقياد له، والرّضا بدينه والتّسليم له. ومن اجتمعت له هذه الأربعة، فهو الصّدّيق حقّا.

وهي سهلة بالدّعوى واللّسان، وهي من أصعب الأمور عند حقيقة الامتحان. ولا سيّما إذا جاء ما يخالف هوى النّفس ومرادها، من ذلك تبيّن[١] أنّ الرّضا كان لسانه به ناطقًا. فهو على لسانه لا على حاله.

فالرّضا بإلهيّته يتضمّن الرّضا بمحبّته وحده، وخوفه، ورجائه، والإنابة إليه، والتّبتّل إليه، وانجذاب قوى الإرادة والحبّ كلّها إليه، فعل الرّاضي بمحبوبه كلّ الرّضا. وذلك يتضمّن عبادته والإخلاص له، والرّضا بربوبيّته يتضمّن الرّضا بتدبيره لعبده. ويتضمّن إفراده بالتّوكّل عليه، وبالاستعانة به والثّقة به، والاعتماد عليه، وأن يكون راضيًا بكلّ ما يفعل به. **فالأوّل**: يتضمّن رضاه بما يؤمر به. **والثّاني**: يتضمّن رضاه بما يقدّره عليه.

وأمّا الرّضا بنبيّه رسولًا، فيتضمّن كمال الانقياد له، والتّسليم المطلق إليه، بحيث يكون أولى به من نفسه، فلا يتلقّى الهدى إلّا من مواقع كلماته ولا يحاكم إلّا إليه، ولا يحكّم عليه غيره، ولا يرضى بحكم غيره البتّة. لا في شيء من أحكام ظاهره وباطنه، ولا يرضى في ذلك بحكم غيره ولا يرضى إلّا بحكمه.

فإن عجز عنه كان تحكيمه غيره من باب غذاء المضطرّ إذا لم يجد ما يقيته

(١) هكذا في الأصل ولعلّ المراد: ومن تبيّن أنّ الرّضا.

إلّا من الميتة والدّم. وأحسن أحواله:

أن يكون من باب التّراب الّذي إنّما يتيمّم به عند العجز عن استعمال الماء الطّهور.

وأمّا الرّضا بدينه: فإذا قال، أو حكم، أو أمر، أو نهى، رضي كلّ الرّضا، ولم يبق في قلبه حرج من حكمه وسلّم له تسليمًا، ولو كان مخالفًا لمراد نفسه أو هواها، أو قول مقلّده وشيخه وطائفته(١).

حديث القرآن عن الرضا

وجوب ابتغاء مرضاة الله ﷻ في كل عمل:

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

وقال تعالى: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء: ١١٤].

وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ١٧٩، ١٨٠) وراجع: بصائر ذوى التمييز (٣/ ٧٩-٨١).

دِينًاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة: ٣].

وقال تعالى: ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦﴾ [المائدة: ١٦].

وقال تعالى: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ لِيُرۡضُوكُمۡ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ٦٢﴾ [التوبة: ٦٢].

وقال تعالى: ﴿أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٩﴾ [التوبة: ١٠٩].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيۡنَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَۖ وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ٨﴾ [الحشر: ٨].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١﴾ [الممتحنة: ١].

إرضاء الله ﷻ رسوله ﷺ والمؤمنين في الدنيا والآخرة:

قال تعالى: ﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ

وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [البقرة: ١٤٤].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾ [آل عمران: ١٥].

وقال تعالى: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾﴾ [آل عمران: ١٦٢].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤].

وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ [المائدة: ١١٩].

وقال تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [التوبة: ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: ٧٢].

وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ

غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [طه: ١٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الحج: ٥٨، ٥٩].

وقال تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الفتح: ١٨].

وقال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرُۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًاۖ وَفِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الحديد: ٢٠]

وقال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحاقة: ١٩ - ٢١].

وقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [الغاشية: ٨ - ١٠].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [الليل: ١٧ - ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ١ - ٥].

وقال تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ [القارعة: ٦، ٧].

رضا الله ﷻ أعلى مطلوب النبيين:

قال تعالى: ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ [مريم: ٥، ٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ [مريم: ٥٤، ٥٥].

وقال تعالى: ﴿۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾ [طه: ٨٣، ٨٤].

وقال تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل: ١٩].

وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥)﴾ [الأحقاف: ١٥].

وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)﴾ [الفتح: ٢٩].

لا شفاعة إلا لمن رضي عنهم:

قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (١٠٩)﴾ [طه: ١٠٩].

وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨)﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ (٢٦)﴾ [النجم: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧)﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

شرع الله ﷻ ما ارتضاه لعباده:

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن

بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥].

الشرع لا يمنع التنازل عن الحقوق بالتراضي:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ۞ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾ [البقرة: ٢٣٢، ٢٣٣].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [النساء: ٢٩].

شاهد الدّين يشترط فيه رضا الطرفين عنه:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا

تَرْتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وجوب الرضا بالمعاش:

قال تعالى: ﴿۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾ [الأحزاب: ٥١].

أحاديث تحث على الرضا

- عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: أَخْبَرَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ نَاسٌ مِنَ الأَنْصَارِ، حِينَ أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ مَا أَفَاءَ مِنْ أَمْوَالِ هَوَازِنَ، فَطَفِقَ النَّبِيُّ ﷺ يُعْطِي رِجَالًا المِائَةَ مِنَ الإِبِلِ، فَقَالُوا: يَغْفِرُ اللَّهُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُعْطِي قُرَيْشًا وَيَتْرُكُنَا، وَسُيُوفُنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَائِهِمْ، قَالَ أَنَسٌ: فَحُدِّثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَقَالَتِهِمْ، فَأَرْسَلَ إِلَى الأَنْصَارِ، فَجَمَعَهُمْ فِي قُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ(١)، وَلَمْ يَدْعُ مَعَهُمْ غَيْرَهُمْ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا قَامَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: «**مَا حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكُمْ؟**»، فَقَالَ فُقَهَاءُ الأَنْصَارِ: أَمَّا رُؤَسَاؤُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَلَمْ يَقُولُوا شَيْئًا، وَأَمَّا نَاسٌ مِنَّا حَدِيثَةٌ أَسْنَانُهُمْ، فَقَالُوا: يَغْفِرُ اللَّهُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُعْطِي قُرَيْشًا وَيَتْرُكُنَا، وَسُيُوفُنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَائِهِمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**فَإِنِّي أُعْطِي رِجَالًا حَدِيثِي عَهْدٍ بِكُفْرٍ أَتَأَلَّفُهُمْ(٢)، أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالأَمْوَالِ، وَتَذْهَبُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ إِلَى**

(١) في قبة من أدم: القبة من الخيام: بيت صغير مستدير. وهو من بيوت العرب. ومن أدم معناه من جلود. وهو جمع أديم بمعنى الجلد المدبوغ. ويجمع أيضًا على آدم.

(٢) أتألفهم: أي: أستميل قلوبهم بالإحسان؛ ليثبتوا على الإسلام، رغبة في المال.

رِحَالِكُمْ[١]، **فَوَاللَّهِ لَمَا تَنْقَلِبُونَ بِهِ خَيْرٌ مِمَّا يَنْقَلِبُونَ بِهِ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ رَضِينَا، فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: «**سَتَجِدُونَ أُثْرَةً شَدِيدَةً**[٢]، **فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوُا اللَّهَ وَرَسُولَهُ** ﷺ **فَإِنِّي عَلَى الحَوْضِ**». قَالَ أَنَسٌ: فَلَمْ يَصْبِرُوا[٣].

- عَنْ أَبِي سَلَّامٍ خَادِمِ النَّبِيِّ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ أَوْ إِنْسَانٍ، أَوْ عَبْدٍ يَقُولُ حِينَ يُمْسِي وَحِينَ يُصْبِحُ: رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا، إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُرْضِيَهُ يَوْمَ الْقِيَامِ**»[٤].

- عَنْ عُبَيْدِ بْنِ حُنَيْنٍ، أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، يُحَدِّثُ أَنَّهُ قَالَ: مَكَثْتُ سَنَةً أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ عَنْ آيَةٍ، فَمَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَسْأَلَهُ هَيْبَةً لَهُ، . . . الحديث[٥] . . . .

---

(١) رحالكم: أي: منازلكم.

(٢) أثرة شديدة: أي: يستأثر عليكم، ويفضل عليكم غيركم بغير حق.

(٣) البخاري- الفتح ٧ (٣٧٩٣)، مسلم (١٠٥٩) واللفظ له.

(٤) ابن ماجة (٢/ ٣٨٧٠) وفي الزوائد: إسناده صحيح، ورجاله ثقات.

(٥) ولفظه: عَنْ عُبَيْدِ بْنِ حُنَيْنٍ، أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، يُحَدِّثُ أَنَّهُ قَالَ: مَكَثْتُ سَنَةً أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ عَنْ آيَةٍ، فَمَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَسْأَلَهُ هَيْبَةً لَهُ، حَتَّى خَرَجَ حَاجًّا فَخَرَجْتُ مَعَهُ، فَلَمَّا رَجَعْنَا وَكُنَّا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ عَدَلَ إِلَى الأَرَاكِ لِحَاجَةٍ لَهُ، قَالَ: فَوَقَفْتُ لَهُ حَتَّى فَرَغَ ثُمَّ سِرْتُ مَعَهُ، فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ مَنِ اللَّتَانِ تَظَاهَرَتَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أَزْوَاجِهِ؟ فَقَالَ: تِلْكَ حَفْصَةُ وَعَائِشَةُ، قَالَ: فَقُلْتُ: وَاللَّهِ إِنْ كُنْتُ لَأُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْ هَذَا مُنْذُ سَنَةٍ، فَمَا أَسْتَطِيعُ هَيْبَةً لَكَ، قَالَ: فَلَا تَفْعَلْ مَا ظَنَنْتَ أَنَّ عِنْدِي مِنْ عِلْمٍ فَاسْأَلْنِي، فَإِنْ كَانَ لِي عِلْمٌ خَبَّرْتُكَ بِهِ، قَالَ: ثُمَّ قَالَ عُمَرُ: وَاللَّهِ إِنْ كُنَّا فِي الجَاهِلِيَّةِ مَا نَعُدُّ لِلنِّسَاءِ أَمْرًا، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِنَّ مَا أَنْزَلَ، وَقَسَمَ لَهُنَّ مَا قَسَمَ، قَالَ: فَبَيْنَا أَنَا فِي أَمْرٍ أَتَأَمَّرُهُ؛ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتِي: لَوْ صَنَعْتَ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: فَقُلْتُ لَهَا: مَا لَكِ، وَلِمَا هَا هُنَا وَفِيمَ تَكَلُّفُكِ فِي أَمْرٍ أُرِيدُهُ، فَقَالَتْ لِي: عَجَبًا لَكَ يَا بْنَ الخَطَّابِ، مَا تُرِيدُ أَنْ تُرَاجَعَ أَنْتَ وَإِنَّ ابْنَتَكَ لَتُرَاجِعُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَتَّى يَظَلَّ يَوْمَهُ غَضْبَانَ، فَقَامَ عُمَرُ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ مَكَانَهُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى حَفْصَةَ، فَقَالَ لَهَا: يَا بُنَيَّةُ إِنَّكِ لَتُرَاجِعِينَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَتَّى يَظَلَّ يَوْمَهُ غَضْبَانَ، فَقَالَتْ حَفْصَةُ: وَاللَّهِ إِنَّا لَنُرَاجِعُهُ، =

فَقُلْتُ[١]: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ كِسْرَى وَقَيْصَرَ فِيمَا هُمَا فِيهِ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالَ: «**أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الآخِرَةُ**»[٢].

- عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، قَالَ: كَتَبَ مُعَاوِيَةُ إِلَى عَائِشَةَ: أَنِ اكْتُبِي إِلَيَّ بِكِتَابٍ تُوصِينِي فِيهِ، وَلَا تُكْثِرِي عَلَيَّ، فَكَتَبَتْ: عَنْ عَائِشَةَ إِلَى مُعَاوِيَةَ: سَلَامٌ عَلَيْكَ، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنِ الْتَمَسَ رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ** ﷻ وَكَّلَهُ اللَّهُ ﷻ إِلَى النَّاسِ»[٣].

= فَقُلْتُ: تَعْلَمِينَ أَنِّي أُحَذِّرُكِ عُقُوبَةَ اللَّهِ وَغَضَبَ رَسُولِهِ ﷺ، يَا بُنَيَّةُ لَا يَغُرَّنَّكِ هَذِهِ الَّتِي أَعْجَبَهَا حُسْنُهَا حُبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِيَّاهَا - يُرِيدُ عَائِشَةَ - قَالَ: ثُمَّ خَرَجْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ لِقَرَابَتِي مِنْهَا، فَكَلَّمْتُهَا فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: عَجَبًا لَكَ يَا بْنَ الخَطَّابِ، دَخَلْتَ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَبْتَغِيَ أَنْ تَدْخُلَ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَزْوَاجِهِ، فَأَخَذَتْنِي وَاللَّهِ أَخْذًا كَسَرَتْنِي عَنْ بَعْضِ مَا كُنْتُ أَجِدُ، فَخَرَجْتُ مِنْ عِنْدِهَا، وَكَانَ لِي صَاحِبٌ مِنَ الأَنْصَارِ إِذَا غِبْتُ أَتَانِي بِالخَبَرِ، وَإِذَا غَابَ كُنْتُ أَنَا آتِيهِ بِالخَبَرِ، وَنَحْنُ نَتَخَوَّفُ مَلِكًا مِنْ مُلُوكِ غَسَّانَ، ذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَسِيرَ إِلَيْنَا، فَقَدِ امْتَلَأَتْ صُدُورُنَا مِنْهُ، فَإِذَا صَاحِبِي الأَنْصَارِيُّ يَدُقُّ البَابَ، فَقَالَ: افْتَحِ افْتَحْ فَقُلْتُ: جَاءَ الغَسَّانِيُّ؟ فَقَالَ: بَلْ أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ، اعْتَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَزْوَاجَهُ، فَقُلْتُ: رَغَمَ أَنْفُ حَفْصَةَ وَعَائِشَةَ، فَأَخَذْتُ ثَوْبِي فَأَخْرُجُ حَتَّى جِئْتُ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي مَشْرُبَةٍ لَهُ يَرْقَى عَلَيْهَا بِعَجَلَةٍ، وَغُلَامٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَسْوَدُ عَلَى رَأْسِ الدَّرَجَةِ، فَقُلْتُ لَهُ: قُلْ: هَذَا عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ فَأَذِنَ لِي، قَالَ عُمَرُ: فَقَصَصْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ هَذَا الحَدِيثَ، فَلَمَّا بَلَغْتُ حَدِيثَ أُمِّ سَلَمَةَ تَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَإِنَّهُ لَعَلَى حَصِيرٍ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ شَيْءٌ، وَتَحْتَ رَأْسِهِ وِسَادَةٌ مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهَا لِيفٌ، وَإِنَّ عِنْدَ رِجْلَيْهِ قَرَظًا مَصْبُوبًا، وَعِنْدَ رَأْسِهِ أُهُبٌ مُعَلَّقَةٌ، فَرَأَيْتُ أَثَرَ الحَصِيرِ فِي جَنْبِهِ فَبَكَيْتُ، فَقَالَ: «**مَا يُبْكِيكَ؟**» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ كِسْرَى وَقَيْصَرَ فِيمَا هُمَا فِيهِ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ؟! فَقَالَ: «**أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الآخِرَةُ**».

(١) القائل هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) البخاري- الفتح ٨ (٤٩١٣) واللفظ له، ومسلم (١٤٧٩).

(٣) صحيح سنن الترمذي (١٩٦٧)، وهو في الصحيحة (٢٣١١).

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ يَأْخُذُ عَنِّي هَؤُلَاءِ الكَلِمَاتِ فَيَعْمَلُ بِهِنَّ أَوْ يُعَلِّمُ مَنْ يَعْمَلُ بِهِنَّ؟**»، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَقُلْتُ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَخَذَ بِيَدِي فَعَدَّ خَمْسًا، وَقَالَ: «**اتَّقِ المَحَارِمَ تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ، وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ، وَأَحْسِنْ إِلَى جَارِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا، وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُسْلِمًا، وَلَا تُكْثِرِ الضَّحِكَ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ القَلْبَ**»[(١)].

- عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال لنسوة من الأنصار: «**لا يموت لإحداكنّ ثلاثة من الولد فتحتسبه إلّا دخلت الجنّة**». فقالت امرأة منهنّ: أو اثنين يا رسول الله؟ قال: «**أو اثنين**»[(٢)].

- عن أمّ سلمة رضي الله عنها أنّها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، اللهمّ أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرا منها؛ إلّا أخلف الله له خيرًا منها**»[(٣)].

- عن أنس رضي الله عنه أُصِيبَ حَارِثَةُ يَوْمَ بَدْرٍ وَهُوَ غُلَامٌ، فَجَاءَتْ أُمُّهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ عَرَفْتَ مَنْزِلَةَ حَارِثَةَ مِنِّي، فَإِنْ يَكُ فِي الجَنَّةِ أَصْبِرْ وَأَحْتَسِبْ، وَإِنْ تَكُنِ الأُخْرَى تَرَى مَا أَصْنَعُ؟ فَقَالَ: «**وَيْحَكِ، أَوَهَبِلْتِ، أَوَجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ؟ إِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّهُ لَفِي جَنَّةِ الفِرْدَوْسِ**»[(٤)].

- عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا مَاتَ وَلَدُ العَبْدِ قَالَ**

---

(١) أحمد في المسند (٢/ ٣١٠)، والترمذي (٢٣٠٥) واللفظ له، وحسنه الألباني، وابن ماجه (٤٢١٧) وقال محقق جامع الأصول (١١/ ٦٨٧): حديث حسن.

(٢) البخاري- الفتح ٣ (١٢٤٩)، ومسلم (٢٦٣٢) واللفظ له.

(٣) مسلم (٩١٨).

(٤) البخاري- الفتح ١١ (٦٥٥٠).

اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ، فَيَقُولُ اللَّهُ: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الحَمْدِ»(١).

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ لِنِسْوَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ: «**لَا يَمُوتُ لِإِحْدَاكُنَّ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ فَتَحْتَسِبَهُ، إِلَّا دَخَلَتِ الْجَنَّةَ**»، فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ: أَوِ اثْنَيْنِ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**أَوِ اثْنَيْنِ**»(٢).

- عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، أَنَّهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللهُ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، اللهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَخْلَفَ اللهُ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا**»(٣).

- عَنْ عُمَرَ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**عَجِبْتُ مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ ﷻ لِلمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ حَمِدَ رَبَّهُ وَشَكَرَ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ حَمِدَ رَبَّهُ وَصَبَرَ، الْمُؤْمِنُ يُؤْجَرُ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى فِي اللُّقْمَةِ يَرْفَعُهَا إِلَى فِي امْرَأَتِهِ**»(٤).

- عَنْ صُهَيْبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»(٥).

---

(١) الترمذي (١٠٢١) وحسّن إسناده الألباني.
(٢) البخاري- الفتح ٣ (١٢٤٩)، ومسلم (٢٦٣٢) واللفظ له.
(٣) مسلم (٩١٨).
(٤) أحمد (١/ ١٧٣، ١٧٧، ١٧٨)، وشرح السنة (١٥٤٠) وقال مخرجه: إسناده حسن. والبيهقي في السنن (٣/ ٣٧٥، ٣٧٦)، والهيثمي في المجمع (٧/ ٢٠٩) وقال: رواه أحمد بأسانيد ورجالها كلها رجال الصحيح.
(٥) مسلم (٢٩٩٩).

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: مَا لِعَبْدِي الْمُؤْمِنِ عِنْدِي جَزَاءٌ، إِذَا قَبَضْتُ صَفِيَّهُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ثُمَّ احْتَسَبَهُ، إِلَّا الجَنَّةُ**»[١].

من الآثار وأقوال العلماء الواردة في الرضا:

- قال لقمان لابنه: أوصيك بخصال تقرّبك من الله وتباعدك من سخطه: أن تعبد الله لا تشرك به شيئًا، وأن ترضى بقدر الله فيما أحببت وكرهت[٢].

- كتب عمر بن الخطّاب إلى أبي موسى رضي الله عنهما: أمّا بعد، فإنّ الخير كلّه في الرّضى، فإن استطعت أن ترضى وإلّا فاصبر[٣].

- عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: لمّا كان بين إبراهيم وبين أهله ما كان خرج بإسماعيل وأمّ إسماعيل، ومعهم شنّة[٤] فيها ماء، فجعلت أمّ إسماعيل تشرب من الشّنّة فيدرّ لبنها على صبيّها حتّى قدم مكّة، فوضعها تحت دوحة[٥]، ثمّ رجع إبراهيم إلى أهله فاتّبعته أمّ إسماعيل، حتّى لمّا بلغوا كداء نادته من ورائه: يا إبراهيم إلى من تتركنا؟ قال: إلى الله. قالت: رضيت بالله[٦].

- قال ميمون بن مهران: من لم يرض بالقضاء، فليس لحمقه دواء[٧].

- قال الرّبيع بن أنس: علامة حبّ الله، كثرة ذكره، فإنّك لا تحبّ شيئا إلّا

(١) البخاري- الفتح ١١ (٦٤٢٤).
(٢) مدارج السالكين، لابن القيم (٢/ ٢٢٩).
(٣) المرجع السابق: (٢/ ١٨٥).
(٤) الشّنّة: هي القربة الصّغيرة.
(٥) الدوحة: الشجرة الكبيرة.
(٦) البخاري- الفتح ٦ (٣٣٦٥).
(٧) الإحياء للغزالي (٣/ ٣٤٦).

أكثرت من ذكره، وعلامة الدّين: الإخلاص لله في السّرّ والعلانية، وعلامة الشّكر: الرّضى بقدر الله والتّسليم لقضائه(١).

- عن مالك بن أنس رَحِمَهُ اللَّهُ قال: بلغني أنّ رجلًا من بعض الفقهاء كتب إلى ابن الزّبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقول: ألا إنّ لأهل التّقوى علامات يعرفون بها، ويعرفونها من أنفسهم، من رضي بالقضاء، وصبر على البلاء، وشكر على النّعماء، وصدق باللّسان، ووفّى بالوعد والعهد، وتلا لأحكام القرآن، وإنّما الإمام سوق من الأسواق، فإن كان من أهل الحقّ حمل إليه أهل الحقّ حقّهم، وإن كان من أهل الباطل حمل إليه أهل الباطل باطلهم(٢).

- قال عبد الله بن المبارك: قال داود لابنه سليمان عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: يا بنيّ، إنّما تستدلّ على تقوى الرّجل بثلاثة أشياء: لحسن توكّله على الله فيما نابه، ولحسن رضاه فيما آتاه، ولحسن زهده فيما فاته(٣).

- قال ابن القيّم رَحِمَهُ اللَّهُ: ثمرة الرّضى: الفرح والسّرور بالرّبّ - تبارك وتعالى(٤).

- قال الفيروزآباديّ: رضا العبد عن الله على ألّا يكره ما يجري به قضاؤه، والرّضوان الرّضا الكبير. ولمّا كان أعظم الرّضا رضا الله خصّ لفظ الرّضوان في القرآن بما كان من الله تعالى(٥).

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٢٧).
(٢) جامع الأصول (١١/ ٧٠٣، ٧٠٤).
(٣) الدر المنثور للسيوطي (١/ ٦٢).
(٤) ابن أبي الدنيا في التقوى.
(٥) أدب الدنيا والدين للماوردي (ص ٣٢٩).

من فوائد الرضا:

- يثمر محبّة الله ورضاه وتجنّب سخطه.
- دليل على كمال الإيمان وحسن الإسلام.
- الفوز بالجنّة والنّجاة من النّار.
- مظهر من مظاهر صلاح العبد وتقواه.
- الوعد بالبشرى في الآخرة.
- دليل حسن ظنّ العبد بربّه.
- طريق إلى الفوز برضوان الله تعالى.
- يضفي على الإنسان المسلم راحة نفسيّة وروحيّة.
- يجنّب المسلم الأزمات النّفسيّة من قلق زائد وتوتّر.
- طريق واضح إلى تحقيق السّلام الاجتماعي.

وقفات مع أهل الرضا

الرضا عندرسول الله:رضا يفوق الخيال:

كان رضا رسول الله ﷺ عن ربه فوق ما يصفه الواصفون، فهو راضٍ في الغنى والفقر، راضٍ في السلم والحرب، راضٍ وقت القوة والضعف، راضٍ وقت الصحة والسقم، راضٍ في الشدة والرخاء.

عاش ﷺ مرارة اليتم، وأسى اليتم ولوعة اليتم فكان راضيًا، وافتقر ﷺ



حتى ما يجد دقل التمر، وكان يربط الحجر على بطنه من شدة الجوع، ويقترض شعيرًا من يهودي ويرهن درعه عنده، وينام على الحصير، فيؤثر في جنبه، وتمر ثلاثة أيام لا يجد شيئًا يأكله، ومع ذلك كان راضيًا عن الله رب العالمين ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾﴾ [الفرقان: ١٠].

ورضي عن ربه وقت المجابهة الأولى:

يوم وقف هو في حزب الله، ووقفت الدنيا - كل الدنيا تحاربه بخيلها ورجلها، بغناها وبزخرفها، بزهوها وبخيلائها، فكان راضيًا عن الله.

رضي عن الله في الفترة الحرجة:

يوم مات عمه وزوجه خديجه رضي الله عنها، وأوذى أشدّ الإيذاء وكُذِّب أشد التكذيب، وخدشت كرامته، ورمى في صدقه، فقيل له: كذاب وساحر، وكاهن ومجنون وشاعر.

ورضي يوم طرد من بلده ومسقط رأسه التي فيها مراتع صباه وملاعب طفولته وأفانين شبابه، فيلتفت إلى مكةَ وتسيل دموعه ويقول: «**عَلِمْتُ أَنَّكِ خَيْرُ أَرْضِ اللهِ، وَأَحَبُّ الْأَرْضِ إِلَى اللهِ ﷻ، وَلَوْلَا أَنَّ أَهْلَكِ أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا خَرَجْتُ**»(١)

ورضي عن الله وهو يذهب إلى الطائف؛ ليعرض دعوته، فيواجه بأقبح رد، وبأسوإ استقبال، ويُرمى بالحجارة، حتى تسيل قدماه، فيرضى عن مولاه.

ويرضى عن ربه وهو يخرج من مكة مُرغمًا، فيسير إلى المدينة ويطارد بالخيل، وتوضع العراقيل في طريقه أينما ذهب.

(١) مسند أحمد: (٣١/ ١٣) وانظر: صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢/ ٩٧١).

يرضى عن ربه في كل موطن، وفي كل مكان وفي كل زمان.

يحضر ﷺ أُحُدًا فَيُشَجُّ رأسه، وتُكسَرُ ثنيَّتُه، ويُقتَلُ عمّه ويُذبَح أصحابه، ويُغْلَبُ جيشُه، فيقول: «**صفوا ورائي لأثني على ربي**».

يرضى عن ربه وقد ظهر حلف كافر من المنافقين واليهود والمشركين، فيقف صامدًا متوكلًا على الله، مفوضًا الأمر إليه.

وجزاء هذا الرضا منه ﷺ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى: ٥].

النبي ﷺ يعلم الأمة الرضا بقضاء الله

وهاهو عليه الصلاة والسلام يعلم الأمة الرضا بقضاء الله، بل ويبدأ هو بنفسه عند موت ولده إبراهيم: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: دَخَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَبِي سَيْفٍ القَيْنِ[1]، وَكَانَ ظِئْرًا[2] لإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِبْرَاهِيمَ، فَقَبَّلَهُ، وَشَمَّهُ، ثُمَّ دَخَلْنَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِبْرَاهِيمُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ، فَجَعَلَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَذْرِفَانِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: «**يَا بْنَ عَوْفٍ إِنَّهَا رَحْمَةٌ**»، ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى، فَقَالَ ﷺ: «**إِنَّ العَيْنَ تَدْمَعُ، وَالقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ**»[3].

موقف أبي عبيدة بن الجراح في الرضا:

أبو عبيدة هو أحد العشرة المبشرين بالجنة رضي الله عنهم، شهد بدرًا وقتل يومئذ

---

(١) القين: الحدّاد.

(٢) الظئر: المرضعة ولد غيرها واللفظ له. وزوجها ظئر لذلك الرضيع.

(٣) البخاري- الفتح ٣ (١٣٠٣) واللفظ له، ومسلم (٢٣١٥).

أباه، وأبلى يوم أحد بلاءً حسنًا، ونزع الحلقتين اللتين دخلتا من المغفر في وجنتي رسول الله ﷺ، فانقلعت ثنيتاه، فحسن ثغره بذهابهما، حتى قيل: ما رئي هتم قط أحسن من هتم أبي عبيدة.

فرضيه أبو بكر رضي الله عنه خليفة بعد رسول الله ﷺ فقال:

قَدْ رَضِيتُ لَكُمْ أَحَدَ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ: عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ[1].

وثبت عنه ﷺ أنه قال: «**أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا، وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ**»[2].

ومناقبه رضي الله عنه كثيرة شهيرة، ومواقفه الإيمانية عالية رفيعة في البذل والتضحية والزهد، وإنما قصدنا موقفه الإيماني عند نزول وباء الطاعون.

عن قيس بن مسلم عن طارق أن عمر كتب إلى أبي عبيدة في الطاعون: إنه قد عرضت لي حاجة، ولا غنى بي عنك.

كان أبو عبيدة في هذا الوقت على رأس جيش في الشام، فلما سمع عمر رضي الله عنه بوقوع طاعون عمواس[3] أرسل إلى أبي عبيدة، فقال له: إني قد عرضت لي حاجة، ولا غنى بي عنك فيها، فعجل إلي، فلما قرأ الكتاب قال: عرفت حاجة أمير المؤمنين؛ إنه يريد أن يستبقي ما ليس بباقٍ.

---

(١) كتاب الردة للواقدي (ص: ٣٧). وانظر: أسد الغابة ط العلمية (٣/ ١٢٥).

(٢) صحيح البخاري (٣٧٤٤).

(٣) طاعون عمواس منسوب إلى قرية عمواس، وهي بين الرملة وبين بيت المقدس، وأما الأصمعي فقال: هو من قولهم زمن الطاعون: عم وآسي. انظر: تاريخ الإسلام ط التوفيقية (٣/ ١٩٠).

فكتب: إني قد عرفت حاجتك، فحللني من عزيمتك؛ فإني في جند من أجناد المسلمين، لا أرغب بنفسي عنهم، فلما قرأ عمر الكتاب، بكي، فقيل له: مات أبو عبيدة؟ قال: لا. وكأن قد. قال: فتوفي أبو عبيدة، وانكشف الطاعون[1].

وروى ابن المبارك في الزهد عن شهر بن حوشب - وهو مختلف فيه- قال: حدثني عبد الرحمن بن غنم عن الحارث بن عميرة قال: أخذ بيدي معاذ بن جبل فأرسله إلى أبي عبيدة فسأله: كيف هو؟ وقد طعن، فأراه أبو عبيدة طعنة[2]، خرجت في كفه، فتكاثر شأنها في نفس الحارث وفرق منها حين رآها[3]، فأقسم أبو عبيدة بالله إنه ما يحب أن له مكانها حمر النعم[4].

فصبره رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وعدم استجابته لاستدعاء أمير المؤمنين عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ثم رضاه بما أصيب به من الطاعون، وعدم تمنيه زوال البلاء هو عين الرضا.

فالإنسان لا يتمنى البلاء أبدًا؛ لأن ساحة العافية هي أوسع، ولكن إذا نزل بلاء فيصير ميدان الصبر هو الميدان الواسع، وأعلى منه ميدان الرضا، وهو عدم تمني زوال ما هو فيه.

فصبره رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وعدم استجابته لاستدعاء أمير المؤمنين عمر، ثم رضاه بما أصيب به من الطاعون وعدم تمنيه زوال البلاء هو عين الرضا، وهو أعلى الدرجات، ومن أولى بذلك من الصحابة الكرام، ثم من أولى بكل فضيلة من

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٥/ ٤٨٥).

(٢) يعني: إصابة الطاعون، وهو يظهر على شكل أورام يصيب الغدد اللمفاوية، ويظل ينتشر في أماكن متفرقة في الجسم، وينتقل إلى الرئتين وغير ذلك.

(٣) انزعج عندما رأى هذه الطعنة.

(٤) تاريخ الإسلام (٣/ ١٨٩).

العشرة المبشرين رضي الله عنهم أجمعين.

موقف سعد بن أبي وقاص في الرضا:

لما قدم سعد بن أبي وقاص مكة وقد كان كف بصره جاءه الناس يهرعون إليه كل واحد يسأله أن يدعو له، فيدعو لهذا ولهذا، وكان مجاب الدعوة.

قال عبد الله بن السائب: فأتيته وأنا غلام، فتعرفت إليه فعرفني، وقال: أنت قارئ أهل مكة؟ قلت: نعم فذكر قصة قال في آخرها: فقلت له: يا عم! أنت تدعو للناس، فلو دعوت لنفسك فرد الله عليك بصرك، فتبسم وقال: يا بني! قضاء الله سبحانه عندي أحسن من بصري[(١)].

فهذا حال الرضا من الإنسان يرضى بالحال التي هو فيها، ويطمع في ثوابها، ولا يتمنى زوالها.

فالعبد لا يصل إلى درجة إجابة الدعاء إلا بعد مجاهدة عظيمة وتحبب وتقرب إلى الله ﷻ، فترتفع رتبة العبد بالطاعة وكثرة النوافل فيصير في درجة تؤهله إن سأل الله ﷻ أعطاه، وإن استعاذ بالله ﷻ أعاذه.

والعبد يصل مع ذلك إلى درجات عالية من المحبة والرضا والتعظيم لأمر الله ﷻ، كما قال بعضهم: أحبه إليه أحبه إلي.

موقف عمر بن عبد العزيز في الرضا:

عن الربيع بن سبرة قال: قُلْتُ لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ- وَقَدْ هَلَكَ ابْنُهُ وَأَخُوهُ وَمَوْلَاهُ مُزَاحِمٌ فِي أَيَّامٍ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا رَأَيْتُ رَجُلًا أُصِيبَ فِي أَيَّامٍ مُتَوَالِيَةٍ بأعظم من مصيبتك، ما رَأَيْتُ مِثْلَ ابْنِكَ ابْنًا، وَلَا مِثْلَ أَخِيكَ أَخًا، وَلَا مِثْلَ

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٣٥٠).

مَوْلَاكَ مَوْلًى. قَالَ: فَنَكَسَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ لِي: كَيْفَ قُلْتَ يَا رَبِيعُ؟ فَأَعَدْتُهَا عَلَيْهِ. فَقَالَ: لَا وَالَّذِي قَضَى عَلَيْهِمُ الْمَوْتَ مَا أُحِبُّ أَنَّ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ كَانَ لَمْ يَكُنْ مِنَ الَّذِي أَرْجُو مِنَ اللَّهِ فِيهِمْ(١).

إنه الرضا عن الله ﷻ، ومن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط.

وعمر بن عبد العزيز إمام عادل صاحب زهد وورع وعلم وعبادة وشرف وسيادة، وكل أخباره عجيبة.

موقف إبراهيم الحربي في الرضا:

عن محمد بن خلف قال: كان لإبراهيم الحربي ابن كان له إحدى عشرة سنة، حفظ القرآن ولقنه من الفقه جانبًا كبيرًا، قال: فمات، فجئت أعزيه فقال: كنت أشتهي موت ابني هذا، قال: فقلت له: يا أبا إسحاق! أنت عالم الدنيا، تقول مثل هذا في صبي قد أنجب ولقنته الحديث والفقه؟! قال: نعم، رأيت في منامي كأن القيامة قد قامت، وكأن صبيانًا بأيديهم قلال فيها ماء يستقبلون الناس فيسقونهم، وكان اليوم يومًا حارًّا شديد الحر، قال: فقلت لأحدهم: اسقني من هذا الماء، فنظر إلي، وقال: لست أنت أبي، قلت: فأي شيء أنتم؟ قال لي: نحن الصبيان الذين متنا في دار الدنيا وخلفنا آباءنا فنستقبلهم نسقيهم الماء، قال: فلهذا تمنيت موته(٢).

فهذا موقف إيماني من إبراهيم الحربي رَحِمَهُ اللَّهُ في الرضا بقضاء الله ﷻ.

وفي هذا تسلية لمن مات له ولد، وقد وردت الأخبار الصحيحة الصريحة

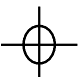
(١) تاريخ دمشق لابن عساكر: (١٨/ ٧٢). وانظر: المعرفة والتاريخ: (١/ ٦١٠).
(٢) تسلية أهل المصائب (ص: ٣٢). وانظر: الكبائر للذهبي (ص: ١٩٣). وانظر: صفة الصفوة (١/ ٥١٥).

بكثير من المبشرات لمن مات له ولد فصبر واحتسب، وما ذاك إلا لصعوبة الصبر والرضا في هذا المقام؛ لأن الأولاد فلذات الأكباد، والعبد لا يحب لأحد من الخير مثل ما يحب لنفسه إلا لولده.

بل الإنسان قد يضحي بنفسه، ولكن يشق عليه أن يضحي بابنه.

ولذلك كان ابتلاء إبراهيم عليه السلام من أشد البلاء، فالعبد يسهل عليه أن تهون نفسه، وأن يضحي بنفسه، أما أن يضحي بولده وأن يتولى هو ذبح الولد بنفسه فهذا شيء شاق، فلله هذه النفوس التي تُبتلى بمثل هذا البلاء.





الفصل الثانى

سُؤَالُ الْكَلِيمِ

أَنْ يُعَلِّمَهُ اللَّهُ شَيْئًا يَذْكُرُهُ بِهِ



سؤال الكليم أَنْ يُعَلِّمَهُ اللَّهُ شيئًا يذكره به

قَالَ ابْنُ حِبَّانَ: «ذِكْرُ سُؤَالِ كَلِيمِ اللَّهِ رَبَّهُ جَلَّ وَعَلَا أَنْ يُعَلِّمَهُ شيئًا يذكره به» حدثنا ابن سلمة، حَدَّثَنَا حَرْمَلَةُ بْنُ يَحْيَى، حدَّثنا ابْنُ وَهْبٍ، أَخْبَرَنِي عَمْرُو ابْنُ الْحَارِثِ أَنَّ دَرَّاجًا حَدَّثَهُ عَنْ أَبِي الْهَيْثَمِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنَّه قَالَ: «قَالَ مُوسَى: «يَا رَبِّ عَلِّمْنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ بِهِ وَأَدْعُوكَ بِهِ قَالَ: قُلْ يَا مُوسَى: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ قَالَ: يَا رَبِّ كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُ هَذَا.قَالَ: قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.قَالَ: إِنَّمَا أُرِيدُ شَيْئًا تَخُصُّنِي بِهِ.قَالَ: يَا مُوسَى لَوْ أَنَّ أهل السموات السَّبْعِ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعِ فِي كِفَّةٍ وَلَاإِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي كِفَّةٍ مَالَتْ بِهِمْ لَا إِلَه إلا الله»[1].

قال ابن كثير معلقًا: ويشهد لهذا الحديث البطاقة:

قلت (محمد): وحديث البطاقة رواه الترمذى من حديث عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو ابْنِ العَاصِ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«إِنَّ اللَّهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الخَلَائِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ**

---

(١) رواه النسائي رقم: (١٠٦٠٢)، والحاكم رقم (١٩٣٦) من طريق دراج عن أبي الهيثم عنه. وقال الحاكم: صحيح الاسناد.

البَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ اليَوْمَ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ البِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟ فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ، قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ وَالبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ، فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ»[(١)].

وانطلاقا من هذا الحديث لنا مع كلمة التوحيد عدّةُ وقفات؛ لأنها هي كلمة الإخلاص وهي التي قامت من أجلها السموات والأرض،ومن أجلها يكون الحساب والعرض.

وأقول: إن عقيدة التوحيد هي التي تحرر الإنسان من العبودية لكل ما سوى الله، من العبودية للطبيعة، والعبودية للحيوان، والعبودية للجن، والعبودية للبشر، والعبودية للحجر، والعبودية لهوى النفس، والعبودية لأي طاغوت، عبده الناس من دون الله[(٢)].

وإفراد الله تعالى بالعبادة له، والاستعانة به، وحده لا شريك له، كما تعلم ذلك سورة الفاتحة، التي يقرؤها المسلم في كل صلاة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥].

بل إن المسلم منذ يولد له طفل، ذكرًا أو أنثى، مطالب أن يؤذن في أذنه اليمنى، أي يسمعه كلمة التكبير «الله أكبر. . الله أكبر».

وكلمة التوحيد: «أشهد أن لا إله إلا الله».

(١) رواه الترمذي برقم (٢٦٣٩)، وصححه الألباني برقم (١٧٧٦) في صحيح الجامع.
(٢) راجع هذه القضية بالتفصيل فى كتابي: البيان فى صفات عباد الرحمن.

وكلمة الرسالة: «وأشهد أن محمدًا رسول الله».

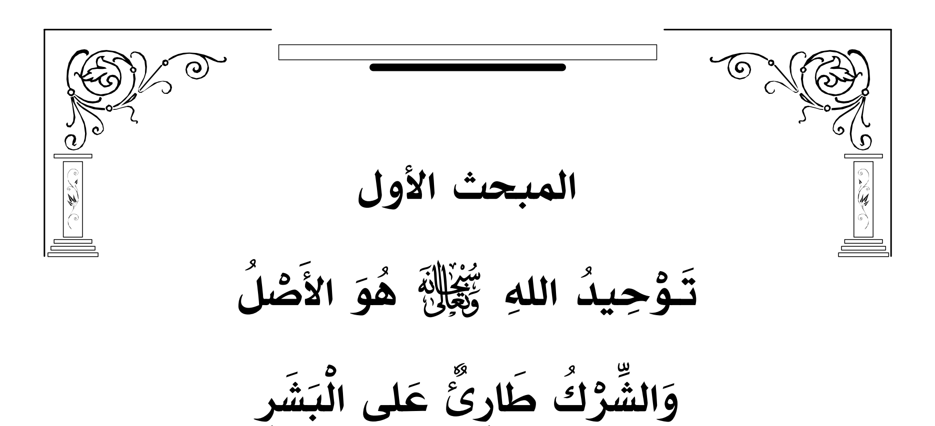
وإن لم يكن المولود يعي ذلك، ولكن لذلك إيحاؤه ودلالته في المستقبل، حين يعلم أن أول كلمة طرقت سمعه، هي كلمة التوحيد.

كما يعلم أن آخر كلمة يسمعها المسلم، وهو على فراش الموت هي كلمة التوحيد أيضًا.

فهو يستقبل الحياة بالتوحيد، ويودع الحياة بالتوحيد، وهو ما بين الاستقبال والوداع يعيش لرسالة التوحيد، ملتزمًا بها، وداعيا إليها. إن التوحيد - الذي هو جوهر الإسلام - ليس مجرد كلمة تقال، أو شهادة تعلن، إنه اتجاه فكري، ونفسي وخلقي، وعملي، يفرض على المسلم: ألا يبغي غير الله ربًّا، ولا يتخذ غير الله وليًّا، ولا يبتغي غير الله حكما[١].



(١) نقلا عن كتاب: الإسلام والعلمانية وجها لوجه (ص: ١٢٣-١٢٤).



المبحث الأول

تَوْحِيدُ اللهِ ﷻ هُوَ الأَصْلُ وَالشِّرْكُ طَارِئٌ عَلى الْبَشَرِ

التوحيد

تعريف التوحيد لغةً واصطلاحًا:

هو في اللغة مصدر من: وحد يوحد توحيدًا؛ إذا أفرده وجعله واحدًا[١].

والتوحيد في الاصطلاح: إفراد الله بما تفرد به، وبما أمر أن يفرد به؛ فنفرده في ملكه وأفعاله فلا رب سواه ولا شريك له، ونفرده في ألوهيته، فلا يستحق العبادة إلا هو، ونفرده في أسمائه وصفاته، فلا مثيل له في كماله ولا نظير له[٢].

التوحيد هو الأصل في البشر تاريخًا:

بعض الناس أثاروا شبهةً، مفادها أن الأصل في الإنسان الشرك، وقالوا:

(١) انظر: لسان العرب لابن منظور (٣/ ٤٤٨).

(٢) انظر: الدين الخالص لصديق حسن خان (١/ ٥٦). والأسئلة والأجوبة الأصولية للسلمان ص٤١ .

إن التوحيد طارئ علي الإنسان.

وقد زعم أصحاب هذه المقولة أن الإنسان عرف الشرك وتعدد الآلهة أولًا، ولم يعرف عقيدة التوحيد إلا بعد أن تطورت ومرت بعدة مراحل.

ويُردعلى هؤلاء بقولنا: إن التوحيد هو الأصل في البشر تاريخًا:

وهذا للأدلة التالية:

١- إن الغاية من خلق آدم عليه السلام وذريته هي عبادة الله وحده، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

٢- آدم عليه السلام أبو البشر وحواء أمهم كانا على التوحيد، وحين أكلا من الشجرة، علما أن لهما ربًّا يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات، فتضرعا إليه قائلين: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: من الآية ٢٣].

٣- إن الله اصطفى آدم عليه السلام، وشرّفه بذلك، قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران: ٣٣]، ولا يكون الاصطفاء لمشرك.

وقد أمر الله ملائكته بالسجود لآدم، يقول عز وجل: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: ٣٤].

٤- إن الله عز وجل قد أخذ العهد والميثاق على بني آدم، وهم في صلب أبيهم آدم عليه السلام أنه ربهم، وأشهدهم على أنفسهم، كما قال مولانا عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٣].

٥- إن ذرية آدم عليه السلام من بعده كانوا يدينون بالتوحيد الخالص طيلة عشرة قرون؛ حتى حدث الشرك في قوم نوح عليه السلام[(١)]؛ فبعث الله تعالى إليهم نوحًا عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله وحده؛ يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأعراف: ٥٩].

٦- كلما انحرفت البشرية عن التوحيد، أرسل الله الرسل تدعو إلى عبادته وحده، ونبذ ما يعبد من دونه، كما قال تعالى مخاطبا رسوله ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

التوحيد هو الأصل في البشر فطرة:

وكما كان التوحيد هو الأصل في البشر تاريخًا، فهو الأصل في البشر فطرة:

وهذا للأدلة التالية:

١- إنّ الله عز وجل منذ أوجد البشر فطرهم على التوحيد والإيمان به سبحانه وتعالى خالقًا ومعبودًا، وأخذ عليهم العهد والميثاق منذ كانوا في أصلاب آبائهم[(٢)]. يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٣].

(١) كما سيأتي إن شاء الله.

(٢) انظر: مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية (ص ١٦).

٢- إن الله ﷻ قد أمر رسوله ﷺ - وأمته داخلة في الخطاب- أن يقيموا وجوههم، ويخلصوا دينهم له؛ لأن ذلك هو مقتضى الفطرة التي فطرهم عليها، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

٣- قد أخبر مولانا ﷻ أنه خلق عباده حنفاء كلهم، موحدين، مسلمين، مستقيمين، منيبين لقبول الحق؛ لأن ذلك هو مقتضى الفطرة التي فطرهم عليها، حين أخذ عليهم العهد في الذر[١].

يقول الله ﷻ في الحديث القدسي: «**وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا**»[٢].

فالعباد كلهم مفطورون على الإسلام، والإيمان الصحيح، ولكن للشياطين دور في مسخ الفطرة، وتشويهها، وجعلها تنحرف عن المسار السوي.

فإذا طرأ على الفطرة ما يصرفها عن الصواب والحق، فإنها تحتاج إلى ما يصحح لها مسارها، ويردها عن الانحراف، وهذه مهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام.

٤- أخبر الرسول ﷺ: أَنَّ كُلَّ مَوْلُودٍ يُولَدُ مُتَهَيِّئًا لِلْإِسْلَامِ[٣] في قوله: «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟**».

(١) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١/ ١٩٧).
(٢) صحيح مسلم (٤/ ٢١٩٧).
(٣) قاله النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ٢٠٨).

ثم يقول أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ راوي الحديث: وَاقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾ الْآيَةَ [الروم: ٣٠][1].

والفطرة التي يولد الإنسان عليها كما قال الإمام المازري: «هي ما أخذ عليهم في أصلاب آبائهم، وأن الولادة تقع عليها، حتى يحصل التغيير بالأبوين»[2]؛ فالإنسان لو ترك على أصل خلقته التي خلقه الله عليها؛ «الفطرة»، دون أن تتدخل المؤثرات الأخرى، لكان من المؤمنين المسلمين[3].

والتحول عن الفطرة أساسا، إنما هو من فعل الشيطان، ووسوسته، وإغوائه.

٥- إن كل مولود في العالم يقر بأن الله خالقه وربه، ولو عبد غيره؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [العنكبوت: ٦١].

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف: ٨٧].

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [العنكبوت: ٦٣]، فالفطرة تدل على توحيد الربوبية.

٦- إن الفطرة تدل على توحيد الألوهية؛ لأن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية؛ فمن أيقن أن الله ربه وخالقه، فلا بد أن يصرف العبادة له وحده،

(١) صحيح مسلم (٤/ ٢٠٤٧).
(٢) نقله عنه الإمام النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ٢٠٨).
(٣) انظر تفسير البغوي (٦/ ٢٧٠).

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

فالإنسان إذا آمن بأن الله ﷻ هو الخالق، الرازق، المحيي، المميت، المعطي، المانع، الضار، النافع، بيده الأمر كله، وإليه يرجع الأمر كله، فلا بد أن ينتهي به الأمر إلى أنه المعبود بحق وحده، لا شريك له؛ فيخضع قلبه له محبة، وإنابة، وذلًّا، وخوفًا، وخشيةً، وتوكلًا؛ إذ كيف يعبد، أو يخاف، أو يحب محبة عبادة، أو يتوكل على مخلوق لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا.

الشرك طارئ على البشرية:

فهمنا مما تقدم أن الشرك نوع من أنواع الانحراف عن جادة الحق والفطرة، وأنه ليس الأصل، كما زعم من زعم. والأدلة على ذلك كثيرة، منها:

١- لقد كانت البشرية الأولى، أو ذرية آدم عليه السلام المولودة على الفطرة - والفطرة هي دين الإسلام الذي رضيه الله ﷻ وارتضاه لعباده[١]- كانت على الإسلام طيلة عشرة قرون[٢].

٢- يقول ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله الله سبحانه وتعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة: من الآية ٢١٣]: «كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام»[٣].

فالتوحيد هو أصل البشرية، منذ خلق الله آدم عليه السلام، حتى وقع الشرك في

(١) انظر: كلمات في الأخلاق الإسلامية (ص ٨٣).

(٢) انظر: معارج القبول للشيخ حافظ الحكمي (٢/ ٦٧٨)، وأضواء البيان للشيخ الشنقيطي (١/ ٢٨٦).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٣٣٤)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٤٢)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

قوم نوح عليه السلام.

٣- أول شرك وقع في الخليقة هو شرك قوم نوح عليه السلام، وسبب كفرهم وتركهم دينهم هو غلوهم في الصالحين؛ فمعبوداتهم التي عكفوا عليها وتعصبوا لها، وقالوا عنها: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

ومن أين جاءت الأصنام؟

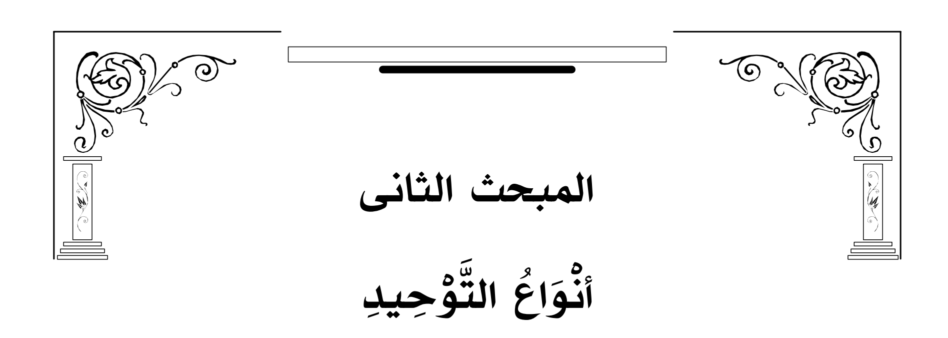
يجيب على ذلك حبرالأمة ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فيقولُ: «صَارَتِ الأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي العَرَبِ بَعْدُ، أَمَّا وَدٌّ كَانَتْ لِكَلْبٍ بِدُومَةِ الجَنْدَلِ، وَأَمَّا سُوَاعٌ كَانَتْ لِهُذَيْلٍ، وَأَمَّا يَغُوثُ فَكَانَتْ لِمُرَادٍ، ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بِالْجَوْفِ، عِنْدَ سَبَإٍ، وَأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ، وَأَمَّا نَسْرٌ فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ لِآلِ ذِي الكَلَاعِ، أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُواأَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ، أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ العِلْمُ عُبِدَتْ»[1].

فالشرك طارئ على البشرية، وأول ما وقع في قوم نوح عليه السلام، بعد ألف سنة من آدم عليه السلام.

٤- بعث الله عز وجل الرسل تترى؛ كلما ضلت أمة وانحرفت عن التوحيد، بعث إليها رسولًا يعيدها إلى الجادة ويبصرها بضلالها، كي ترعوي، وتعود إلى الحق. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: من الآية ٣٦].

---

(١) صحيح البخاري (٤٩٢٠).



المبحث الثانى

أَنْوَاعُ التَّوْحِيدِ

التوحيد ينقسم إلى ثلاثة أنواع[١]:

وهذه القسمة استقرائية، قد دلت عليها النصوص.

يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: «دلّ استقراء القرآن العظيم على أن التوحيد ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: توحيده في ربوبيته، وهذا النوع جبلت عليه فطر العقلاء.

الثاني: توحيده - جل وعلا - في عبادته، وضابط هذا النوع من التوحيد هو: تحقيق معنى لا إله إلا الله، وهي متركبة من نفي وإثبات.

الثالث: توحيده - جل وعلا - في أسمائه وصفاته»[٢].

فأنواع التوحيد إذًا ثلاثة:

وقد اجتمعت هذه الأنواع الثلاثة في آية واحدة من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ في قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: ٦٦].

(١) انظر: الدين الخالص (١/ ٥٦).

(٢) أضواء البيان للشنقيطي (٣/ ٤١٠ - ٤١١).

يقول الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ موضحًا ذلك: «فقوله: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ هذا توحيد الربوبية.

وقوله: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ﴾ هذا توحيد الألوهية.

وقوله: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ هذا توحيد الأسماء والصفات؛ أي: لا تعلم له سميًّا؛ أي: مساميًا يضاهيه ويماثله عَزَّ وَجَلَّ»[(١)].

وبعد ما عرفنا أنواع التوحيد، نتكلم عن كل نوع منها بإيجاز.

توحيد الربوبية

معنى الرب لغة:

الرب لغة يأتي لعدة معانٍ، منها: المربي، والمالك. يقال: رب كل شيء: مالكه، ومستحقه، أو صاحبه[(٢)].

توحيد الربوبية شرعًا:

هو الاعتقاد والاعتراف والإقرار الجازم بأن الله وحده رب كل شيء ومالكه، وخالق كل شيء ورازقه، وأنه المحيي والمميت، والنافع والضار، المتفرد بإجابة الدعاء عند الاضطرار، الذي له الأمر كله، وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، ليس له في ذلك شريك[(٣)].

---

(١) الجواب المفيد في بيان أقسام التوحيد لابن عثيمين (ص ٩).
(٢) انظر: الصحاح للجوهري (١/ ١٣٠)، والقاموس المحيط للفيروزآبادي (ص ١١١).
(٣) انظر: تيسير العزيز الحميد (ص ٣٣).

✍ما الذي يلزم المؤمن بتوحيد الربوبية؟

عندما نقول: على العبد أن يوحد الله في ربوبيته، فإنا نطلب منه أمورًا، هي:

١- أن يؤمن بوجوده أولًا.

٢- أن يؤمن بأفعال الله العامة؛ كالخلق، والرزق، والنفع، والضر، والإعطاء، والمنع، والإحياء، والإماتة... إلخ.

٣- أن يؤمن بقضاء الله وقدره؛ لأن ما يجريه الله في كونه وما يقدره من مقادير، هي من أفعاله ﷻ.

✍بعض الأدلة الشرعية على توحيد الربوبية:

القرآن الكريم مليء بذكر الأدلة على ربوبية الله ﷻ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ٢]، وقوله: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٦٤﴾ [البقرة: ١٦٤]، وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس: ٨٢]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: ٥٨]، وغير ذلك.

دلالة الفطرة على توحيد الربوبية:

هذا النوع من التوحيد جبلت عليه فطر العقلاء؛ فالله ﷻ فطر خلقه على الإقرار بربوبيته، وأنه الخالق الرازق، المحيي المميت... إلخ. وقد حكى الله ﷻ عن المشركين أنهم يقرون بهذا النوع من التوحيد، فقال: ﴿وَلَئِن

سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [العنكبوت: ٦١]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف: ٨٧]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [العنكبوت: ٦٣]، فهم ينسبون لله سبحانه: الخلق، والإحياء، والإماتة، وتدبير الأمر؛ من رزق، وإنزال مطر، وغير ذلك.

موقف المشركين من توحيد الربوبية:

ذكرنا في الوقفة السابقة أن المشركين كانوا يقرون بتوحيد الربوبية، ومع ذلك حكم عليهم الله سبحانه وتعالى بالكفر، ودمغهم بالشرك؛ فقال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦].

والملاحظ أن الله عز وجل نسب إليهم في هذه الآية إيمانًا، مع حكمه عليهم بالشرك، وهذا الإيمان الذي أثبته لهم، قولهم: إن الله خلقنا، ويرزقنا، ويميتنا، فهذا إيمانهم، مع إشراكهم في عبادتهم غيره(١).

وهذا التوحيد كما أقر به المشركون الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ، كذلك أقرت به سائر الأمم؛ إما ظاهرًا وباطنًا، أو باطنًا فقط. وفرعون الذين أنكره، ظاهرًا، أقر به باطنًا، كما حكى الله عنه وعن قومه: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: من الآية ١٤](٢).

(١) انظر: الدين الخالص لصديق حسن خان (١/ ٢٠٩)، وتوحيد الربوبية (ص ١٢).

(٢) انظر: شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (١/ ٢٥-٢٧). وتوحيد الربوبية (ص ١٤ - ١٥).

هل يكفي توحيد الربوبية وحده؟ وهل يدخل صاحبه في الإسلام؟

والجواب: لا يكفي توحيد الربوبية وحده، ولا يدخل صاحبه في الإسلام، ولذلك قاتل رسول الله ﷺ من أقرّ به، وصرف العبادة لغير الله.



توحيد الأسماء والصفات

تعريف توحيد الأسماء والصفات:

يعرف هذا النوع من أنواع التوحيد بأنه: إفراد الله ﷻ بما سمى به نفسه، ووصف به نفسه؛ في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ، نفيًا وإثباتًا؛ فيثبت له ما أثبته لنفسه، وينفي عنه ما نفاه عن نفسه؛ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل[1].

في ذكر بعض أصول أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات:

هذا النوع من أنواع التوحيد ينبني عند أهل السنة والجماعة[2] على أصول، منها:

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٣/ ٣). والرسالة التدمرية له (ص ٧). ولوامع الأنوار البهية للسفاريني (١/ ١٢٩)، والمجموع الثمين من فتاوى فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين (١٢). والأسئلة والأجوبة في العقيدة للشيخ صالح الأطرم ص (٢٢).

(٢) انظر: منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٢/ ١١٠). وأضواء البيان للشنقيطي (٢/ ٣١٢)، (٣/ ٤١١). وآداب البحث والمناظرة له (٢/ ١٢٧ - ١٢٨).

١- تنزيه الله ﷻ عن مشابهة صفات الحوادث؛ فالله ﷻ ليس كمثله شيء بوجه من الوجوه؛ لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله[١]؛ كما أخبر سبحانه وتعالى عن نفسه بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

٢- الإيمان بجميع ما وصف الله به نفسه، أو وصفه رسوله ﷺ حقيقة لا مجازًا، على الوجه اللائق بكماله وجلاله، فكما لا يجوز تمثيل صفاته ﷻ بصفات خلقه، كذلك لا يجوز نفي الصفات التي وصف بها نفسه.

والملاحظ على الآية المذكورة آنفا أنها ذات شقين؛ أحدهما: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ رد على أهل التشبيه والتمثيل، والآخر: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ رد على أهل النفي والتعطيل.

٣- قطع الطمع عن إدراك كيفية صفاته ﷻ؛ إذ العباد لا يعلمون كيفية ما أخبر الله به عن نفسه؛ لأن عقولهم لا تطيق «كنه معرفته ﷻ، ولا تقدر ألسنتهم على بلوغ صفته»[٢].

توحيد الألوهية

تمهيد: توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات من جنس واحد؛ فهما نوعان مفهومهما اعتقادي - ليس عمليًّا كتوحيد الألوهية- ولذلك أطلق بعض أهل العلم عليهما اسمًا وحدًا، هو: توحيد المعرفة والإثبات، أو التوحيد العلمي الخبري؛ لأن المطلوب من المؤمن تجاههما: معرفة، وإثبات؛ معرفة أفعال الله، وأسمائه، وصفاته، وإثباتها له ﷻ.

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (١/ ١١٧). والرسالة المدنية له (ص ٣١).
(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٢/ ٥٧٥).

أما توحيد الإلهية، أو العبادة: فهو توحيد عملي؛ فيه أمر بفعل يصرف لواحد؛ وهو الله ﷻ، أو نهي عن فعل يترك لأجل واحد، هو الله ﷻ؛ فهو توحيد في الطلب والقصد، أو توحيد إرادي طلبي، فيه دعوة إلى عبادة الله وحده، وخلع ما يعبد من دونه[(١)].

والكلام عن هذا النوع من أنواع التوحيد يطول؛ إذ المعركة بين الرسل عليهم الصلاة والسلام وبين أقوامهم، كانت من أجل هذا التوحيد.

وسأكتفي هاهنا بذكر مقدمة تعريفية بهذا التوحيد، وأترك التفصيل.

في تعريف كلمة «إله» لغة:

يقال في اللغة: أله إلاهة وألوهة وألوهية: أي عبد عبادة.

وتوحيد الألوهية: أي توحيد العبادة، والإله بمعنى مألوه؛ أي معبود. وأَلَهه: اتخذه إلهًا؛ أي معبودًا. وكل ما اتخذ معبودًا، فهو إله عند متخذه[(٢)].

تعريف توحيد الألوهية:

عرف العلماء توحيد «الألوهية» بأنه إفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة الظاهرة والباطنة، قولًا وعملًا، ونفي العبادة عن كل ما سوى الله تعالى كائنًا من كان[(٣)].

---

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (ص٤٢ - ٤٣).

(٢) انظر: الصحاح للجوهري (٦/ ٢٢٢٣). والقاموس المحيط للفيروزآبادي (ص ١٦٠٣). والمعجم الوسيط لجماعة من المؤلفين (ص ٢٥).

(٣) أعلام السنة المنشورة للشيخ حافظ الحكمي (ص٥١). وانظر المجموع الثمين للشيخ ابن عثيمين (٢/ ١١).

منزلة توحيد الألوهية بين أنواع التوحيد:

هذا التوحيد هو أول دعوة الرسل[١] عليهم الصلاة والسلام؛ فمن أجله أرسلت الرسل؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: من الآية ٣٦].

وبهذا التوحيد أنزل الله الكتب[٢]؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وهذا التوحيد هو الفارق بين الموحدين والمشركين، وعليه يقع الثواب أو العقاب في الدارين، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالتوحيد ضد الشرك، فإذا قام العبد بالتوحيد الذي هو حق الله، فعبده لا يشرك به شيئًا، كان موحدًا»[٣].

وهذا التوحيد هو الذي أمر رسول الله ﷺ أن يقاتل الكفار عليه[٤]؛ يقول ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ، وَنَفْسَهُ، إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ**»[٥].

و«لا إله إلا الله» هو معنى توحيد الألوهية.

---

(١) انظر: مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٤٤٣). وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (١/ ٢١).

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ١٤٥).

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ٥٢ - ٥٣).

(٤) انظر: المجموع الثمين من فتاوى فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين (٢/ ١١ - ١٢).

(٥) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

الأدلة الشرعية على توحيد الألوهية:

توحيد الله، وإخلاص الدين له في عبادته واستعانته، في القرآن كثير جدًّا، كما قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1].

ومن هذه الأدلة الكثيرة:

قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء: من الأية٣٦]، وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: من الآية٢٣].

وقوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: من الآية٥].

وقوله: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٦٣﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

والأدلة من السنة كثيرة جدًّا، أكتفي بقوله ﷺ لمعاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**يَا مُعَاذُ، أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ؟**» قَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**أَنْ يُعْبَدَ اللهُ وَلَا يُشْرَكَ بِهِ شَيْءٌ**»، قَالَ: «**أَتَدْرِي مَا حَقُّهُمْ عَلَيْهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟**»، فَقَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**أَلَّا يُعَذِّبَهُمْ**»[2].

حكم من لم يأت بهذا النوع من التوحيد، وأخذ بالنوعين الباقين:

لا يدخل في الإسلام من لم يأت بتوحيد الألوهية، ولو كان آخذًا بالنوعين الآخرين؛ «فلو أن رجلًا من الناس يؤمن بأن الله سبحانه هو الخالق المالك

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٧٠).

(٢) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله. وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا. واللفظ لمسلم.

المدبر لجميع الأمور، وأنه سبحانه المستحق لما يستحقه من الأسماء والصفات؛ لكن يعبد مع الله غيره، لم ينفعه إقراره بتوحيد الربوبية، والأسماء والصفات»[(١)]، وكذا لو صرف شيئًا من العبادة لغير الله ﷻ؛ لأن الله ﷻ يقول: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: من الآية٧٢].

العلاقة بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية:

يكثر في كلام علماء أهل السنة - رحم الله أمواتهم، وحفظ أحياءهم- ذكر علاقة الاستلزام والتضمن بين نوعي التوحيد هذين.

ومن كلامهم في ذلك قول العلامة ابن القيم رحمه الله: «والإلهية التي دعت الرسل أممهم إلى توحيد الرب بها، هي العبادة والتأليه. ومن لوازمها: توحيد الربوبية الذي أقر به المشركون، فاحتج الله عليهم به؛ فإنه يلزم من الإقرار بتوحيد الإلهية»[(٢)].

ويقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله: «ويكثر في القرآن العظيم الاستدلال على الكفار باعترافهم بربوبيته - جل وعلا - على وجوب توحيده في عبادته؛ ولذلك يخاطبهم في توحيد الربوبية باستفهام التقرير، فإذا أقروا بربوبيته، احتج بها عليهم، على أنه هو المستحق لِأَنْ يعبد وحده، ووبخهم منكرًا عليهم شركهم به غيره، مع اعترافهم بأنه هو الرب وحده؛ لأن من اعترف بأنه هو الرب وحده، لزمه الاعتراف بأنه هو المستحق لِأَنْ يعبد وحده»[(٣)].

---

(١) المجموع الثمين للشيخ ابن عثيمين (٢/ ١٢).
(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن القيم (٢/ ١٥٣).
(٣) أضواء البيان للشنقيطي (٣/ ٤١١).

فتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية؛ فمن أقر بالأول، لزمه الثاني، أي: من عرف أن الله ربه وخالقه ومدبر أموره، - وقد دعاه هذا الخالق إلى عبادته- وجب عليه أن يعبده وحده لا شريك له؛ فإذا كان هو الخالق الرازق النافع الضار وحده، لزم إفراده بالعبادة[(١)].

والله ﷻ كثيرًا ما يستدل على المشركين المقرين بتوحيد الربوبية بهذا.

من ذلك قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقًا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٢٢﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

وكما أن كان توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية؛ فإن توحيد الألوهية يتضمن توحيد الربوبية؛ يقول الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله عن توحيد الألوهية: «وهو متضمن لتوحيد الربوبية؛ لأن كل من عبد الله وحده؛ فإنه لن يعبده حتى يكون مقرًّا له بالربوبية»[(٢)].

فتوحيد الألوهية يتضمن توحيد الربوبية؛ أي يدخل ضمنًا فيه؛ فمن عبد الله وحده لا شريك له، فلا بد أن يكون معتقدًا أنه ربه وخالقه ورازقه؛ إذ لا يعبد إلا من بيده النفع والضر، وله الخلق والأمر[(٣)].

✍الفرق بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية:

أعظم الغلط إنما حصل من جهة الانحراف في فهم مدلول كل من توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية؛ فليس أحدهما هو الآخر، والفروق بينهما كثيرة

---

(١) انظر: الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد (ص٣٤ - ٣٥). وتوحيد الألوهية (ص ٦٠).
(٢) المجموع الثمين لابن عثيمين (ص ٢٢).
(٣) انظر: الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد (ص٣٤ - ٣٥)، وتوحيد الألوهية (ص٦١).

جدًّا، وأكتفي بذكر بعضها، فمنها[1]:

١- فرق في الاشتقاق اللغوي؛ فالربوبية مشتقة من اسم «الرب»، والألوهية مشتقة من لفظ «الإله».

٢- فرق في التعريف؛ فتوحيد الربوبية: إفراد الله بأفعاله؛ من خلق، ورزق، وإحياء، وإماتة، وإعطاء، ومنع، وضر، ونفع . . . إلخ.

وتوحيد الألوهية: إفراد الله بأفعال عباده؛ من صلاة وزكاة وصيام وخشية ورجاء ومحبة وخوف وتوكل . . . إلخ.

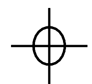
٣- فرق في الكفاية؛ فتوحيد الربوبية لا يكفي وحده في دخول الإسلام، أما توحيد الألوهية فيكفي وحده؛ لأن من أتى بتوحيد الألوهية، فقد أتى ضمنًا بتوحيد الربوبية؛ لذلك من قال: «لا إله إلا الله»، فقد أتى بجميع أنواع التوحيد.

٤- فرق في الإقرار؛ فتوحيد الربوبية أقر به المشركون، وتوحيد الألوهية رفضه المشركون ولم يؤمنوا به، وعبدوا آلهة أخرى، وقالوا: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: الآية ٣]، ولما طلب منهم أن يعبدوا الله وحده، قالوا ما حكاه الله عنهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ٥﴾ [ص: ٥].

٥- فرق في اللزوم والتضمن؛ فتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية؛ فمن أتى بتوحيد الربوبية، لزمه أن يأتي بتوحيد الألوهية.

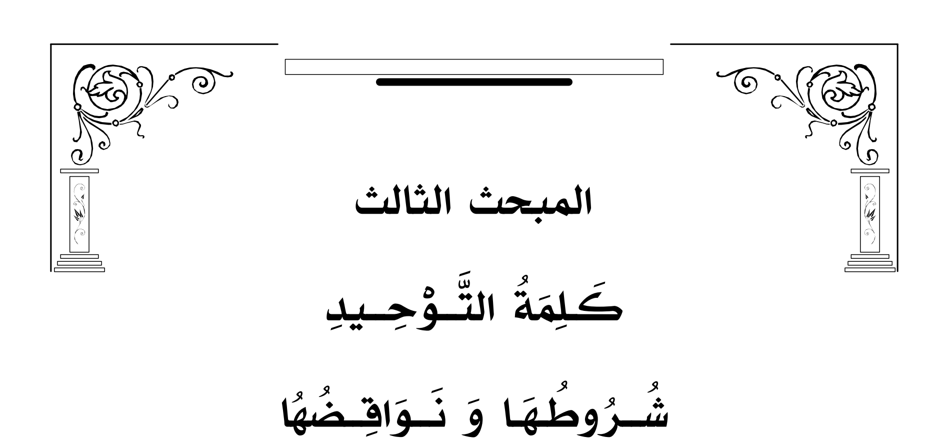
أما توحيد الألوهية، فإنه متضمن لتوحيد الربوبية؛ فمن جاء بتوحيد الألوهية، فقد أتى ضمنًا بتوحيد الربوبية.

(١) انظر إشارات إلى هذه الفروق في الكتب التالية: الأسئلة والأجوبة في العقيدة (ص١٥ – ١٩). والإرشاد إلى صحيح الاعتقاد (ص ٣٤ – ٣٥). وتوحيد الألوهية (ص ٦٠ – ٦٣).



وهذه الفروق التي ذكرتها مع غيرها من الفروق ترد على من زعم أن التوحيد الذي دعت إليه الرسل هو توحيد الربوبية، ولا يفرق بين هذا التوحيد وتوحيد الألوهية.





المبحث الثالث

كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ

شُرُوطُهَا وَ نَوَاقِضُهَا

شهادة أن لا إله إلا الله

توحيد الألوهية هو معنى شهادة الحق: «أشهد أن لا إله إلا الله».

ولما كان جماع التوحيد، وأساسه، وعموده، هو معرفة معنى شهادة الحق، كان من اللازم أن يحرص المسلم على إدراك معناها، وفهم مرماها، والعمل بمقتضاها.

ويتضح ذلك في وقفات مع هذه الشهادة:

معنى لا إله إلا الله:

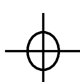
توحيد الألوهية، هو معنى لا إله إلا الله[1].

ومعنى «لا إله إلا الله» أي: لا تعبدوا أحدا إلا الله[2].

---

(١) انظر: معارج الصعود إلى تفسير سورة هود للشيخ الشنقيطي (ص ٤٠).

(٢) المرجع السابق.



أركان «لا إله إلا الله»:

«لا إله إلا الله» لها نوعان من الأركان؛ نوع لفظي، ونوع معنوي.

أما النوع اللفظي: وهو ما تضمنه لفظ الشهادة «لا إله إلا الله»: فركناه نفي وإثبات؛ «لا إله»: نفي، و«إلا الله»: إثبات.

وأما النوع المعنوي: وهو ما تضمنه معنى الشهادة «لا معبود بحق إلا الله»: فركناه نفي وإثبات أيضًا؛ ف «لا معبود بحق»: نفي، و«إلا الله»: إثبات.

فالنفي: نفي الإلهية واستحقاق العبادة عن كل ما سوى الله ﷻ.

والإثبات: إثبات الإلهية واستحقاق العبادة عن كل ما سوى الله ﷻ.

والإثبات: إثبات الإلهية واستحقاق العبادة لله ﷻ وحده، لا شريك له[(١)].

وهو معنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

شروط لا إله إلا الله:

معنى الشروط في اللغة: شروط جمع، مفردها شرط، والشرط: إلزام الشيء، والتزامه؛ يقال: شرط له أمرًا: التزمه، وشرط عليه أمرًا: ألزمه إياه[(٢)].

---

(١) انظر: أعلام السنة المنشورة للشيخ حافظ الحكمي (ص ٣٩).

(٢) انظر: القاموس المحيط للفيروزآبادي (ص٨٦٩). والمعجم الوسيط لجماعة من المؤلفين (ص ٤٧٨).

المراد بشروط «لا إله إلا الله»:

يراد بشروط «لا إله إلا الله»: الأمور التي يجب على الإنسان أن يلزمها، حتى يحقق «لا إله إلا الله»، أو: ما لا تصح شهادة «لا إله إلا الله» إلا بوجودها، ويجب اجتماعها.

منزلة هذه الشروط من شهادة «لا إله إلا الله»:

هذه الشروط بمثابة الأسنان للمفتاح، فلا يفتح إلا بوجودها.

وقد أشار إلى ذلك عدد من علماء الأمة؛ منهم الإمام الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ، حين قال للشاعر الفرزدق - وهو يدفن امرأته: ما أعددت لهذا اليوم؟ قال الفرزدق: شهادة أن لا إله إلا الله منذ سبعين سنة. فقال الحسن: نعم العدة، إن لـ «لا إله إلا الله» شروطا؛ فإياك وقذف المحصنات[(١)].

وقيل لوهب بن منبه رَحِمَهُ اللهُ: أليس «لا إله إلا الله» مفتاح الجنة؟ فقال: بلى، ولكن ليس مفتاح إلا له أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك، وإلا لم يفتح لك[(٢)].

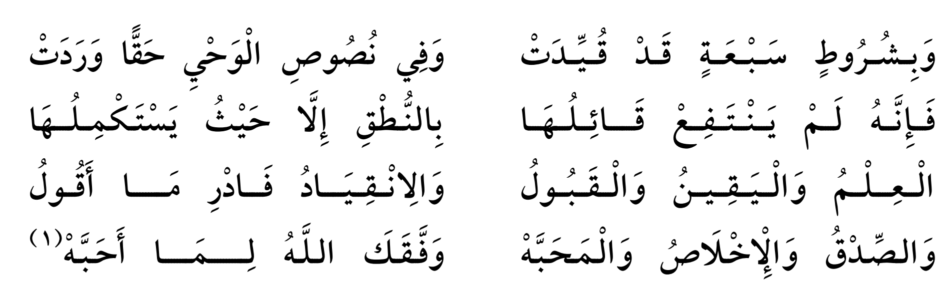
ذكر شروط «لا إله إلا الله»:

ذكر العلماء لكلمة الإخلاص «لا إله إلا الله» سبعة شروط، فنظمها الحافظ الحكمي بقوله:

---

(١) انظر: كتاب التوحيد لابن رجب الحنبلي (ص ٣٩). والدين الخالص لصديق حسن خان (١/ ١٥٧).

(٢) أخرجه البخاري تعليقًا في «صحيحه»، كتاب الجنائز، باب في الجنائز، ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله. وقد وصله في التاريخ (١/ ٩٥)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٦٦).



وَبِشُرُوطٍ سَبْعَةٍ قَدْ قُيِّدَتْ | وَفِي نُصُوصِ الْوَحْيِ حَقًّا وَرَدَتْ
فَإِنَّهُ لَمْ يَنْتَفِعْ قَائِلُهَا | بِالنُّطْقِ إِلَّا حَيْثُ يَسْتَكْمِلُهَا
الْعِلْمُ وَالْيَقِينُ وَالْقَبُولُ | وَالِانْقِيَادُ فَادْرِ مَا أَقُولُ
وَالصِّدْقُ وَالْإِخْلَاصُ وَالْمَحَبَّهْ | وَفَّقَكَ اللَّهُ لِمَا أَحَبَّهْ[(١)]

ونظمها بعضهم بقوله:

علمٌ يَقِينٌ وَإِخْلَاصٌ وَصِدْقُكَ | مَعَ مَحَبَّةٍ وَانقيادٍ والقَبول لهَا[(٢)]
وَزِيدَ ثَامِنُهَا الْكُفْرَانُ مِنْكَ بِمَا | دونَ الإلهِ مِنَ الْأَوْثَانِ قَدْ أُلِهَا[(٣)]

بيان شروط «لا إله إلا الله»:

الشرط الأول: العلم المنافي للجهل:

يراد بهذا الشرط: أن نعلم معنى كلمة التوحيد «لا إله إلا الله»، ومدلولها، علمًا منافيًا للجهل، في النفي والإثبات؛ فننفي الألوهية عن غير الله ﷻ، ونثبتها له وحده؛ بأن نعلم أنه لا معبود بحق غيره.

ومن الأدلة على هذا الشرط:

١- قول الله عز وجل: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: الآية ١٩].

والعلم هنا لا بد فيه من إقرار القلب، ومعرفته بما طلب منه علمه.

٢- قول الله ﷻ: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [الزخرف: الآية ٨٦].

(١) معارج القبول بشرح سلم الوصول (١/ ٣٢).
(٢) انظر: الشهادتان: معناهما، وما تستلزمه كل منها للشيخ ابن جبرين (ص ٧٧).
(٣) وهذا الأخير جعله بعضهم شرطًا ثامنًا، وهو كذلك، لكن أشار بعض العلماء إلى أنه داخل في السبعة المتقدمة عند التأمل.

أي: إلا من شهد بـ«لا إله إلا الله»، وهم يعلمون بقلوبهم معنى ما نطقوا به بألسنتهم[١].

٣- قول رسول الله ﷺ: **«مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، دَخَلَ الْجَنَّةَ»**[٢].

الشرط الثاني: اليقين المنافي للشك:

المراد بهذا الشرط: حتى يكون العلم كاملًا، يجب أَلَّا يكون فيه شك ولا ريب؛ فمن علم أن معنى «لا إله إلا الله»: لا معبود بحق إلا الله، يجب أن لا يرد على علمه شك ولا ريب، ويجب أَلَّا يتردد في الإيمان بمدلولها، وعليه أن يعتقد صحة ما يقوله من أحقية إلهية الله تعالى، وبطلان إلهية غير الله ﷻ بأي نوع من التأله.

ومن الأدلة على هذا الشرط:

١- قول الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٥]؛ فاشترط لصدق إيمانهم بالله ورسوله: كونهم لم يرتابوا؛ أي: لم يشكوا، فعلم أنه لا بد من البعد عن الشك في معنى «لا إله إلا الله».

٢- قول رسول الله ﷺ: **«أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، لَا يَلْقَى اللهَ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ فِيهِمَا، إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ»**[٣].

٣- قول رسول الله ﷺ لأبي هريرة رضي الله عنه: **«اذْهَبْ بِنَعْلَيَّ هَاتَيْنِ، فَمَنْ لَقِيتَ**

---

(١) انظر: أعلام السنة المنشورة للشيخ حافظ الحكمي (ص ٤٠).
(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة.
(٣) صحيح مسلم: (٢٧).

مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْحَائِطَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ، فَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ»[١].

الشرط الثالث: القبول المنافي للرد:

يراد من هذا الشرط: قبول ما اقتضته هذه الكلمة بالقلب واللسان، وتجنب ردها؛ لأن من الناس من يعلم معنى «لا إله إلا الله»، ويوقن بمدلولها؛ ولكنه يردها كبرا وحسدا؛ فالمشركون كانوا يعرفون معنى «لا إله إلا الله»، ولكنهم كانوا يستكبرون عن قبوله، كما حكى ﷻ ذلك عنهم بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الصافات: ٣٥].

وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٣٣][٢].

ومن الأدلة على هذا الشرط:

١- قول الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور: ٥١].

٢- قول الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦].

٣- قول رسول الله ﷺ: «**إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِيَ اللهُ بِهِ ﷻ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ، قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَرَعَوْا، وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِيَ اللهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ،**

(١) صحيح مسلم (٣١).

(٢) انظر: الشهادتان: معناهما، وما تستلزمه كل منهما للشيخ ابن جبرين (ص٨٠ - ٨١).

وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»[(١)].

الشرط الرابع: الانقياد المنافي للترك:

الانقياد من مستلزمات القبول. ولعل الفرق بينه وبين القبول: أن الانقياد هو الاتباع بالأفعال، والقبول إظهار صحة معنى ذلك بالقول. ويلزم منهما جميعا الاتباع، ولكن الانقياد هو الاستسلام والإذعان، وعدم التعقب لشيء من أحكام الله[(٢)].

ومن الأدلة على هذا الشرط:

١- قول الله ﷻ: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان آية٢٢].

٢- قول الله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: من الآية١٢٥].

٣- قول الله ﷻ: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ [الزمر: من الآية٥٤].

٤- قول رسول الله ﷺ: **«لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ»**[(٣)].

---

(١) صحيح البخاري: (٧٩). وصحيح مسلم: (٢٢٨٢). واللفظ لمسلم.

(٢) انظر: الشهادتان: معناهما، وما تستلزمه كل منهما للشيخ ابن جبرين (ص ٨١).

(٣) انقسم العلماء في هذا الحديث بين مصحح ومضعف؛ لأن آفته كما ذكروا هو نعيم بن حماد. فانظر كلامهم الطويل عن هذا الحديث في: جامع العلوم والحكم لابن رجب (٢/ ٣٩٣ - ٣٩٥). ومشكاة المصابيح للألباني (١/ ٥٩). وظلال الجنة بتخريج السنة له (ص ١٢).

الشرط الخامس: الصدق المنافي للكذب:

يراد بهذا الشرط: أن يكون صادقًا في قول: «لا إله إلا الله» واعتقاد مدلولها، صدقًا ينافي الكذب ظاهرًا، ويمنع من النفاق باطنًا؛ فلا يخالف ظاهره باطنه؛ بل يتواطأ ظاهره مع باطنه، وما في داخل قلبه مع ما يقوله بلسانه، ويجري على جوارحه من الأعمال. وهذا هو الصدق الذي يمنع من النفاق باطنًا.

كذلك لا يظهر على جوارحه ما يناقض ما في قلبه من الاعتقاد بمدلول: «لا إله إلا الله» ومقتضاها، واليقين به. وهذا هو الصدق الذي ينافي الكذب ظاهرًا.

ومن الأدلة على هذا الشرط:

١- قول الله ﷻ: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: ١-٣].

٢- قول الله ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١﴾ [المنافقون: ١]؛ فالمنافقون يقولون بألسنتهم؛ لكنهم ينكرون مدلول الشهادة بقلوبهم؛ لذلك حكم الله عليهم بالكذب، وبأن مجرد القول باللسان لا ينجيهم، بل هم في الدرك الأسفل من النار.

٣- قول رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ، إِلَّا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ**»[(١)].

---

(١) صحيح البخاري: (١٢٨).



٤- حين علَّم رسول الله ﷺ الأعرابي شرائع الإسلام، وقال له الأعرابي: وَاللَّهِ لَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا وَلَا أَنْقُصُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ**»[١].

الشرط السادس: الإخلاص المنافي للشرك:

يراد بهذا الشرط: تصفية القلب وتخليصه من كل ما يضاد معنى: «لا إله إلا الله»، وتصفية العبادة، وتخليصها من شوائب الشرك والرياء.

والإخلاص أن تكون العبادة لله وحده، دون أن يُصْرف منها شيء لغير الله ﷻ، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل[٢].

ومن الأدلة على هذا الشرط:

١- قول الله ﷻ: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: من الآية٣]؛ أي: لا يقبل الله من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده لا شريك له.

٢- قول الله ﷻ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

٣- قول رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ**»[٣].

---

(١) صحيح البخاري: (٤٦). ولفظه: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ ثَائِرَ الرَّأْسِ، يُسْمَعُ دَوِيُّ صَوْتِهِ وَلَا يُفْقَهُ مَا يَقُولُ، حَتَّى دَنَا، فَإِذَا هُوَ يَسْأَلُ عَنِ الإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي اليَوْمِ وَاللَّيْلَةِ**». فَقَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ: «**لَا، إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ**». قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**وَصِيَامُ رَمَضَانَ**». قَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُ؟ قَالَ: «**لَا، إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ**». قَالَ: وَذَكَرَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الزَّكَاةَ، قَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ: «**لَا، إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ**». قَالَ: فَأَدْبَرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَقُولُ: وَاللَّهِ لَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا وَلَا أَنْقُصُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ**».

(٢) انظر: الشهادتان: معناهما، وما تستلزمه كل منهما (ص ٨٣ - ٨٤).

(٣) صحيح البخاري: (٤٢٥).

٤- قول رسول الله ﷺ: «**أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، خَالِصًا مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ**»[(١)].

الشرط السابع: الحب المنافي للبغض:

المحبة هي مواطأة القلب على ما يرضي الله ﷻ؛ فيحب ما أحب الله، ويكره ما كره.

ويراد بهذا الشرط: أن يحب هذه الكلمة، ويحب العمل بمقتضاها، ويحب أهلها العاملين بها.

ومن هنا قيل: «كل من ادعى محبة الله، ولم يوافق الله في أمره، فدعواه باطلة»[(٢)].

و«ليس بصادق من ادعى محبة الله، ولم يحفظ حدوده»[(٣)].

فالعبد يحب الله ﷻ، ويحب رسوله ﷺ، ويحب كل ما يحبه من الأعمال والأقوال، ويحب أولياءه وأهل طاعته.

ومتى استقرت كلمة «لا إله إلا الله» في القلب؛ فإنه لا يفضل عليها شيء؛ إذ حبها يملأ القلب، فلا يتسع لغيرها، وعندئذ يجد العبد حلاوة الإيمان.

ومن الأدلة على هذا الشرط:

١- قول الله ﷻ: ﴿**وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ**﴾ [البقرة: من الآية١٦٥]، وللمفسرين في أفعل التفضيل «**أشد حبا لله**» قولان:

---

(١) صحيح البخاري: (٦٥٧٠).

(٢) ذكره ابن رجب الحنبلي في كتاب التوحيد (ص ٦١).

(٣) انظر: الشهادتان: معناهما، وما تستلزمه كل منهما (ص ٨٤).

أحدهما: الذين آمنوا أشد حبًّا لله من حب المشركين لله؛ لأن محبة المؤمنين خالصة، ومحبة المشركين مشتركة.

وثانيهما: الذين آمنوا أشد حبًّا لله من محبة المشركين لأندادهم[١].

٢- قول الله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: من الآية٥٤]؛ فالله يحبهم بسبب تمسكهم بدينه وشرعه، وهم يحبونه، ويمتثلون أوامره، ويجتنبون نواهيه.

٣- قول الله ﷻ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١].

يقول الحسن البصري رحمه الله عن هذه الآية: «قال أصحاب النبي ﷺ: يا رسول الله إنا نحب ربنا حبًّا شديدًا، فأحب الله أن يجعل لحبه عَلَمًا، فأنزل الله تعالى هذه الآية»[٢].

٤- قول رسول الله ﷺ: **«ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»**[٣].

واجتماع هذه الشروط يحقق حلاوة الإيمان؛ فيستلذ العبد الطاعات، ويحتمل المشاق، إذا كان ذلك في سبيل رضا الله ﷻ، ورضا رسوله ﷺ.

---

(١) انظر: الدين الخالص (٢/ ٣٥٩).

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ١٧٧ - ١٧٨)، وعزاه إلى ابن جرير، وابن المنذر عن الحسن البصري.

(٣) صحيح البخاري: (١٦).

الشرط الثامن: الكفر بما يعبد من دون الله:

ويراد بهذا الشرط: أن يعتقد بطلان عبادة من سوى الله ﷻ، وأن كل المعبودات سوى الله باطلة، وجدت نتيجة جهل المشركين وضلالهم؛ فمن أقرهم على شركهم، أو شك في بطلان ما هم عليه؛ فليس بموحد، ولو قال لا إله إلا الله، ولو لم يعبد غير الله[1].

ومن الأدلة على هذا الشرط:

١- قول الله ﷻ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾ [البقرة: ٢٥٦].

٢- قول رسول الله ﷺ: «**مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ، حَرُمَ مَالُهُ، وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ**»[2].

وبعد: فهذه هي شروط «لا إله إلا الله»، ولا بد من اجتماعها، والمداومة عليها كي يختم للعبد بخاتمة حسنة؛ لأن الأعمال بالخواتيم.

فمتى حقق المسلم هذه الشروط، كان من أهل: «لا إله إلا الله» القائمين بها علمًا وعملًا واستحق محبة الله وثوابه، والتنعم في جنات النعيم[3].

❊ ❊ ❊

(١) انظر: الشهادتان: معناهما، وما تستلزمه كل منهما (ص ٧٨).

(٢) صحيح مسلم: (٢٣).

(٣) انظر للاستزادة عن هذه الشروط: تيسير الإله بشرح أدلة شروط لا إله إلا الله، لعبيد الجبري.

نواقض لا إله إلا الله

النواقض لغة:

النواقض جمع، مفرده ناقض. يقال: نقض الشيء نقضًا: أفسده بعد إحكامه. ونقض ما أبرمه فلان: أبطله؛ فالنقض ضد الإبرام، ومنه: نقض العهد أواليمين: نكثه، ونقض الحبل أو الغزل: حل طاقاته، ونقض البناء: هدمه[(١)].

المراد بنواقض «لا إله إلا الله»:

يراد بنواقض «لا إله إلا الله»: مفسداتها؛ أي: الأمور التي إذا فعلها الشخص، فسد توحيده وانتقض[(٢)]؛ فإذا وُجد في العبد ناقض من نواقض «لا إله إلا الله»؛ فإنه لا يكون من المسلمين، ولا يكتسب أحكامهم، بل يعطى أحكام أهل الشرك والكفر.

ذكر نواقض «لا إله إلا الله»:

الناقض الأول: الإشراك بالله[(٣)]:

يقع هذا الناقض إذا صرف الإنسان شيئًا من العبادة لغير الله ﷻ؛ من صلاة، أو زكاة، أو ذبح، أو نذر[(٤)]، أو نحو ذلك.

---

(١) انظر: أساس البلاغة للزمخشري (ص ٦٥١). والقاموس المحيط للفيروز أبادي (ص ٨٤٦). ولسان العرب لابن منظور (٧/ ٢٤٢)، والمعجم الوسيط لجماعة من المؤلفين (ص ٩٤٧).

(٢) انظر: شرح نواقض التوحيد لحسن بن علي عواجي (ص ٩).

(٣) سأذكر بعد قليل الشرك بشيء من التفصيل؛ وهذا لبيان خطره وللتحذير منه.

(٤) ومن العبادة: النذر؛ فمن صرفه لغير الله فقد أشرك: يقول الشيخ سليمان بن عبد الله: إن=

ومن الأدلة على هذا الناقض:

١- قول الله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة: من الآية٧٢]؛ فالله ﷻ قد حرم الجنة على كل مشرك، وجعل النار مأواه الدائم؛ لأنه ترك القيام بعبوديته ﷻ[١].

٢- قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: ٤٨]؛ فـ «**مَنْ لَقِيَ اللهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ دَخَلَ النَّارَ**»[٢]، كما قال الصادق المصدوق ﷺ.

الناقض الثاني: من جعل وسائطَ وشفعاء بينه وبين الله، يدعوهم مع الله، أو من دون الله، أو يسألهم الشفاعة، أو يتوكل عليهم[٣]:

والمعنى: أن يجعل العبد لنفسه واسطة بينه وبين الله ﷻ، فيما لا يقدر عليه إلا الله، أو فيما لا يشرع ولا يجوز للعبد أن يجعله واسطة؛ كطلب الرحمة والمغفرة، ودخول الجنة، وطلب الشفاء، وطلب الرزق من غير الله سبحانه وتعالى؛ فهذا من الشرك الأكبر[٤].

= الله تعالى مدح الموفين بالنذر، والله تعالى لا يمدح إلا على فعل واجب أو مستحب، أو ترك محرم، لا يمدح على فعل المباح المجرد، وذلك هو العبادة. فمن فعل ذلك لغير الله متقربًا إليه، فقد أشرك. تيسير العزيز الحميد (ص٢٠٣).

(١) انظر: الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن القيم (ص ١٩١).

(٢) صحيح مسلم: (٩٣).

(٣) سيأتي الحديث عن هذا الناقض مفصلًا إن شاء الله تعالى.

(٤) انظر: تيسير ذي الجلال والإكرام بشرح نواقض الإسلام (ص ٤٤).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ عن هذا الناقض: فمن جعل الملائكة والأنبياء وسائطَ يدعوهم، ويتوكل عليهم، ويسألهم جلب المنافع ودفع المضارِّ؛ مثل أن يسألهم غفران الذنوب، وهداية القلوب، وتفريج الكروب، وسدَّ الفاقات؛ فهو كافر بإجماع المسلمين(١)؛ لأن الثمرة التي يريد أن يصل إليها من يجيز جعل الوسائط بين العبد وربه، هي إثبات الاستغاثة والاستعانة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله. وهذا هو الشرك بعينه(٢).

ومن الأدلة على هذا الناقض:

١- قول الله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأحقاف: ٥].

٢- قول الله ﷻ: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿١٤﴾﴾ [الرعد: ١٤].

٣- قول الله ﷻ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّـٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر: ٤٠].

الناقض الثالث: عدم تكفير المشركين، أو الشك في كفرهم، أو تصحيح مذهبهم(٣):

أمر الله ﷻ رسوله ﷺ في آيات كثيرة بالبعد عن الكفار والمشركين،

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ١٢٤).
(٢) انظر شرح نواقض التوحيد (ص ٣٧).
(٣) سيأتي الحديث عن هذا الناقض مفصلًا إن شاء الله تعالى.

والمخالفة لهم، والبراءة منهم. قال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

وقال ﷻ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون].

ومسألة الحكم بتكفير الكافر مبنية على أصل كبير؛ وهو أن الله تعالى عقد الأخوة والموالاة والمحبة بين المؤمنين كلهم، ونهى عن موالاة الكافرين كلهم، ممن ثبت في الكتاب والسنة الحكم بكفرهم(١).

فـ«من لم يُكَفِّر المشركين الذين كُفْرهم وشِرْكُهم ظاهر بيِّن، فهو كافر؛ لأن الله تعالى كَفَّرَهم في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ، فلا يُحْكَمُ بإسلام المرء حتى يُكَفِّر المشركين»(٢).

ومن الأدلة على هذا الناقض:

١- قول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣].

٢- قول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: من الآية ١].

٣- قول الله ﷻ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: الآية ٢٢].

(١) شرح نواقض التوحيد (ص ٥١).
(٢) تيسير ذي الجلال والإكرام بشرح نواقض الإسلام (ص ٥٣).

الناقض الرابع: من اعتقد أن غير هدي النبي ﷺ أكمل من هديه، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه:

من اعتقد أن هناك دينًا أحسن من الدِّين الَّذي جاء به رسول الله ﷺ، أو هديًا أكمل من هديه ﷺ، أو حكمًا أفضل من الحكم الذي أتى به من عند ربه ﷻ، فقد كفر؛ لأنه كذَّب ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ فالله ﷻ يقول: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الإسراء: ٩].

ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

ويقول رسول الله ﷺ: «**وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ**»(١).

ومن الأدلة على هذا الناقض:

١- قول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء: ٥٩]؛ فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ طلب من عباده الاحتكام إلى كتابه وسنة نبيه ﷺ عند وقوع التنازع.

٢- قول الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء: ٦٠]؛ فأخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن الاحتكام إلى غير كتابه وسنة نبيه ﷺ إضلال من الشيطان، وهو من صنيع المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء: ٦١].

(١) صحيح مسلم (٢/ ٥٩٢).

٣- قول الله ﷻ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]؛ فنفى الإيمان عمن لم يرض بحكم الله ﷻ.

الناقض الخامس: من أبغض شيئًا مما جاء به الرسول ﷺ:

بغض وكراهية الحق من صفات الكفار، كما قال تعالى: ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [المؤمنون: من الآية٧٠]، وهو أيضًا من صفات المنافقين الذين قال الله ﷻ عنهم: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة: من الآية ٥٤].

فمن أبغض وكره ما شرعه الله ﷻ، أو أبغض وكره التكاليف الشرعية - من صلاة وصيام وزكاة وحج وغيرها- وتمنى أن الله لم يكلِّف بها؛ فهذا لا شك في كفره؛ لأن في صنيعه تركًا للقبول والانقياد والتسليم التي تقدم الحديث عن أنها من شروط لا إله إلا الله[١].

ولذلك كفَّر العلماء من اتَّصف بهذه الصفة، وقالوا: «تكفير هذا معلوم بالاضطرار من دين الإسلام، والقرآن مملوء من تكفير مثل هذا النوع»[٢].

ومن الأدلة على هذا الناقض:

١- قول الله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾﴾ [محمد: ٩]؛ فهؤلاء كرهوا ما أنزل الله من القرآن - وهو ما جاء به النبي ﷺ - فلم يقبلوه، بل أبغضوه، ورفضوه، فأحبط الله أعمالهم، والأعمال لا تحبط إلا بالكفر الذي يناقض الإيمان.

٢- قول الله ﷻ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ

(١) انظر: تيسير ذي الجلال والإكرام بشرح نواقض الإسلام (ص٦٩).
(٢) الصارم المسلول على شاتم الرسول لابن تيمية (ص ٥٢٢).

عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: من الآية٦٣].

ولا ريب أن من أبغض ما جاء به رسول الله ﷺ مخالف لأمره عليه الصلاة والسلام.

٣- قول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «من ترك السنة كفر»(١)، وقوله رضي الله عنه محمول على الترك مع البغض والجحود، أو على ترك منهج النبي ﷺ وطريقته التي أوجب على أمته سلوكها(٢).

الناقض السادس: من استهزأ بشيء من دين الرسول ﷺ، أو ثوابه، أو عقابه:

من تجرأ بكلام فيه غض من دين الله، أو تنقص له، أو استهزاء به، أو تنقص لرسول الله ﷺ، أو استهزاء به، كفر بإجماع علماء المسلمين(٣).

يقول الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله: «فإن الاستهزاء بالله ورسوله كفر مخرج عن الدين؛ لأن أصل الدين مبني على تعظيم الله، وتعظيم دينه، ورسله. والاستهزاء بشيء من ذلك منافٍ لهذا الأصل، ومناقض له أشد المناقضة»(٤).

ومن الأدلة على هذا الناقض:

١- قول الله عز وجل: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦].

---

(١) ذكره ابن بطة العكبري في الشرح والإبانة (ص ١٢٣).
(٢) انظر: شرح نواقض التوحيد (ص ٦٨ - ٦٩).
(٣) انظر: الصارم المسلول على شاتم الرسول لابن تيمية (ص ٥١٣).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٢٥٩).

هاتان الآيتان حكمتا بكفر المستهزئين بالله، أو بدينه، أو بكتابه، أو برسوله، ولنزولهما سبب، أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» عن ابن عمر رضي الله عنهما، وفيه: أن رجلًا قال في غزوة تبوك في مجلس: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء، أرغب بطونًا، ولا أكذب ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء؛ فقال رجل في المجلس: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ. فبلغ ذلك النبي ﷺ، ونزل القرآن.

قال عبد الله بن عمر: فأنا رأيته متعلقًا بحقب[(١)] ناقة رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة[(٢)]، وهو يقول: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب. ورسول الله ﷺ يقول: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦][(٣)]. فدلت هاتان الآيتان على كفر المستهزئ بالله ﷻ، أو بآياته، أو برسوله ﷺ.

الناقض السابع: السحر، ومنه الصرف والعطف:

ومن السحر أدويةٌ وعقاقيرُ وعقدٌ وطلاسمُ تؤثر على بدن المسحور فتجده ينصرف عن زوجته «الصرف»؛ فيبغضها ويبغض بقاءها معه. أو ينعطف قلبه ويميل نحو زوجته أو امرأة أخرى «العطف»؛ حتى يكون كالبهيمة تقوده كما تشاء[(٤)].

---

(١) حقب الناقة: الحزام الذي يلي حقو البعير، أو هو حبل تُشدُّ به الحقيبة «المعجم الوسيط» (ص ١٨٧).

(٢) أي: تدميها المعجم الوسيط (ص٩٥٠).

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن لابن جرير الطبري (٦/ ٤٠٩). وإسناده لا بأس به. وانظر: مجموع الفتاوى (٧/ ٢٧٢ - ٢٧٣). والحذر بمعرفة أن من هزأ بالدين كفر (٢٢١ - ٣٣).

(٤) انظر: شرح نواقض التوحيد (ص: ٧٨ - ٨٧)، وتيسير ذي الجلال والإكرام بشرح نواقض الإسلام (ص ٧٩ - ٨٤).

والدليل على هذا الناقض:

قول الله ﷻ: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [البقرة: ١٠٢].

الناقض الثامن: مظاهرة المشركين، ومعاونتهم على المسلمين:

والمقصود من مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين: أن يتخذ البعض الكفار والمشركين أولياء، فبذلك يكونون لهم أنصارًا وأعوانًا ضد المسلمين، وبذلك ينضمون إليهم، ويذبون عنهم بالمال والسنان والبيان؛ فهذا كفر يناقض الإسلام.

والله ﷻ نهانا في آيات كثيرة أن نتخذ الكفار والمشركين أولياء، ومن معاني هذه الولاية التي نهينا أن نصرفها لهم: المحبة، والمودة الدينية، والنصرة، والتأييد على المسلمين[(١)].

ومن الأدلة على هذا الناقض:

١- قول الله ﷻ: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران: ٢٨]؛ أي: لا تتخذوا أيها المؤمنون الكفار ظهرًا وأنصارًا توالونهم على دينهم، وتظاهرونهم على المسلمين من دون المؤمنين

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١١/ ١٦٠ - ١٦١).

وتدلونهم على عوراتهم؛ فإنه من يفعل ذلك فقد برئ من الله، وبرئ الله منه...[(١)].

٢- قول الله ﷻ: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥١]؛ أي: لا تتخذوا أيها المؤمنون اليهود والنصارى أولياء، ومن يفعل ذلك منكم فإنه منهم؛ لأن «التولي التام يوجب الانتقال إلى دينهم والتولي القليل يدعو إلى الكثير، ثم يتدرج شيئًا فشيئًا، حتى يكون العبد منهم»[(٢)].

٣- قول الله ﷻ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]؛ فأخبر سبحانه وتعالى أن المؤمن -الذي لا بد أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما- لا تجده موادًّا لمن حاد الله ورسوله؛ فإن هذا جمع بين ضدين لا يجتمعان، ومحبوب الله، ومحبوب معاديه لا يجتمعان[(٣)].

٤- قول الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [المتحنة: ٩]؛ فأخبر ﷻ أن من يفعل ذلك - أي: من يتولى الكفار- فإنه ظالم؛ «وذلك الظلم يكون بحسب التولي، فإذا كان توليًا تامًّا، كان ذلك كفرا مخرجًا عن دائرة

---

(١) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن لابن جرير الطبري (٣/ ٢٢٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٣٠٤).

(٣) انظر: قاعدة في المحبة لابن تيمية (ص ٨٩ - ٩٠).

الإسلام»[١].

الناقض التاسع: من اعتقد أن بعض الناس يسعه الخروج عن شريعة محمد ﷺ، كما وسع الخضر عليه السلام الخروج عن شريعة موسى عليه السلام:

يعتقد البعض أن بالإمكان الخروج عن شريعة نبينا محمد ﷺ ومخالفته، والاستغناء عن متابعته في عموم أحواله أو بعضها، زاعمين أن في قصة الخضر عليه السلام حجة لهم[٢]. ولا ريب أن هذا الاعتقاد كفر مخرج عن الملة.

يقول الشيخ موسى بن أحمد المقدسي: «من اعتقد أنّ لأحد طريقًا إلى الله من غير متابعة محمد ﷺ، أو لا يجب عليه اتباعه، أو أن له أو لغيره خروجًا عن اتباعه وأخذ ما بعث به، أو قال: أنا محتاج إلى محمد في علم الظاهر دون علم الباطن، أو في علم الشريعة دون علم الحقيقة، أوقال: إن من الأولياء من يسعه الخروج عن شريعته كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى، أو أنَّ غيرَ هدي النبي ﷺ أكملُ من هديه، فهو كافر»[٣].

وقصة الخضر مع موسى قصَّها الله علينا، وفيها: خرق الخضر للسفينة، وقتله للغلام، وإقامته للجدار.

وقد زعم المحتجون بها أن الخضر خالف موسى عليه السلام وخرج عن شريعته، وعن الأمر والنهي الشرعيين.

قالوا: وكذلك يسوغ لبعض الناس الخروج عن الشريعة النبوية، كما ساغ

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١١/ ٤٢٢).
(٢) الإقناع لطالب الانتفاع (٤/ ٢٨٧ - ٢٨٨).
(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٣/ ٤٢٢).

للخضر الخروج عن متابعة موسى عليه السلام[١].

ومزاعمهم هذه مردودة عليهم من وجوه[٢]:

١- إن موسى عليه السلام لم يكن مبعوثًا إلى الخضر، ولا كان على الخضر اتباعه؛ بل كان مبعوثًا إلى قومه خاصة؛ إلى بني إسرائيل، والخضر عليه السلام ليس من بني إسرائيل. وموسى عليه السلام قصد الخضر للتعلم منه، والأخذ عنه، وحين لقيه قال له: «أتيتك لتعلمني مما عُلِّمت رشدًا». فلا يقاس عليه رسولنا ﷺ الذي أرسله الله لجميع الثقلين؛ الجن والإنس، كما قال ﷺ: «**وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً**»[٣].

ولا يعتبر صنيع الخضر عليه السلام خروجًا على شريعة موسى عليه السلام، أما من خالف رسول الله ﷺ، ولم يطعه في كل ما أمر، أو ينته عما نهى عنه وزجر، فهو من أمته، ولا يجوز له مخالفته، فإن فعل، فهو خارج عن شريعته عليه الصلاة والسلام لا محالة.

٢- إن قصة الخضر عليه السلام ليس فيها مخالفةٌ للشريعة؛ بل ما فعله عليه السلام يباح في الشريعة إذا علم العبد أسبابها كما علمها الخضر عليه السلام. ولهذا لما بين الخضر لموسى أسبابها، وافقه موسى عليه السلام على ذلك، ولو كان ما فعله الخضر مخالفًا لشريعة موسى، لما وافقه بحال[٤].

أما هذا الذي يريد الخروج على شريعة محمد ﷺ، فهو مخالف لشريعته.

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١١/ ٤٢٠).
(٢) ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١١/ ٢٦٣).
(٣) صحيح البخاري (٣٣٥).
(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١١/ ٢٦٣). وشرح نواقض التوحيد. (ص١٠٠ - ١٠١). وتيسير ذي الجلال والإكرام بشرح نواقض الإسلام (ص ١٠٠).

ويتضح ذلك في الوجه الثالث.

٣- إن ما فعله الخضر عليه السلام كان عن وحي من الله عز وجل، وليس مجرد خيال أو إلهام.

وهذا لا يمكن أن يكون لأحد بعد رسولنا ﷺ؛ خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي بموته انقطع الوحي. ومن ادعى حصوله كفر[١].

إذًا: لا يجوز الخروج على شريعة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بحال، ومن فعل ذلك؛ فهو كافر مرتد، وهو من أعظم الناس كفرًا[٢].

الناقض العاشر: الإعراض عن دين الله، فلا يتعلمه، ولا يعمل به:

الإعراض التام عن دين الله عز وجل، والتولي عن طاعة رسول الله ﷺ، والامتناع عن الاتباع، والصدود عن قبول حكم الشريعة؛ فلا إرادة له في تعلم الدين ولا يحدث نفسه بغير ما هو عليه[٣]، ويعرض إعراضا كليًّا عن جنس العمل الظاهر «الطاعة أو الاتباع».

والإعراض التام الكلي لا يقع إلا ممن تمكّن من العلم ومعرفة الحق، وتمكن من العمل، فأعرض، وفرَّط، وترك ما أوجبه الله عليه، من غير عذر؛ فهذا وأمثاله مفرط بإعراضه عن اتباع داعي الهدى. فإذا ضل، فإنما أُتِيَ من تفريطه وإعراضه[٤].

---

(١) انظر: الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة (ص ١٣٢).

(٢) انظر: إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/ ١٢٣).

(٣) انظر: طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص ٤١٢ - ٤١٣). وتيسير ذي الجلال والإكرام بشرح نواقض الإسلام (ص ١٠٢).

(٤) انظر: مفتاح دار السعادة (١/ ٤٣). والمجموع الثمين للشيخ ابن عثيمين (٣/ ١٧).

ويجب أن يُعْلَم أن الإعراض ليس كله مما يخرج من الملة؛ بل الذي يكفر بتركه هو الإعراض عن تعلم الإيمان العام المجمل، والإعراض عن جنس العمل الذي يُعَدُّ شرطًا في صحة الإيمان[١]، فهذا هو الذي يَكْفُر فاعله؛ لأنه لم يتعلم دين الله، ولم يعمل به.

يقول العلامة ابن القيم عن الإعراض عن تعلم الإيمان المجمل الذي يدخل صاحبه في دائرة الإسلام: والإسلام هو توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، والإيمان بالله وبرسوله، واتباعه فيما جاء به. فما لم يأت العبد بهذا فليس بمسلم، وإن لم يكن كافرًا معاندًا؛ فهو كافر جاهل[٢].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية عن الإعراض عن العمل: وقد تبين أن الدين لا بد فيه من قول وعمل، وأنه يمتنع أن يكون الرجل مؤمنًا بالله ورسوله بقلبه، أو بقلبه ولسانه، ولم يؤد واجبًا ظاهرًا، ولا صلاةً، ولا زكاةً، ولا صيامًا، ولا غير ذلك من الواجبات[٣].

ومن الأدلة على هذا الناقض:

١- قول الله ﷻ: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النور: ٤٧، ٤٨]؛ «فنفى الإيمان عمَّن تولى عن العمل، وإن كان قد أتى بالقول»[٤].

---

(١) انظر: شرح نواقض الإسلام (ص ١٠٥)، وتيسير ذي الجلال والإكرام بشرح نواقض الإسلام (ص ١٠٢ - ١٠٣).

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ٤١١).

(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٢١).

(٤) مجموع الفتاوى (٧/ ١٤٢).

٢- قول الله ﷻ: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران: ٣٢]؛ فدل على أن من تولى عن طاعة الله ﷻ، وطاعة رسوله ﷺ، فهو كافر[١].

٣- قول الله ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء: ٦١]؛ «فبين سبحانه أن من تولى عن طاعة الرسول ﷺ، وأعرض عن حكمه؛ فهو من المنافقين وليس بمؤمن»[٢].

٤- قول الله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦]؛ فأخبر ﷻ أن المعرضين في معيشة ضنك، وضيق، وأنهم يحشرون يوم القيامة عميًا.

نعوذ بالله من موجبات غضبه، وأليم عقابه، وصلى الله على محمد.

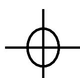
ونسأل الله أن يعصمنا بالتقوى؛ إنه سميع مجيب.

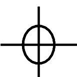
* * *

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٣٣٨).

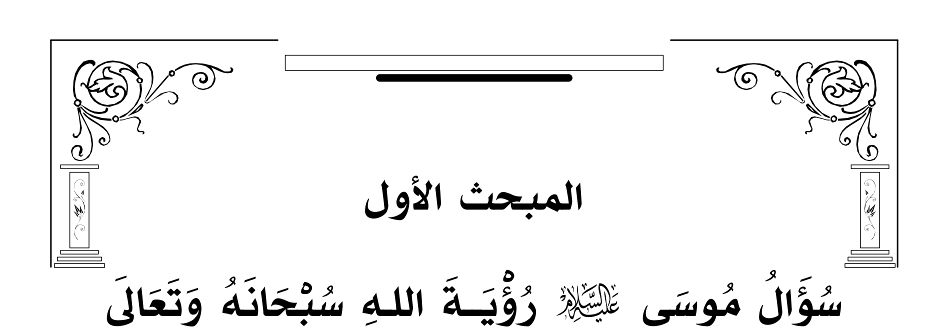
(٢) الصارم المسلول على شاتم الرسول لابن تيمية (ص ٣٣).





الفصل الثالث

أَسْـئِلَةٌ مُـتَـفِرَّقَـةٌ لِلْكَـلِيـمِ مُـوسَى عليه السلام



المبحث الأول

سُؤَالُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ رُؤْيَةَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

سؤال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ رؤية الله

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾ [الأعراف: ١٤٣].

قال ابن كثير: يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ لَمَّا جَاءَ لِمِيقَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَحَصَلَ لَهُ التَّكْلِيمُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى سَأَلَ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ فَقَالَ: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾، وَقَدْ أَشْكَلَ حَرْفُ «لَنْ» هَاهُنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ؛ لِأَنَّهَا مَوْضُوعَةٌ لِنَفْيِ التَّأْبِيدِ، فَاسْتَدَلَّ بِهِ الْمُعْتَزِلَةُ عَلَى نَفْيِ الرُّؤْيَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَهَذَا أَضْعَفُ الْأَقْوَالِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ تَوَاتَرَتِ الْأَحَادِيثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَ اللَّهَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، كَمَا سَنُورِدُهَا عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ ٢٤﴾ [القِيَامَةِ: ٢٢ - ٢٤].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْكُفَّارِ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الْمُطَفِّفِينَ:١٥].

وَقِيلَ: إِنَّهَا لِنَفْيِ التَّأْبِيدِ فِي الدُّنْيَا؛ جَمْعًا بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ، وَبَيْنَ الدَّلِيلِ الْقَاطِعِ عَلَى صِحَّةِ الرُّؤْيَةِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ.

وَقِيلَ: إِنَّ هَذَا الْكَلَامَ فِي هَذَا الْمَقَامِ كَالْكَلَامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذَلِكَ فِي سورة الْأَنْعَامِ [الْآيَةَ: ١٠٣].

وَفِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يَا مُوسَى، إِنَّهُ لَا يَرَانِي حَيٌّ إِلَّا مَاتَ، وَلَا يَابِسٌ إِلَّا تَدَهْدَهَ»؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾

قَالَ أَبُو جَعْفَرِ بْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ سُهَيْل الْوَاسِطِيُّ، حَدَّثَنَا قُرَّة بْنُ عِيسَى، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، عَنْ رَجُلٍ، عَنْ أَنَسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: «**لما تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ، أَشَارَ بِإِصْبَعِهِ فَجَعَلَهُ دَكًّا**»، وَأَرَانَا أَبُو إِسْمَاعِيلَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ.

هَذَا الْإِسْنَادُ فِيهِ رَجُلٌ مُبْهَمٌ لَمْ يُسَمَّ، ثُمَّ قَالَ: حَدَّثَنِي الْمُثَنَّى، حَدَّثَنَا حجَّاج بْنُ مِنْهال، حَدَّثَنَا حَمَّاد، عَنْ لَيْث، عَنْ أَنسٍ؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ قَالَ: «هَكَذَا - بِإِصْبَعِهِ - وَوَضَعَ النَّبِيُّ ﷺ إِصْبَعَهُ الْإِبْهَامَ عَلَى الْمَفْصِلِ الْأَعْلَى مِنَ الْخِنْصَرِ- فَسَاخَ الْجَبَلُ» هَكَذَا وَقَعَ فِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ: «حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ لَيْثٍ، عَنْ أَنَسٍ».

وَالْمَشْهُورُ: «حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسٍ»، كَمَا قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي الْمُثَنَّى، حَدَّثَنَا هُدْبَة بْنُ خَالِدٍ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ

أَنَسٍ قَالَ: قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ قَالَ: وَضَعَ الْإِبْهَامَ قَرِيبًا مِنْ طَرْفِ خِنْصَرِهِ، قَالَ: فَسَاخَ الْجَبَلُ - قَالَ حُمَيْدٌ لِثَابِتٍ: تَقُولُ هَذَا؟ فَرَفَعَ ثَابِتٌ يَدَهُ فَضَرَبَ صَدْرَ حُمَيْدٍ، وَقَالَ: يَقُولُهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَيَقُولُهُ أَنَسٌ، وَأَنَا أَكْتُمُهُ؟! وَهَكَذَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ»: حَدَّثَنَا أَبُو الْمُثَنَّى، مُعَاذُ بْنُ مُعَاذٍ الْعَنْبَرِيُّ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، حَدَّثَنَا ثَابِتٌ الْبُنَانِيُّ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ قال: قال هكذا - يعني أنه أخرج طَرَفَ الْخِنْصَرِ - قَالَ أَحْمَدُ: أَرَانَا مُعَاذٌ، فَقَالَ لَهُ حُمَيْدٌ الطَّوِيلُ: مَا تُرِيدُ إِلَى هَذَا يَا أَبَا مُحَمَّدٍ؟ قَالَ: فَضَرَبَ صَدْرَهُ ضَرْبَةً شَدِيدَةً وَقَالَ: مَنْ أَنْتَ يَا حُمَيْدُ؟! وَمَا أَنْتَ يَا حُمَيْدُ؟! يُحَدِّثُنِي بِهِ أَنَس بْن مَالِكٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فَتَقُولُ أَنْتَ: مَا تُرِيدُ إِلَيْهِ؟!

وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ، عَنْ عَبْدِ الْوَهَّابِ بْنِ الْحَكَمِ الْوَرَّاقِ، عَنْ مُعَاذِ بْنِ مُعَاذٍ، بِهِ. وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدَّارِمِيِّ، عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ حَرْبٍ، عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ، بِهِ، ثُمَّ قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ، لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ حَمَّادٍ.

وَهَكَذَا رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي «مُسْتَدْرَكِهِ» مِنْ طُرُقٍ، عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ، بِهِ. وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، وَرَوَاهُ أَبُو مُحَمَّدٍ الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْخَلَّالُ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ سُوَيْد، عَنْ أَبِي الْقَاسِمِ الْبَغَوِيِّ، عَنْ هُدْبَةَ بْنِ خَالِدٍ، عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ، فَذَكَرَهُ وَقَالَ: هَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ لَا عِلَّةَ فِيهِ.

وَقَدْ رَوَاهُ دَاوُدُ بْنُ الْمُحَبَّرِ، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسٍ مَرْفُوعًا وَهَذَا ليس بشيء؛ لأن داود بن الْمُحَبَّرِ كَذَّابٌ، وَرَوَاهُ الْحَافِظَانِ أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبَرَانِيُّ وَأَبُو بَكْرٍ بِنَحْوِهِ، وَأَسْنَدَهُ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ مِنْ طَرِيقَيْنِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي عَرُوبَةَ،

عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ مَرْفُوعًا بِنَحْوِهِ، وَأَسْنَدَهُ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ البيْلماني، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ مَرْفُوعًا، وَلَا يَصِحُّ أَيْضًا.

وَقَالَ السُّدِّي، عَنْ عِكْرِمة، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿**فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ**﴾ قَالَ: مَا تَجَلَّى مِنْهُ إِلَّا قَدْرُ الْخِنْصَرِ: ﴿**جَعَلَهُۥ دَكًّا**﴾ قَالَ: تُرَابًا ﴿**وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا**﴾ قَالَ: مَغْشِيًّا عَلَيْهِ. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿**وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا**﴾ قَالَ: مَيِّتًا.

وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: سَاخَ الْجَبَلُ فِي الْأَرْضِ، حَتَّى وَقَعَ فِي الْبَحْرِ فَهُوَ يَذْهَبُ مَعَهُ.

وَقَالَ سُنَيْد، عَنْ حَجَّاجِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْأَعْوَرِ، عَنْ أَبِي بَكْرٍ الْهُذَلِيِّ: ﴿**فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا**﴾ انْقَعَرَ فَدَخَلَ تَحْتَ الْأَرْضِ، فَلَا يَظْهَرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَجَاءَ فِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ: أَنَّهُ سَاخَ فِي الْأَرْضِ، فَهُوَ يَهْوِي فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، رَوَاهُ ابْنُ مردويه. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ شَبَّة، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى أَبُو غَسَّانَ الْكِنَانِيُّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عِمْرَانَ، عَنْ مُعَاوِيَةَ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنِ الْجَلْدِ بْنِ أيوب، عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّة، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**لَمَّا تَجَلَّى اللَّهُ لِلْجِبَالِ طَارَتْ لِعَظَمَتِهِ سِتَّةُ أَجْبُلٍ، فَوَقَعَتْ ثَلَاثَةٌ بِالْمَدِينَةِ وَثَلَاثَةٌ بِمَكَّةَ، بِالْمَدِينَةِ: أُحُدٌ، وَوَرْقَانُ، وَرَضْوَى. وَوَقَعَ بِمَكَّةَ: حِرَاءٌ، وثَبِير، وَثَوْرٌ**». وَهَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ، بَلْ مُنْكَرٌ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: ذُكِرَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي الثَّلْجِ، حَدَّثَنَا الهَيْثَم ابْنُ خَارِجَةَ، حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ حُصَين بْنِ عَلاق، عَنْ عُرْوة بْنِ رُوَيم قَالَ: كَانَتِ الْجِبَالُ قَبْلَ أَنْ يَتَجَلَّى اللَّهُ لِمُوسَى عَلَى الطُّورِ صُمًّا مُلْسا، فَلَمَّا تَجَلَّى اللَّهُ

لِمُوسَى عَلَى الطُّورِ دُكَّ وَتَفَطَّرَتِ الْجِبَالُ فَصَارَتِ الشُّقُوقُ وَالْكُهُوفُ.

وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الْجَبَلَ حِينَ كُشِفَ الْغِطَاءُ وَرَأَى النُّورَ، صَارَ مِثْلَ دَكٍّ مِنَ الدِّكَاكِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ أَيْ: فَتَّتَهُ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾، فَإِنَّهُ أَكْبَرُ مِنْكَ وَأَشَدُّ خَلْقًا: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ فَنَظَرَ إِلَى الْجَبَلِ لَا يَتَمَالَكُ، وَأَقْبَلَ الْجَبَلُ فَدُكَّ عَلَى أَوَّلِهِ، وَرَأَى مُوسَى مَا يَصْنَعُ الْجَبَلُ، فَخَرَّ صَعِقًا.

وَقَالَ عِكْرِمَةُ: ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ قَالَ: نَظَرَ اللَّهُ إِلَى الْجَبَلِ، فَصَارَ صَحْرَاءَ تُرَابًا.

وَقَدْ قَرَأَ بِهَذِهِ الْقِرَاءَةِ بَعْضُ الْقُرَّاءِ، وَاخْتَارَهَا ابْنُ جَرِيرٍ، وَقَدْ وَرَدَ فِيهَا حديث مرفوع، رواه ابن مَرْدَوَيْهِ.

وَالْمَعْرُوفُ أَنَّ «الصَّعْق» هُوَ الْغَشْيُ هَاهُنَا، كَمَا فَسَّرَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ، لَا كَمَا فَسَّرَهُ قَتَادَةُ بِالْمَوْتِ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ صَحِيحًا فِي اللُّغَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزُّمَر:٦٨]، فَإِنَّ هُنَاكَ قَرِينَةٌ تَدُلُّ عَلَى الْمَوْتِ، كَمَا أَنَّ هُنَا قَرِينَةً تَدُلُّ عَلَى الْغَشْيِ، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾، وَالْإِفَاقَةُ إِنَّمَا تَكُونُ مِنْ غَشْيٍ.

﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ تَنْزِيهًا وَتَعْظِيمًا وَإِجْلَالًا أَنْ يَرَاهُ أَحَدٌ مِنَ أهل الدُّنْيَا إِلَّا مَاتَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ قال مجاهد: أن أسألك الرؤية.

﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ: مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أَنَّهُ لَا يَرَاكَ أَحَدٌ. وَكَذَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: قَدْ كَانَ قَبْلَهُ مُؤْمِنُونَ، وَلَكِنْ يَقُولُ: أَنَا أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِكَ أَنَّهُ لَا يَرَاكَ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَهَذَا قَوْلٌ حَسَنٌ لَهُ اتِّجَاهٌ. وَقَدْ ذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ جَرِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» هَاهُنَا أَثَرًا طَوِيلًا فِيهِ غَرَائِبُ وَعَجَائِبُ، عَنْ مُحَمَّد بن إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَكَأَنَّهُ تَلَقَّاهُ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ﴾ فيه حديثا أبي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

فَأَمَّا حَدِيثُ أَبِي سَعِيدٍ، فَأَسْنَدَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» هَاهُنَا، فَقَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ عَمْرِو بْنِ يَحْيَى الْمَازِنِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنَ اليهود إلى النبي ﷺ قَدْ لُطِمَ وَجْهُهُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِكَ مِنَ الْأَنْصَارِ لَطَمَ وَجْهِي. قَالَ: «**ادْعُوهُ**» فَدَعَوْهُ، قَالَ: «**لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ؟**» قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي مَرَرْتُ بِالْيَهُودِيِّ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْبَشَرِ.

قَالَ: قُلْتُ: وَعَلَى مُحَمَّدٍ؟ فَأَخَذَتْنِي غَضْبَةٌ فَلَطَمْتُهُ، قَالَ: «**لَا تُخَيِّرُونِي مِنْ بَيْنِ الْأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ**».

وَقَدْ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي أَمَاكِنَ كَثِيرَةٍ مِنْ «صَحِيحِهِ»، وَمُسْلِمٌ فِي أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ «صَحِيحِهِ»، وَأَبُو دَاوُدَ فِي كِتَابِ السُّنَّةِ مِنْ «سُنَنِهِ» مِنْ طُرُقٍ، عَنْ

عَمْرِو بْنِ يَحْيَى بْنِ عُمَارَةَ بْنِ أَبِي الْحَسَنِ الْمَازِنِيِّ الْأَنْصَارِيِّ الْمَدَنِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ سَعْدِ بْنِ مَالِكِ بْنِ سِنَانٍ الْخُدْرِيِّ، بِهِ.

وَأَمَّا حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ فَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ»: حَدَّثَنَا أَبُو كَامِلٍ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ شِهَابٍ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: اسْتَبَّ رَجُلَانِ: رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَرَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ، فَقَالَ الْمُسْلِمُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُحَمَّدًا عَلَى الْعَالَمِينَ. وَقَالَ الْيَهُودِيُّ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْعَالَمِينَ، فَغَضِبَ الْمُسْلِمُ عَلَى الْيَهُودِيِّ فَلَطَمَهُ، فَأَتَى الْيَهُودِيُّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ، فَدَعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَاعْتَرَفَ بِذَلِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«لَا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى؛ فَإِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَأَجِدُ مُوسَى مُمْسِكًا بِجَانِبِ الْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَكَانَ مِمَّنْ صَعِقَ فَأَفَاقَ قَبْلِي، أَمْ كَانَ مِمَّنِ اسْتَثْنَاهُ اللَّهُ** عَزَّ وَجَلَّ». أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»، مِنْ حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ، بِهِ. وَقَدْ رَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي الدُّنْيَا، رَحِمَهُ اللَّهُ: أَنَّ الَّذِي لَطَمَ الْيَهُودِيَّ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ هُوَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَلَكِنْ تَقَدَّمَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» أَنَّهُ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَهَذَا هُوَ أَصَحُّ وَأَصْرَحُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَالْكَلَامُ فِي قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: **«لَا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى»**، كَالْكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِ: **«لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَلَا عَلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى»**، قِيلَ: مِنْ بَابِ التَّوَاضُعِ. وَقِيلَ: قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ بِذَلِكَ. وَقِيلَ: نَهَى أَنْ يُفَضَّلَ بَيْنَهُمْ عَلَى وَجْهِ الْغَضَبِ وَالتَّعَصُّبِ. وَقِيلَ: عَلَى وَجْهِ الْقَوْلِ بِمُجَرَّدِ الرَّأْيِ وَالتَّشَهِّي، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: **«فَإِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»**، الظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا الصَّعْقَ يَكُونُ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ، يَحْصُلُ أَمْرٌ يُصْعَقُونَ مِنْهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِهِ.

وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ إِذَا جَاءَ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَتَجَلَّى لِلْخَلَائِقِ

الْمَلِكُ الدَّيَّانُ، كَمَا صَعِقَ مُوسَى مِنْ تَجَلِّي الرَّبِّ ﷻ وَلِهَذَا قَالَ عليه السلام: «**فَلَا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ**».

وَقَدْ رَوَى الْقَاضِي عِيَاضٌ فِي أَوَائِلِ كِتَابِهِ «الشِّفَاءِ» بِسَنَدِهِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ مَرْزُوقٍ: حَدَّثَنَا قَتَادَةُ، حَدَّثَنَا الْحَسَنُ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ يَحْيَى بْنِ وَثَّابٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَمَّا تَجَلَّى اللَّهُ لِمُوسَى عليه السلام كَانَ يُبْصِرُ النَّمْلَةَ عَلَى الصَّفَا فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ، مَسِيرَةَ عَشَرَةِ فَرَاسِخَ**»، ثُمَّ قَالَ: وَلَا يَبْعُدُ عَلَى هَذَا أَنْ يَخْتَصَّ نَبِيًّا بِمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ هَذَا الْبَابِ، بَعْدَ الْإِسْرَاءِ وَالْحَظْوَةِ بِمَا رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى. انْتَهَى مَا قَالَهُ، وَكَأَنَّهُ صَحَّحَ هَذَا الْحَدِيثَ، وَفِي صِحَّتِهِ نَظَرٌ، وَلَا يَخْلُو رِجَالُ إِسْنَادِهِ مِنْ مَجَاهِيلَ لَا يُعْرَفُونَ، وَمِثْلُ هَذَا إِنَّمَا يُقْبَلُ مِنْ رِوَايَةِ الْعَدْلِ الضَّابِطِ عَنْ مِثْلِهِ، حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى مُنْتَهَاهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ(١).

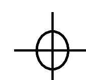
انتهى كلام الحافظ ابن كثير رحمه الله، ويستفاد منه أن أهل الدنيا لايرون ربهم، ولكن هل يرى أهل الجنة رب العالمين؟

والجواب: إن أفضل ما يُعطاه أهل الجنة رضوان الله والنظر إلى وجهه الكريم.

أفضل ما يُعطاه أهل الجنة رضوان الله والنظر إلى وجهه الكريم:

عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى يَا رَبِّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ،**

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٦٩) وما بعدها.



فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِك، فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا» متفق عليه(١).

وأعظم النعيم النظر إلى وجه الله الكريم في جنات النعيم، يقول ابن الأثير: «رؤية الله هي الغاية القصوى في نعيم الآخرة، والدرجة العليا من عطايا الله الفاخرة، بلغنا الله منها ما نرجو»(٢).

وقد صرح الحق - تبارك وتعالى - برؤية العباد لربهم في جنات النعيم ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، والكفار والمشركون يحرمون من هذا النعيم العظيم، والتكرمة الباهرة: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٥].

وقد روى مسلم في «صحيحه» والترمذي في «سننه» عن صهيب الرومي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ** عَزَّ وَجَلَّ»، زاد في رواية: «ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]»(٣).

وفي «صحيحي البخاري ومسلم» عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ فِي الْجَنَّةِ خَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ مُجَوَّفَةٍ، عَرْضُهَا سِتُّونَ مِيلًا، فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا أَهْلٌ مَا يَرَوْنَ الآخَرِينَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُونَ، وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ كَذَا، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ**

(١) مشكاة المصابيح: (٣/ ٨٨).
(٢) جامع الأصول: (١٠/ ٥٥٧).
(٣) جامع الأصول (١٠/ ٥٦٠).

يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الكِبْرِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ»[(١)].

والنظر إلى وجه الله تعالى هو من المزيد الذي وعد الله به المحسنين ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥]، ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وقد فسرت ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ بالجنة، والزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم[(٢)].

ورؤية الله رؤية حقيقية، لا كما تزعم بعض الفرق التي نفت رؤية الله تعالى بمقاييس عقلية باطلة، وتحريفات لفظية جائرة، وقد سئل الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة عن قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٣]، فقيل: إن قومًا يقولون: إلى ثوابه.

فقال مالك: كذبوا، فأين هم عن قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]؟! قال مالك: الناس ينظرون إلى الله يوم القيامة بأعينهم، وقال: لو لم ير المؤمنون ربهم يوم القيامة، لم يعبر الله عن الكفار بالحجاب، فقال: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٥]، رواه في «شرح السنة»[(٣)].

ومن الذين نصوا على رؤية المؤمنين ربهم في الجنات الطحاويُّ في العقيدة المشهورة باسم «العقيدة الطحاوية»، قال: «والرؤية حق لأهل الجنة، بغير إحاطة ولا كيفية، كما نطق به كتاب ربنا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، وتفسيره على ما أراد الله تعالى وعلمه، وكل ما

---

(١) مشكاة المصابيح (١٠/ ٨٦)، ورقمه (٥٦١٦).

(٢) وهذا في الحديث الذي ورد في «التوحيد» لابن خزيمة (٢/ ٤٤٨).

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى قَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ أُعْطُوا فِيهَا مَا سَأَلُوا، قَالَ: يُقَالُ لَهُمْ: إِنَّهُ قَدْ بَقِيَ مِنْ حَقِّكُمْ شَيْءٌ لَمْ تُعْطَوْهُ قَالَ: فَيَتَجَلَّى لَهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ: وَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، الْحُسْنَى: الْجَنَّةُ، وَالزِّيَادَةُ: النَّظَرُ إِلَى رَبِّهِمْ، ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٦] بَعْدَ نَظَرِهِمْ إِلَى رَبِّهِمْ».

(٣) مشكاة المصابيح (٣/ ١٠٠)، ورقمه (٥٦٦٣).

جاء في ذلك الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ، فهو كما قال، ومعناه على ما أراد، لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا، فإنه ما سَلِم في دينه إلا من سلّم لله ﷻ ولرسوله ﷺ. وردّ علم ما اشتبه عليه إلى عالمه»(١).

وقال شارح الطحاوية مبينًا مذاهب الفرق الضالة في هذه المسألة ومذهب أهل الحق: المخالف في الرؤية الجهميةُ والمعتزلة ومن تبعهم من الخوارج والإمامية. وقولهم باطل مردود بالكتاب والسنة، وقد قال بثبوت الرؤية الصحابة والتابعون، وأئمة الإسلام المعروفون بالإمامة في الدين، وأهل الحديث، وسائر طوائف أهل الكلام المنسوبون إلى السنة والجماعة.

ثم بين أهمية هذه المسألة فقال: وهذه المسألة من أشرف مسائل أصول الدين وأجلها، وهي الغاية التي شمر إليها المشمرون، وتنافس المتنافسون، وحرمها الذين هم عن ربهم محجوبون، وعن بابه مردودون.

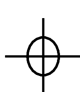
ثم بين أن قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣] من أظهر الأدلة على هذه المسألة.

وأما الذين أبوا إلا تحريفها بما يسمونه تأويلًا: فتأويل نصوص المعاد والجنة والنار والحساب أسهلُ من تأويلها على أرباب التأويل. ولا يشاء مبطل أن يتأول النصوص ويحرفها عن مواضعها إلا وجد إلى ذلك من السبيل ما وجده متأول هذه النصوص.

وبين خطورة التأويل: وهذا الذي أفسد الدنيا والدين. وهكذا فعلت اليهود والنصارى في نصوص التوراة والإنجيل، وحذرنا الله أن نفعل مثلهم.

---

(١) شرح الطحاوية: (٢٠٣).



وأبى المبطلون إلا سلوك سبيلهم، وكم جنى التأويل الفاسد على الدين وأهله من جناية. فهل قتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلا بالتأويل الفاسد؟!

وكذا ما جرى في يوم الجمل، وصفين، ومقتل الحسين، والحرة؟!

وهل خرجت الخوارج، واعتزلت المعتزلة، ورفضت الروافض، وافترقت الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، إلا بالتأويل الفاسد؟!».

ثم بين أن دلالة الآية على الرؤية من جانبين:

الأول: فقه النص.

والثاني: فقه علماء السلف لهذا النص:

ففي الأول قال: وإضافة النظر إلى الوجه - والذي هو محله - في هذه الآية، وتعديته بأداة «إلى» الصريحة في نظر العين، وإخلاء الكلام من قرينة تدل على خلافه - حقيقة موضوعة صريحة في أن الله أراد بذلك نظر العين التي في الوجه إلى الرب جل جلاله.

فإن النظر له عدة استعمالات، بحسب صلاته وتعديه بنفسه: فإن عدي بنفسه فمعناه: التوقف والانتظار: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣].

وإن عدي بـ«في» فمعناه: التفكر والاعتبار؛ كقوله: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

وإن عدي بـ«إلى» فمعناه: المعاينة بالأبصار؛ كقوله تعالى: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ [الأنعام: ٩٩]. فكيف إذا أضيف إلى الوجه الذي هو محل البصر؟!

وساق في الثاني عدة نصوص عن السلف تبين فقههم للآية، فعن الحسن

قال: نظرت إلى ربها فنضرت بنوره. وقال أبو صالح عن ابن عباس ﵄، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة: ٢٣].

قال: تنظر إلى وجه ربها ﷻ. وقال عكرمة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢﴾ [القيامة: ٢٢].

قال: من النعيم، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾، قال: تنظر إلى ربها نظرًا. ثم حكى عن ابن عباس مثله. وهذا قول المفسرين من أهل السنة والحديث. وقال تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥].

قال الطبري: قال علي بن أبي طالب وأنس بن مالك: هو النظر إلى وجه الله ﷻ.

ثم ذكر معنى الزيادة في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وأنها النظر إلى وجه الله الكريم، وساق في ذلك ما رواه مسلم في «صحيحه» عن صهيب، قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، قال: «**إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ** ﷻ[١]، **وَهِيَ الزِّيَادَةُ**»[٢].

ورواه غيره بأسانيد متعددة وألفاظ أخر، معناها أن الزيادة النظر إلى وجه الله ﷻ.

وكذلك فسرها الصحابة ﵃، روى ابن جرير ذلك عن جماعة، منهم: أبو

---

(١) مسلم: (١٨١).

(٢) السنة لابن أبي عاصم: (٢٠٥).

بكر الصديق، وحذيفة، وأبو موسى الأشعري، وابن عباس رضي الله عنهم.

ومن الأدلة على هذه المسألة قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٥].

وذكر المصنف أن الشافعي رحمه الله وغيره من الأئمة احتجوا بهذه الآية على الرؤية لأهل الجنة. ذكر ذلك الطبري وغيره عن المزني عن الشافعي، وقال الحاكم: حدثنا الأصم حدثنا الربيع بن سليمان قال: حضرت محمد بن إدريس الشافعي، وقد جاءته رقعة من الصعيد فيها: ما تقول في قول الله عز وجل: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٥]. فقال الشافعي: لما أن حجب هؤلاء في السخط، كان في هذا دليل على أن أولياءه يرونه في الرضا.

ثم تعرض لاستدلال المعتزلة بقوله تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وبقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، وذكر أن الآيتين دليل عليهم، فالآية الأولى: تدل على ثبوت رؤيته من وجوه:

أحدها: أنه لا يظن بكليم الله ورسوله الكريم وأعلم الناس بربه في وقته أن يسأل ما لا يجوز عليه، بل هو عندهم من أعظم المحال.

الثاني: أن الله لم ينكر عليه سؤاله، ولما سأل نوح ربه نجاة ابنه أنكر سؤاله، وقال: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦].

الثالث: أنه تعالى قال: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾، ولم يقل: إني لا أرى، أو لا تجوز رؤيتي، أو لست بمرئي. والفرق بين الجوابين ظاهر. ألا ترى أن من كان في كمه حجر فظنه رجل طعامًا صح أن يقال: إنك لن تأكله.

وهذا يدل على أنه سبحانه مرئي، ولكن موسى لا تحتمل قواه رؤيته في هذه الدار؛ لضعف قوى البشر فيها عن رؤيته تعالى.

الرابع: يوضح الوجه الثالث قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

فأعلمه أن الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت للتجلي في هذه الدار، فكيف بالبشر الذي خُلق من ضعف؟!

الخامس: أن الله ﷻ قادر على أن يجعل الجبل مستقرًّا، وذلك ممكن، وقد علق به الرؤية، ولو كانت محالًا لكان نظير أن يقول: إن استقر الجبل فسوف آكل وأشرب وأنام. والكل عندهم سواء.

السادس: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فإذا جاز أن يتجلى للجبل الذي هو جماد لا ثواب له ولا عقاب، فكيف يمتنع أن يتجلى لرسوله وأوليائه في دار كرامته؟ ولكن الله أعلم موسى أن الجبل إذا لم يثبت لرؤيته في هذه الدار، فالبشر أضعف.

السابع: أن الله كلم موسى، وناداه، ومن جاز عليه التكلم والتكليم وأن يسمع مخاطبة كلامه بغير واسطة، فرؤيته أولى بالجواز. ولهذا لا يتم إنكار رؤيته بإنكار كلامه، وقد جمعوا بينهما.

ثم أجاب على دعواهم أن «لن» تفيد التأبيد وتدل على نفس الرؤية في الآخرة، وبيّن الشيخ أنها لو قيدت بالتأبيد فلا تدل على دوام النفي في الآخرة، فكيف إذا أطلقت؟!

ولهذا نظائر في القرآن، قال تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا﴾ [البقرة: ٩٥]، مع قوله: ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ﴾ [الزخرف: ٧٧].

ولأنها لو كانت للتأبيد المطلق لما جاز تحديد الفعل بعدها، وقد جاء ذلك، قال تعالى: ﴿فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾ [يوسف: ٨٠].

فثبت أن (لن) لا تقتضي النفي المؤبد.

قال الشيخ جمال الدين بن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومن رأى النفي بلن مؤبدًا   فقوله اردد وسواه فاعضدا

وأما الآية الثانية: فالاستدلال بها على الرؤية من وجه حسن لطيف، وهو: أن الله تعالى إنما ذكرها في سياق التمدح، ومعلوم أن المدح إنما يكون بالصفات الثبوتية، أما العدم المحض فليس بكمال فلا يمدح به، وإنما يمدح الرب تعالى بالنفي إذا تضمن أمرًا وجوديًّا، كمدحه بنفي السِّنة والنوم، المتضمن كمال القيومية، وفي الموت المتضمن كمال الحياة، ونفي اللغوب والإعياء المتضمن كمال القدرة، ونفي الشريك والصاحبة والولد والظهير المتضمن كمال صمديته وغناه، ونفي الظلم المتضمن كمال عدله وعلمه وغناه، ونفي النسيان وعزوب شيء عن علمه، المتضمن كمال علمه وإحاطته، ونفي المثل المتضمن لكمال ذاته وصفاته.

ولهذا لم يتمدح بعدم محض لم يتضمن أمرًا ثبوتيًّا، فإن المعدم يشارك الموصوف في ذلك العدم، ولا يوصف الكامل بأمر يشترك هو والمعدوم فيه، فإن المعنى: إنه يُرى ولا يدرك ولا يحاط به، فقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] يدل على كمال عظمته، وأنه أكبر من كل شيء، وأنه لكمال عظمته لا يدرك بحيث يحاط به، فإن «الإدراك» هو الإحاطة بالشيء، وهو قدر زائد على الرؤية، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآ﴾ [الشعراء: ٦١-٦٢]. فلم ينفِ موسى الرؤية، وإنما نفى الإدراك، فالرؤية والإدراك كل منهما يوجد مع الآخر وبدونه، فالرب تعالى يُرى ولا يدرك، كما يعلم ولا يحاط به علمًا، وهذا هو الذي فهمه الصحابة والأئمة من الآية، كما ذكرت أقوالهم في تفسير الآية، بل هذه الشمس

المخلوقة لا يتمكن رائيها من إدراكها على ما هي عليه.

ثم ذكر الشيخ أن الأحاديث عن النبي ﷺ وأصحابه الدالة على الرؤية - متواترة، رواها أصحاب الصحاح والمسانيد والسنن.

فمنها: حديث أبي هريرة: «أن ناسًا قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «**هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟**» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟**» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ، كَذَلِكَ...**»، الحديث، أخرجاه في «الصحيحين» بطوله[(١)].

---

(١) مسلم: (١٨٢). ولفظه: عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَزِيدَ اللَّيْثِيِّ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ أَخْبَرَهُ، أَنَّ نَاسًا قَالُوا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟**» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟**» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ، يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْهُ، فَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ، وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْقَمَرَ الْقَمَرَ، وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ، وَتَبْقَى هَذِهِ الْأُمَّةُ فِيهَا مُنَافِقُوهَا، فَيَأْتِيهِمُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي صُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ، هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِيَنَا رَبُّنَا، فَإِذَا جَاءَ رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ، فَيَأْتِيهِمُ اللهُ تَعَالَى فِي صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا فَيَتَّبِعُونَهُ وَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ، وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ، وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، وَفِي جَهَنَّمَ كَلَالِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، هَلْ رَأَيْتُمُ السَّعْدَانَ؟**» قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ.

قَالَ: «**فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ مَا قَدْرُ عِظَمِهَا إِلَّا اللهُ، تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمُ الْمُؤْمِنُ بَقِيَ بِعَمَلِهِ، وَمِنْهُمُ الْمُجَازَى حَتَّى يُنَجَّى، حَتَّى إِذَا فَرَغَ اللهُ مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ، وَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ بِرَحْمَتِهِ مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا مِمَّنْ أَرَادَ اللهُ تَعَالَى أَنْ يَرْحَمَهُ مِمَّنْ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَيَعْرِفُونَهُمْ فِي النَّارِ، يَعْرِفُونَهُمْ بِأَثَرِ السُّجُودِ، تَأْكُلُ النَّارُ مِن ابْنِ آدَمَ إِلَّا أَثَرَ السُّجُودِ،** =

وحديث أبي سعيد الخدري أيضًا في «الصحيحين» نظيره. وحديث جرير ابن عبد الله البجلي قال: «كنا جلوسًا مع النبي ﷺ، فنظر إلى القمر ليلة أربع عشرة، فقال: «**أَمَا إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِيَانًا كَمَا تَرَوْنَ هَذَا، لَا تُضَامُونَ فِي**

= حَرَّمَ اللهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ، فَيُخْرَجُونَ مِنَ النَّارِ وَقَدِ امْتَحَشُوا، فَيُصَبُّ عَلَيْهِمْ مَاءُ الْحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ مِنْهُ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، ثُمَّ يَفْرُغُ اللهُ تَعَالَى مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ، وَيَبْقَى رَجُلٌ مُقْبِلٌ بِوَجْهِهِ عَلَى النَّارِ وَهُوَ آخِرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، اصْرِفْ وَجْهِي عَنِ النَّارِ، فَإِنَّهُ قَدْ قَشَبَنِي رِيحُهَا، وَأَحْرَقَنِي ذَكَاؤُهَا، فَيَدْعُو اللهَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَدْعُوَهُ، ثُمَّ يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: هَلْ عَسَيْتَ إِنْ فَعَلْتُ ذَلِكَ بِكَ أَنْ تَسْأَلَ غَيْرَهُ؟ فَيَقُولُ: لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ، وَيُعْطِي رَبَّهُ مِنْ عُهُودٍ وَمَوَاثِيقَ مَا شَاءَ اللهُ، فَيَصْرِفُ اللهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ، فَإِذَا أَقْبَلَ عَلَى الْجَنَّةِ وَرَآهَا سَكَتَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَسْكُتَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَيْ رَبِّ، قَدِّمْنِي إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: أَلَيْسَ قَدْ أَعْطَيْتَ عُهُودَكَ وَمَوَاثِيقَكَ لَا تَسْأَلُنِي غَيْرَ الَّذِي أَعْطَيْتُكَ، وَيْلَكَ يَا بْنَ آدَمَ، مَا أَغْدَرَكَ؟! فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، يَدْعُو اللهَ حَتَّى يَقُولَ لَهُ: فَهَلْ عَسَيْتَ إِنْ أَعْطَيْتُكَ ذَلِكَ أَنْ تَسْأَلَ غَيْرَهُ؟ فَيَقُولُ: لَا وَعِزَّتِكَ، فَيُعْطِي رَبَّهُ مَا شَاءَ اللهُ مِنْ عُهُودٍ وَمَوَاثِيقَ، فَيُقَدِّمُهُ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ.

فَإِذَا قَامَ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ انْفَهَقَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، فَرَأَى مَا فِيهَا مِنَ الْخَيْرِ وَالسُّرُورِ، فَيَسْكُتُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَسْكُتَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ: أَلَيْسَ قَدْ أَعْطَيْتَ عُهُودَكَ وَمَوَاثِيقَكَ أَنْ لَا تَسْأَلَ غَيْرَ مَا أُعْطِيتَ؟ وَيْلَكَ يَا بْنَ آدَمَ، مَا أَغْدَرَكَ!! فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، لَا أَكُونُ أَشْقَى خَلْقِكَ، فَلَا يَزَالُ يَدْعُو اللهَ حَتَّى يَضْحَكَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْهُ، فَإِذَا ضَحِكَ اللهُ مِنْهُ قَالَ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَإِذَا دَخَلَهَا قَالَ اللهُ لَهُ: تَمَنَّهْ، فَيَسْأَلُ رَبَّهُ وَيَتَمَنَّى حَتَّى إِنَّ اللهَ لَيُذَكِّرُهُ مِنْ كَذَا وَكَذَا، حَتَّى إِذَا انْقَطَعَتْ بِهِ الْأَمَانِيُّ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ذَلِكَ لَكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ».

قَالَ عَطَاءُ بْنُ يَزِيدَ: وَأَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ لَا يَرُدُّ عَلَيْهِ مِنْ حَدِيثِهِ شَيْئًا، حَتَّى إِذَا حَدَّثَ أَبُو هُرَيْرَةَ أَنَّ اللهَ قَالَ لِذَلِكَ الرَّجُلِ: «**وَمِثْلُهُ مَعَهُ**»، قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: «**وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ مَعَهُ**»، يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: مَا حَفِظْتُ إِلَّا قَوْلَهُ: «**ذَلِكَ لَكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ**»، قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: أَشْهَدُ أَنِّي حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَوْلَهُ: «**ذَلِكَ لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ**»، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَذَلِكَ الرَّجُلُ آخِرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا الْجَنَّةَ.

رُؤْيَتِهِ...» الحديث، أخرجاه في «الصحيحين»(١).

وحديث صهيب المتقدم رواه مسلم وغيره. وحديث أبي موسى عن النبي - ﷺ قال: «**وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ كَذَا، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ القَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الكِبْرِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ**»(٢)، أخرجاه في «الصحيحين».

ومن حديث عدي بن حاتم: «**وَلَيَلْقَيَنَّ اللَّهَ أَحَدُكُمْ يَوْمَ يَلْقَاهُ، وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ يُتَرْجِمُ لَهُ، فَلَيَقُولَنَّ لَهُ: أَلَمْ أَبْعَثْ إِلَيْكَ رَسُولًا فَيُبَلِّغَكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، فَيَقُولُ: أَلَمْ أُعْطِكَ مَالًا وَأُفْضِلْ عَلَيْكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَى**»(٣). أخرجه البخاري في «صحيحه»(٤).

---

(١) البخاري: (١٧١).

(٢) مشكاة المصابيح: (١٠/٨٦)، ورقمه: (٥٦١٦).

(٣) راجع شرح الطحاوية: (٢٠٤ - ٢١٠).

(٤) البخاري: (٣٥٩٥). ولفظه: عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، قَالَ: بَيْنَا أَنَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ فَشَكَا إِلَيْهِ الفَاقَةَ، ثُمَّ أَتَاهُ آخَرُ فَشَكَا إِلَيْهِ قَطْعَ السَّبِيلِ، فَقَالَ: «**يَا عَدِيُّ، هَلْ رَأَيْتَ الحِيرَةَ؟**». قُلْتُ: لَمْ أَرَهَا، وَقَدْ أُنْبِئْتُ عَنْهَا، قَالَ: «**فَإِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ، لَتَرَيَنَّ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الحِيرَةِ، حَتَّى تَطُوفَ بِالكَعْبَةِ لَا تَخَافُ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ**» - قُلْتُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي فَأَيْنَ دُعَّارُ طَيِّئٍ الَّذِينَ قَدْ سَعَّرُوا البِلَادَ - «**وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى**»، قُلْتُ: كِسْرَى ابْنِ هُرْمُزَ؟ قَالَ: «**كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ، وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ، لَتَرَيَنَّ الرَّجُلَ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ، يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ مِنْهُ فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهُ مِنْهُ، وَلَيَلْقَيَنَّ اللَّهَ أَحَدُكُمْ يَوْمَ يَلْقَاهُ، وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ يُتَرْجِمُ لَهُ، فَلَيَقُولَنَّ لَهُ: أَلَمْ أَبْعَثْ إِلَيْكَ رَسُولًا فَيُبَلِّغَكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، فَيَقُولُ: أَلَمْ أُعْطِكَ مَالًا وَأُفْضِلْ عَلَيْكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، فَيَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ، وَيَنْظُرُ عَنْ يَسَارِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ**» قَالَ عَدِيٌّ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقَّةِ تَمْرَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ شِقَّةَ تَمْرَةٍ، فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ**» قَالَ عَدِيٌّ: فَرَأَيْتُ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالكَعْبَةِ لَا تَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، وَكُنْتُ فِيمَنِ افْتَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ، وَلَئِنْ طَالَتْ بِكُمْ حَيَاةٌ لَتَرَوُنَّ مَا قَالَ النَّبِيُّ أَبُو القَاسِمِ ﷺ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ.

فعلى ما سبق يتبين أن أهل الإيمان سيرون ربهم، ونسأل الله أن نكون من الذين يسعدون برؤية الملك الجليل سبحانه وتعالى.





المبحث الثانى

سؤال موسى وطلبه لأوصاف أمة بعينها

سؤال موسى وطلبه لأوصاف أمة بعينها

قال ابن كثير: قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ قَالَ[1]: رَبِّ، إِنِّي أجدُ فِي الْأَلْوَاحِ أُمَّةً خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَاجْعَلْهُمْ أُمَّتِي. قَالَ: تِلْكَ أُمَّةُ أَحْمَدَ.

قَالَ: رَبِّ، إِنِّي أَجِدُ فِي الْأَلْوَاحِ أُمَّةً هُمُ الْآخِرُونَ - أَيْ: آخِرُونَ فِي الخَلْقِ - السابقون في دخول الجنة، رَبِّ اجْعَلْهُمْ أُمَّتِي. قَالَ: تِلْكَ أُمَّةُ أَحْمَدَ.

قَالَ: رَبِّ، إِنِّي أَجِدُ فِي الْأَلْوَاحِ أُمَّةً أَنَاجِيلُهُمْ فِي صُدُورِهِمْ يَقْرَؤُونَهَا - كِتَابُهُمْ - وَكَانَ مَنْ قَبْلَهُمْ يَقْرَؤُونَ كِتَابَهُمْ نَظَرًا، حَتَّى إِذَا رَفَعُوهَا لَمْ يَحْفَظُوا مِنْهَا شَيْئًا، وَلَمْ يَعْرِفُوهُ. قَالَ قَتَادَةُ: وَإِنَّ اللَّهَ أَعْطَاهُمْ أَيَّتُهَا الْأُمَّةُ مِنَ الْحِفْظِ شَيْئًا لَمْ يُعْطِهِ أَحَدًا مِنَ الْأُمَمِ. قَالَ: رَبِّ، اجْعَلْهُمْ أُمَّتِي. قَالَ: تِلْكَ أُمَّةُ أَحْمَدَ.

قَالَ: رَبِّ، إِنِّي أَجِدُ فِي الْأَلْوَاحِ أُمَّةً يُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ الْأَوَّلِ، وَبِالْكِتَابِ

(١) أي: موسى عليه السلام.

الْآخِرِ، وَيُقَاتِلُونَ فُصُولَ الضَّلَالَةِ، حَتَّى يُقَاتِلُوا الْأَعْوَرَ الْكَذَّابَ، فَاجْعَلْهُمْ أُمَّتِي. قَالَ: تِلْكَ أُمَّةُ أَحْمَدَ.

قَالَ: رَبِّ، إِنِّي أَجِدُ فِي الْأَلْوَاحِ أُمَّةً صَدَقَاتُهُمْ يَأْكُلُونَهَا فِي بُطُونِهِمْ، وَيُؤْجَرُونَ عَلَيْهَا - وَكَانَ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ إِذَا تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَقَبِلَتْ مِنْهُ، بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهَا نَارًا فَأَكَلَتْهَا، وَإِنْ رُدَّتْ عَلَيْهِ تُرِكَت، فَتَأْكُلُهَا السِّبَاعُ وَالطَّيْرُ، وَإِنَّ اللَّهَ أَخَذَ صَدَقَاتِكُمْ مِنْ غَنِيِّكُمْ لِفَقِيرِكُمْ - قَالَ: رَبِّ، اجْعَلْهُمْ أُمَّتِي. قَالَ: تِلْكَ أُمَّةُ أَحْمَدَ.

قَالَ: رَبِّ، إِنِّي أَجِدُ فِي الْأَلْوَاحِ أُمَّةً إِذَا هَمَّ أَحَدُهُمْ بِحَسَنَةٍ ثُمَّ لَمْ يَعْمَلْهَا، كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ رَبِّ اجْعَلْهُمْ أُمَّتِي. قَالَ: تِلْكَ أُمَّةُ أَحْمَدَ.

قَالَ: رَبِّ، إِنِّي أَجِدُ فِي الْأَلْوَاحِ أُمَّةً إِذَا هَم أَحَدُهُمْ بِسَيِّئَةٍ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ حَتَّى يَعْمَلَهَا، فَإِذَا عَمِلَهَا كُتِبَتْ عَلَيْهِ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةٌ، فَاجْعَلْهُمْ أُمَّتِي: قَالَ: تِلْكَ أُمَّةُ أَحْمَدَ.

قَالَ: رَبِّ، إِنِّي أَجِدُ فِي الْأَلْوَاحِ أُمَّةً هُمُ الْمُسْتَجِيبُونَ وَالْمُسْتَجَابُ لَهُمْ، فَاجْعَلْهُمْ أُمَّتِي. قَالَ: تِلْكَ أُمَّةُ أَحْمَدَ.

قَالَ: رَبِّ، إِنِّي أَجِدُ فِي الْأَلْوَاحِ أُمَّةً هُمُ المشفَّعون وَالْمَشْفُوعُ لَهُمْ، فَاجْعَلْهُمْ أُمَّتِي. قَالَ: تِلْكَ أُمَّةُ أَحْمَدَ.

قَالَ قَتَادَةُ: فَذُكِرَ لَنَا أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ مُوسَى ﷺ نَبَذَ الْأَلْوَاحَ، وَقَالَ اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنْ أُمَّةِ أَحْمَدَ[1].

---

(١) انظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٣/ ٥٥٣) وقال السيوطي: أخرج أَبُو الشَّيْخ عَن قَتَادَة قَالَ مُوسَى. وانظر: تفسير ابن كثير(٣/ ٤٧٩)، وتفسير الطبري (١٣/ ١٢٣) وقال=

وهنا أقول: هذا حوار دار بين رب السماء وبين الكليم موسى عليه السلام تظهر فيه فضائل أمة محمد ﷺ.



= الطبري: حدثنا بشر بن معاذ قال: حدثنا يزيد، قال: حدثنا سعيد، عن قتادة. ولم أفصل في هذه الصفات خشية الإطالة.



المبحث الثالث

مَا وَصَّى اللهُ بِهِ مُوسَى عليه السلام

ما وصى الله به موسى

يقول ابن كثير[1]: فَصْلٌ فِي دُخُولِ بَنِي إِسْرَائِيلَ التِّيه وَمَا جَرَى لَهُمْ فِيهِ مِنَ الْأُمُورِ الْعَجِيبَةِ:

قَدْ ذَكَرْنَا نُكُولَ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْ قِتَالِ الْجَبَّارِينَ، وأنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَاقَبَهُمْ بِالتِّيهِ، وَحَكَمَ بِأَنَّهُمْ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهُ إِلَى أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَلَمْ أَرَ فِي كِتَابِ أَهْلِ الْكِتَابِ قِصَّةَ نُكُولِهِمْ عَنْ قِتَالِ الْجَبَّارِينَ، وَلَكِنَّ فِيهَا: أَنَّ يُوشَعَ جَهَّزَهُ مُوسَى لِقِتَالِ طَائِفَةٍ مِنَ الْكُفَّارِ، وَأَنَّ مُوسَى وهارون وَخُورَ جَلَسُوا عَلَى رَأْسِ أَكَمَةٍ، وَرَفَعَ مُوسَى عَصَاهُ، فَكُلَّمَا رَفَعَهَا انْتَصَرَ يُوشَعُ عَلَيْهِمْ، وَكُلَّمَا مَالَتْ يَدُهُ بِهَا مِنْ تَعَبٍ أَوْ نَحْوِهِ غلبهم أولئك وجعل هارون وَخُورُ يُدَعِّمَانِ يَدَيْهِ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ ذَلِكَ الْيَوْمَ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ، فَانْتَصَرَ حِزْبُ يُوشَعَ عليه السلام.

وَعِنْدَهُمْ أَنَّ «يَثْرُونَ» كَاهِنَ مَدْيَنَ وَخَتَنَ مُوسَى عليه السلام بَلَغَهُ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ مُوسَى وَكَيْفَ أَظْفَرَهُ اللَّهُ بِعَدُوِّهِ فِرْعَوْنَ، فَقَدِمَ عَلَى مُوسَى مُسْلِمًا وَمَعَهُ ابْنَتُهُ صِفُّورَا زَوْجَةُ مُوسَى وَابْنَاهَا مِنْهُ، جَرْشُونُ وَعَازِرُ فَتَلَقَّاهُ مُوسَى وَأَكْرَمَهُ،

---

(١) البداية والنهاية ط إحياء التراث: (١/ ٣٢٥) وما بعدها.

وَاجْتَمَعَ بِهِ شُيُوخُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَعَظَّمُوهُ وَأَجَلُّوهُ.

وَذَكَرُوا أَنَّهُ رَأَى كَثْرَةَ اجتمع بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مُوسَى فِي الْخُصُومَاتِ الَّتِي تَقَعُ بَيْنَهُمْ، فَأَشَارَ عَلَى مُوسَى أَنْ يَجْعَلَ عَلَى النَّاسِ رِجَالًا أُمَنَاءَ أَتْقِيَاءَ أَعِفَّاءَ، يُبْغِضُونَ الرشاء والخيانة، فيجعلهم على الناس رُؤُوسَ مِئِينَ، وَرُؤوسَ خَمْسِينَ، وَرُؤوسَ عَشَرَةٍ، فَيَقْضُوا بَيْنَ الناس، فإذا أشكل عليهم أمر جاؤك فَفَصَلْتَ بَيْنَهُمْ مَا أَشْكَلَ عَلَيْهِمْ، فَفَعَلَ ذَلِكَ مُوسَى عليه السلام.

قَالُوا: وَدَخَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ الْبَرِّيَّةَ عِنْدَ سَيْنَاءَ فِي الشَّهْرِ الثَّالِثِ مِنْ خُرُوجِهِمْ مِنْ مِصْرَ، وَكَانَ خُرُوجُهُمْ فِي أَوَّلِ السَّنَةِ الَّتِي شُرِعَتْ لَهُمْ وَهِيَ أَوَّلُ فَصْلِ الرَّبِيعِ، فَكَأَنَّهُمْ دَخَلُوا التِّيهَ فِي أَوَّلِ فَصْلِ الصَّيْفِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قَالُوا: وَنَزَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ حَوْلَ طُورِ سَيْنَاءَ وَصَعِدَ مُوسَى الْجَبَلَ فَكَلَّمَهُ رَبُّهُ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُذَكِّرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ إِنْجَائِهِ إِيَّاهُمْ مِنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، وَكَيْفَ حَمَلَهُمْ عَلَى مِثْلِ جَنَاحَيْ نِسْرٍ مِنْ يَدِهِ وَقَبْضَتِهِ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِأَنْ يَتَطَهَّرُوا، وَيَغْتَسِلُوا وَيَغْسِلُوا ثِيَابَهُمْ، وَلْيَسْتَعِدُّوا إِلَى الْيَوْمِ الثَّالِثِ، فَإِذَا كَانَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ، فَلْيَجْتَمِعُوا حَوْلَ الْجَبَلِ، وَلَا يَقْتَرِبَنَّ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَيْهِ، فَمَنْ دَنَا مِنْهُ قتل حتى ولا شيء مِنَ الْبَهَائِمِ، مَا دَامُوا يَسْمَعُونَ صَوْتَ الْقَرْنِ، فَإِذَا سَكَنَ الْقَرْنُ فَقَدْ حَلَّ لَكُمْ أَنْ ترتقوه، فسمع بنو إسرائيل ذلك وَأَطَاعُوا وَاغْتَسَلُوا وَتَنَظَّفُوا وَتَطَيَّبُوا.

فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّالِثُ رَكِبَ الْجَبَلَ غَمَامَةٌ عَظِيمَةٌ وَفِيهَا أَصْوَاتٌ وَبُرُوقٌ وَصَوْتُ الصُّورِ شَدِيدٌ جِدًّا، فَفَزِعَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ ذَلِكَ فَزَعًا شَدِيدًا، وَخَرَجُوا فَقَامُوا فِي سَفْحِ الْجَبَلِ، وَغَشِيَ الْجَبَلَ دُخَانٌ عَظِيمٌ، في وسطه عمود من نُورٍ، وَتَزَلْزَلَ الْجَبَلُ كُلُّهُ زَلْزَلَةً شَدِيدَةً، وَاسْتَمَرَّ صَوْتُ الصُّورِ - وَهُوَ الْبُوقُ - وَاشْتَدَّ وَمُوسَى عليه السلام فَوْقَ الْجَبَلِ وَاللَّهِ يُكَلِّمُهُ وَيُنَاجِيهِ.

وَأَمَرَ الرب ﷻ موسى أن ينزل، فأمر بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَقْتَرِبُوا مِنَ الْجَبَلِ لِيَسْمَعُوا وصية الله ويأمر الأحبار - وهم علماؤهم - أَنْ يَدْنُوا فَيَصْعَدُوا الْجَبَلَ لِيَتَقَدَّمُوا بِالْقُرْبِ، وَهَذَا نَصٌّ فِي كِتَابِهِمْ عَلَى وُقُوعِ النَّسْخِ لَا مَحَالَةَ، فَقَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ، إِنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَصْعَدُوهُ، وَقَدْ نَهَيْتَهُمْ عَنْ ذَلِكَ، فَأَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَذْهَبَ، فَيَأْتِيَ مَعَهُ بأخيه هارون وَلْيَكُنِ الْكَهَنَةُ - وَهُمُ الْعُلَمَاءُ - وَالشَّعْبُ - وَهُمْ بَقِيَّةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ غَيْرَ بَعِيدٍ - فَفَعَلَ مُوسَى وَكَلَّمَهُ ربه ﷻ فَأَمَرَهُ حِينَئِذٍ بِالْعَشْرِ كَلِمَاتٍ.

وَعِنْدَهُمْ: إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَمِعُوا كَلَامَ اللَّهِ وَلَكِنْ لَمْ يَفْهَمُوا حَتَّى فَهَّمَهُمْ مُوسَى، وَجَعَلُوا يَقُولُونَ لِمُوسَى: بَلِّغْنَا أنت عن الرب ﷻ فَإِنَّا نَخَافُ أَنْ نَمُوتَ، فَبَلَّغَهُمْ عَنْهُ، فَقَالَ: هَذِهِ الْعَشْرُ الْكَلِمَاتِ: وَهِيَ الْأَمْرُ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْحَلِفِ بِاللَّهِ كَاذِبًا، وَالْأَمْرُ بِالْمُحَافَظَةِ عَلَى السَّبْتِ. وَمَعْنَاهُ تَفَرُّغُ يَوْمٍ مِنَ الْأُسْبُوعِ لِلْعِبَادَةِ، وَهَذَا حَاصِلٌ بِيَوْمِ الْجُمُعَةِ الَّذِي نَسَخَ اللَّهُ بِهِ السَّبْتَ.

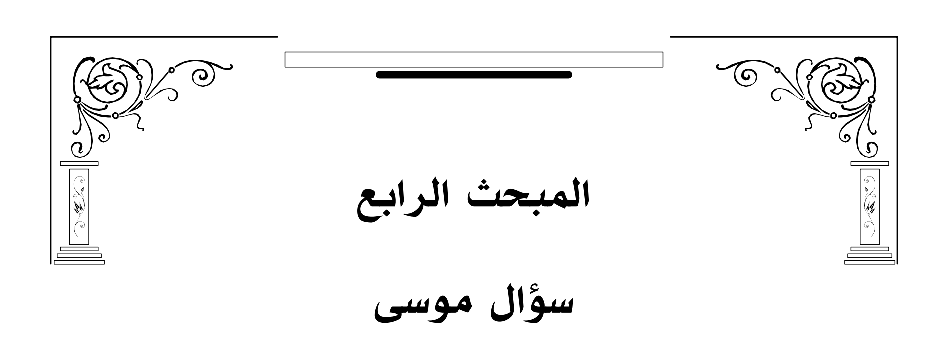
أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ لِيَطُولَ عُمْرُكَ فِي الْأَرْضِ، الَّذِي يُعْطِيكَ اللَّهُ رَبُّكَ، لَا تَقْتُلْ لَا تَزْنِ. لَا تَسْرِقْ. لَا تَشْهَدْ على صَاحِبِكَ شَهَادَةَ زُورٍ، لَا تَمُدَّ عَيْنَكَ إِلَى بَيْتِ صَاحِبِكَ، وَلَا تَشْتَهِ امْرَأَةَ صَاحِبِكَ وَلَا عَبْدَهُ وَلَا أَمَتَهُ وَلَا ثَوْرَهُ وَلَا حِمَارَهُ وَلَا شَيْئًا مِنَ الَّذِي لِصَاحِبِكَ. وَمَعْنَاهُ النَّهْيُ عَنِ الْحَسَدِ.

وَقَدْ قَالَ كَثِيرٌ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلف وَغَيْرِهِمْ: مَضْمُونُ هَذِهِ الْعَشْرِ الْكَلِمَاتِ فِي آيَتَيْنِ مِنَ الْقُرْآنِ، وَهُمَا قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا

مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ ...﴾ [الأنعام: ١٥١ - ١٥٣] (١).



(١) انظر شرح هذه الوصايا في كتابي: «فتح العليّ في بيان ما عليه خاتم النبيّ».



المبحث الرابع

سؤال موسى

عن نعيم أهل الجنة

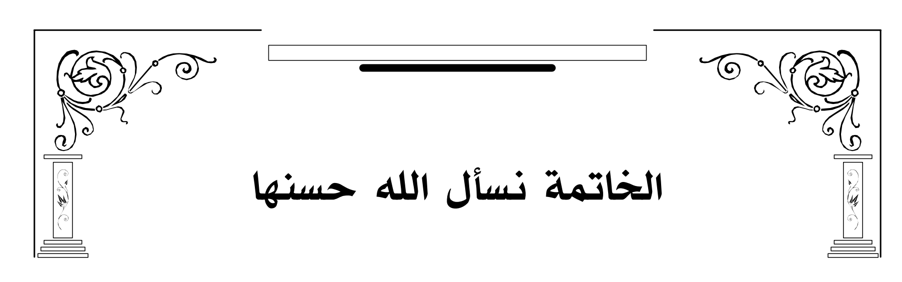
سُؤَالُ مُوسَى عَنْ نَعِيمِ أَهْلِ الْجَنَّةِ(١)

قال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ إِسْحَاقَ، حَدَّثَنَا ابْنُ لَهِيعَةَ، عَنْ دَرَّاجٍ، عَنْ أَبِي الْهَيْثَمِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: **«إِنَّ مُوسَى قَالَ: أَيْ رَبِّ، عَبْدُكَ الْمُؤْمِنُ تُقَتَّرُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، قَالَ: فَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنَ الْجَنَّةِ، فَيَنْظُرُ إِلَيْهَا، قَالَ: يَا مُوسَى هَذَا مَا أَعْدَدْتُ لَهُ، فَقَالَ مُوسَى: أَيْ رَبِّ، وَعِزَّتِكَ وَجَلَالِكَ لَوْ كَانَ أَقْطَعَ الْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ، يُسْحَبُ عَلَى وَجْهِهِ مُنْذُ يَوْمَ خَلَقْتَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَكَانَ هَذَا مَصِيرَهُ، لَمْ يَرَ بُؤْسًا قَطُّ، قَالَ: ثُمَّ قَالَ مُوسَى: أَيْ رَبِّ، عَبْدُكَ الْكَافِرُ تُوَسِّعُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، قَالَ: فَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنَ النَّارِ، فَيُقَالُ: يَا مُوسَى هَذَا مَا أَعْدَدْتُ لَهُ، فَقَالَ مُوسَى: أَيْ رَبِّ، وَعِزَّتِكَ وَجَلَالِكَ، لَوْ كَانَتْ لَهُ الدُّنْيَا مُنْذُ يَوْمَ خَلَقْتَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَكَانَ هَذَا مَصِيرَهُ، كَأَنْ لَمْ يَرَ خَيْرًا قَطُّ»**(٢)

---

(١) انظر وصف الجنة ووصف النار فى كتابى: «البيان فى صفات عباد الرحمن».

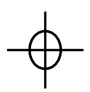
(٢) أورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٦٦ - ٢٦٧)، وقال: رواه أحمد، وفيه ابن لهيعة ودراج، وقد وثقا على ضعف فيهما.

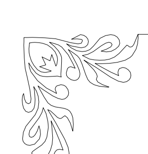
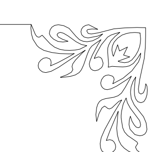


الخاتمة نسأل الله حسنها

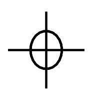
أتيتُك راجيًا يَا ذا الجلالِ... ففرِّجْ ما تَرَى من سُوءِ حَالي
عَصَيْتُك سَيِّدِي ويْلِي بجَهْلي وَعَيبُ الذنبِ لم يخطُرْ ببالي
إلى من يَشْتَكِي المملوكُ إلَّا إلى مَوْلَاهُ يا مَوْلَى المَوالي
لَعَمْرِي ليتَ أُمِّي لَم تلِدْني ولم أُغْضِبْك في ظُلَمِ اللَّيَالي
فَهَا أنا عبدُك العَاصي فقيرٌ إلى رُحْماكَ فاقبلْ لي سُؤَالي
فإنْ عاقَبْتَ يا ربِّي تُعَاقِبْ مُحقًّا بالعذابِ وبالنَّكَال
وإن تَعْفو فعفْوك قد أَرَاني لِأفعالي وأوزاري الثقال

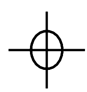


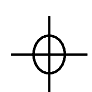


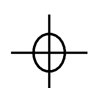



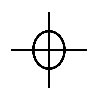
فهرس الموضوعات

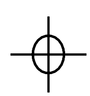






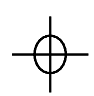






الفصل الثانى

سُؤَالُ الْكَلِيمِ أَنْ يُعَلمَهُ اللَّهُ شَيْئًا يَذْكُرُهُ بِهِ



الفصل الثالث

أَسْئِلَةٌ مُتَفَرِّقَةٌ لِلْكَلِيمِ مُوسَى عليه السلام

